أمين معلوف

من الأكاديمية الفرنسية

مكتبة ٧١٠

إخوتنا الغرباء

رواية

ترجمة نهلة بيضون

الفارابي

مكتبة | 710
سُر مَن قرأ

إخوتنا الغرباء

Amin Maalouf

de l'Académie française

Nos frères inattendus

roman

BERNARD GRASSET

PARIS

أمين معلوف
من الأكاديمية الفرنسية

مكتبة | 710
سُر مَن قرأ

إخوتنا الغرباء

(رواية)

ترجمة: نهلة بيضون

دار الفارابي

مكتبة
t.me/t_pdf

الكتاب: إخوتنا الغرباء

المؤلف: أمين معلوف

المترجمة: نهلة بيضون

لوحة الغلاف: René Magritte, *La victoire*

الناشر: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان

ت: ٣٠١٤٦١(٠١) - فاكس: ٣٠٧٧٧٥(٠١)

ص.ب: ١١/٣١٨١ - الرمز البريدي: ٢١٣٠ ١١٠٧

www.dar-alfarabi.com

e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى: آذار ٢٠٢١

ISBN: 978-614-485-118-0

© جميع الحقوق محفوظة

© حقوق الطبعة الفرنسية

Éditions Grasset & Fasquelle, 2020.

ISBN 978-2-246-82641-5

تباع النسخة الكترونياً عبر موقع الدار.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن رأي الدار.

المحتويات

المفكرة الأولى: غشاوات........................ ١٣
المفكرة الثانية : انجلاءات ٨١
المفكرة الثالثة : سفن راسيات ١٧٩
المفكرة الرابعة : استتارات........................ ٢٥٩

إلى نيكي وجان -كلود فاسكيل

إلى ذكرى هند، ١٩٤٧-٢٠١٦

«الروايات تنشأ من نواقص التاريخ»

نوفاليس، الشذرات

المفكرة الأولى

غشاوات

«إن هذه السماء المكفهرة لن تصفو إلا بعد عاصفة»

شكسبير، الملك جون

مكتبة
t.me/t_pdf

الثلاثاء ٩ تشرين الثاني

ارتعش مصباحي الذي تبلغ قوته مائتي واط في السقف مثل شمعة كنيسة هزيلة، وانطفأ.

حبستُ أنفاسي. كنت أخطُّ بالحبر الصيني المعالم النهائية لرسم من رسومي، فجمدت يدي، ثم رفعتها ببطء رأسياً لئلا يتلطَّخ.

في الخارج، كانت العاصفة التي أعلن عنها تصول وتجول. ليس الأمر مستغرباً في هذا الفصل، قرب المحيط الأطلسي. أمطار، ورياح، وبروق. وفي الخلفية، هديرُ الرعد الذي يزمجر، بين دويٍّ وآخر.

لم أقلق للوهلة الأولى. لم تثر حتى ثائرتي. فنهاري أزفت نهايته بطبيعة الحال. ربما كانت الساعة تشير إلى السابعة والنصف مساء، أو قد تجاوزتها بقليل. لقد أُنجز رسمي. غدا صباحاً، ألقي عليه نظرة أخيرة، وأضيف إليه بعض اللمسات، وتوقيعي، ثمَّ أرسله.

عثرتُ متلمساً سبيلي في العتمة على غطاء القلم الذي أحكمتُ إغلاق رأسه المستدق خوفاً من جفاف حبره. ثم مددتُ يدي، بحركة مألوفة، نحو مذياعي عند طرف الطاولة، متلمساً سبيلي في العتمة أيضاً.

إنه مبرمجٌ دوماً على المحطة نفسها، أتلاتنك ويف، التي تبثُّ على الموجات الطويلة انطلاقاً من كورنوال البريطانية. قلما تُخيِّب خياراتها الموسيقية توقعاتي، وكل ساعة، تبثُّ نشرة إخبارية أعتبرها موثوقة، لأنها تتناول كل ما يعتري كوكبنا، ولا تقتصر على مآثر فريق بورنموث للرغبي.

هذا ما كنت أحتاج إليه بالضبط في نهاية هذا اليوم. موسيقى صديقة تؤنسني وسط العتمة القسرية. ثم، بعد عشر دقائق أو خمس وعشرين دقيقة، أخبار العالم، تقرأها باربارا غرينفيل بصوت صاف ومطمئن.

من مذياعي، يسمعُ صفير. لا موسيقى ولا باربارا. لا شيء سوى صفير على مرحلتين، يتضخَّم ثم يتضاءل، مثل صفارة إنذار، إنما من دون الجانب المدوِّي. أكاد أقول إنه مُلطَّف بالأحرى... مسحتُ بصبر كامل نطاق الموجة الطويلة، ثم الموجة المتوسطة، ثم التضمين الترددي. وفي كل مرة، كان يتكرّر ذلك الصفير، وكأن جميع الموجات الإذاعية انصهرت في موجة يتيمة.

هل تعطَّل مذياعي؟ تناولتُ مصباحاً كهربائياً يدوياً من على

الرف، فوق رأسي، للذهاب إلى غرفتي، حيث كان مذياع آخر موجوداً بجانب السرير، أقدم، وأثقل وزناً. شغَّلتُه. تعالى الصفير نفسه. عبثتُ ببعض الأزرار، من دون اقتناع. كلا، ليس عطلاً. كان يجدر بي أن أتنبه إلى ذلك في الحال. المذياع يشتغل أو يصمت عندما تفرغ البطاريات. وفي أفضل الأحوال، إذا تلقى صدمة، قد يصدر طنيناً متواصلاً، إنما ليس هذا الصفير الرتيب. في جميع الأحوال، كنت في ورطة، مع مذياعين أصابهما العطل نفسه في آن واحد!

ولكن، ما الخطب؟ ماذا جرى؟

وفجأة، أدركتُ ما جرى. على الأقل، تراءى لي أنني أدركت. وتهاويتُ على سريري، محتضناً رأسي بين راحتي.

يا إلهي! أتراهم فعلوها؟

الأرذال! المجانين!

لا بد أنني ردَّدت عشر مرات على التوالي: «الأرذال! المجانين»، بصوت ترجّح بين انخفاض وارتفاع، ثم انتصبتُ واقفاً. تناولتُ هاتفي في راحة يدي من دون أن أعلم بمن أتصل. ربما بربيبتي التي تعيش في باريس... انقطعت التغطية بالشبكة، بالطبع. والهاتف توقّف بدوره ولم يعد يشتغل.

انقضت أربع أو خمس ساعات، ولكن الكلمات نفسها استمرّت تجول في ذهني.

الأرذال! المجانين! لقد تجاسروا وأقدموا على فعلتهم!

ففي اللحظة التي أخطُّ فيها هذه السطور، لدي من الأسباب ما يدعو إلى الاعتقاد بأن مأساة قد حلَّت. لا كارثة طبيعية، بل كارثة عنيفة من صنع الإنسان. الخطأ الشنيع الأخير لجنسنا البشري، الذي سيختتم بضعة آلاف السنين من تاريخنا، وسيُسدل الستارة الأخيرة على حضاراتنا الجليلة، وسيودي بنا جميعاً إلى التهلكة مصادفةً، هذا المساء بالذات، أو ربما غداً عند بزوغ الفجر...

أتوقفُ عن الكتابة، أعيدُ قراءة ما كتبت، وألوِّح برأسي هلعاً مكذِّباً. لم يخطر ببالي يوماً أنني قد أدوِّن مثل هذه الفظاعة بيد تكاد لا ترتعش!

ما يشدُّ أزري قليلاً في هذه المحنة، إلى جانب الغضب، هو الحيرة التي تظل ماثلة. أجل، ما زلت أرجو أن تأتي الساعات القادمة وتُكذِّب حدسي. غير أن أحداث الأسابيع المنصرمة، والحق يقال، تنذر بالأسوأ لمن تابعوها. والحق يقال كذلك إن الأعطال المتنوعة لا تُبشِّر بالخير. لا انقطاع التيار الكهربائي، وهو مألوف في الفترات التي تتردى فيها أحوال الطقس؛ ولا عطل الهاتف المحمول الذي لطالما اشتغل حتى الساعة بصورة متقلبة؛ ولا عطل الموجات الإذاعية؛ ولكن ما يفوق ذلك عجباً هو تزامن هذه الأعطال. هل الأمر محض صدفة؟ يصعب عليَّ تصديق ذلك.

لو شئت أن أضفي على هذه الصفحات مزيداً من الرصانة، فيجدر تكريس بعض الوقت للتحدث بالتفصيل عن الأحداث التي لمحت إليها. وسأنبري لهذه المهمة حين يصفو ذهني... وفي الوقت

الراهن، لا أشعر بأنني أقوى على ترتيب أفكاري أو طرح فرضيات. ولا يسعني سوى القول ما أسمعه أو ما لم أعد أسمعه، ما أشاهده وما لم أعد أشاهده، ما أحسُّ به، واستحضار الذكريات التي تقضُّ مضجعي.

بقيت وقتاً طويلاً مستلقياً على فراشي، وسط عتمة دامسة، والهاتف الأبكم يلتصق بأذني. وفي المذياع، يستمر ذاك الصفير المنتظم. في الخارج، سكنت العاصفة قليلاً. كفَّ المطر عن العزف على قرميد سقف منزلي أو على الواجهة الزجاجية التي حوَّلها الليل إلى مرآة كامدة.

وعلى حين غرة، تملكتني الرغبة في التحدث إلى أحدهم، في الحال. إنها أكثر من رغبة، بل حاجة ملحة، وكأن وحدتي راحت تنوء بوطأتها جسدياً على صدري. وللمرة الأولى منذ اثني عشر عاماً، ندمتُ لأنني لم أعد أقيم في مدينة أو في قرية مثل سائر البشر.

فأنا أعيش في جزيرة. إنها جزيرة صغيرة، الأصغر حجماً في أرخبيل يتألف من أربع جزر، تسمى «الشيرون».

أما بقية السكان فيعيشون في شيرون الكبرى، حيث يقع التجمع السكاني الوحيد الجدير بهذه التسمية، بور-أتلانتيك. أكثر هذه الجزر اتساعاً، واسمها شيرون الحصن هي منذ ثلاثة قرون قاعدة للقوات البحرية الفرنسية؛ لم أزرها في حياتي قطّ. لكن شيرون الوادي فهي محمية طبيعية وبحرية، لا يقيم فيها سوى الباحثين. أما جزيرتي التي تخصني فهي أكثرها تواضعاً، ومن الغريب أن اسمها أنطاكية.

لطالما اعتقدت أنني مالكها الوحيد. ويعتريني الخجل قليلاً

لأنني أتحدث عن ذلك الآن، وسط كل ما يجري. ولكن إذا قُدِّر لهذه الصفحات أن تكون صفحات شهادة أخيرة، وإذا قُدِّر لأحدهم قراءتها يوماً، فلا بد لي من أن أدوِّن فيها قصتي: أصولي، ومساري، ووحدتي التي اخترتها بملء إرادتي... وسبب جيرتي لروائية اسمها إيف.

*

أبصرتُ النور في مونتريال لأم أميركية وأب كان يقدّس أصوله الفرنسية. وخلال الحرب العالمية الثانية، شارك بصفته ضابطاً شاباً في إنزال النورماندي، على غرار الآلاف من الكنديين أمثاله، ولكن المسألة كانت مثقلة لديه بالدلالات. أجرى أبحاثاً عن أسلافه، فاكتشف أن أصولهم تعود إلى هذا المكان، بالضبط، جزر الشيرون، وأنهم أبحروا من بور-أتلانتيك قبل ثلاثة قرون خلت. فالعودة إلى «أرضه» محرراً كانت تضاهي عنده أجمل المكافآت.

بعد مرور بضعة أسابيع على الإنزال، طلب مأذونية لبضعة أيام من أجل زيارة الأرخبيل. أتخيله هنا، ماردأ بشاربيه وهيئته البريطانية الزائفة، متلمساً ومتنشقاً كل ما يحيط به، والدموع تنهمر من عينيه.

اصطحبوه إلى أنطاكية. الجزيرة الصغيرة التي تتميَّز بأنها مرتبطة بشيرون الكبرى بممرٍّ يُسمَّى الـ«غواي»، تغمره المياه ساعة المد ثمَّ تنحسر عنه ساعة الجزر، ما يجعله سالكاً لمن شاء عبوره سيراً على الأقدام من دون بلل مرتين في النهار.

وبينما كان والدي منبهراً بالمكان، باغته ما تناهى إلى مسمعه

بأن السلطات المحلية قد عرضت أراضي أنطاكية للبيع. وبما أنه يملك المال، ويتمتع بطبع لا بأس في اندفاعه، فقد اشتراها كلها، في الحال، ثم أعلن، بمهابة، أنه سيعود عما قريب لتشييد منزل في الجزيرة والاستقرار فيها.

لم يُقدَّر له أن يفي بوعده. فبعد أن وضعت الحرب أوزارها، ألَمَّت بأسرتنا، ويا للأسف، بعض صروف الدهر. فتعثرت مصالح جدي لأمي، وهو صاحب مصنع في ولاية فرمونت، وأفلس والدي بدوره، في سعيه لمساندة حميه مادياً، ما اضطره ووالدتي إلى بيع منزلهما في وست ماونت والانتقال للعيش في شقة كئيبة، فاشتغل في عمل مكتبي متواضع، كان يصيبه بالملل من دون شك لأنه لم يكن يذكره قطّ. أصبح مُقلاً في الكلام، كتوماً، وأحسستُ بمرارته. لا تبرق أساريره إلا في مرات قليلة حين يتحدث عن الجزيرة التي يملكها.

أنطاكية!

باع كلَّ ما يملك في كندا لتسديد ديونه، ولكنه احتفظ بأرضه النائية، ولم يفكر قطّ في بيعها. كان يمنّي النفس بادخار بعض المال لكي يتيسر لنا عبور المحيط الأطلسي يوماً، هو وأمي وأنا، من أجل تشييد منزل على أرض جزيرتنا.

سكن هذا الحلم طفولتي، ومراهقتي، بل وتجاوزهما إلى أبعد من ذلك. فأمام الحياة في المدن وإيقاع الحياة اليومية والمشاغل، كانت تلك جنتنا، لنا وحدنا، أنطاكية. وسيكون في وسعنا العيش فيها بفضل ما نجنيه من ثمار أرضنا ومن ثمار البحر.

لو تُرك الأمر لي، لاصطحبت والـدي ووالدتي في الحال، وتخلّصتُ من كل ما تبقى لنا، الأثاث، ونصف الملابس، وجئت إلى الجزيرة، وشيَّدت كوخاً مسقوفاً بالأغصان.

كانت الحياة مثل روبنسون كروزو تستهوي والدي ووالدتي أحياناً، وبالأخص والدي، في ساعات الاسترسال في الأحلام أو في أوقات الشدائد. ولكنهما كانا يتحفظان عن الإقدام على الخطوة، فليس باستطاعتنا العيش تحت الأغصان بمحاذاة شمال الأطلسي، حتى على ساحل يداعبه تيار الخليج الدافئ. ومن ثم، أثيرت مسألة دراستي. ولو كان الأمر بيدي، لاخترت المغامرة سبيلاً. كان والداي لا ينظران إلى الأمور من منظوري، ويقولان لي: «إذا استطعنا أن نؤمن التحاقك بجامعة مرموقة، سنكون قد تركنا لك ما هو أفضل من ثروة».

لم تكتحل عينا أبي برؤية أنطاكية ثانية قطّ. ولم تكتحل عيناه كذلك برؤيتي متخرجاً في الجامعة. فقد توفي وأنا في السادسة عشرة، وهو في السابعة والخمسين.

أعتقد أنني أنجزتُ، منذ ذلك الحين، ما كان يتمنى أن أنجزه. فلقد حصلت على منح دراسية لمتابعة تحصيلي العلمي في جامعة مكغيل، ثم في جامعة هارفرد؛ واخترت دراسة الحقوق والاقتصاد وتاريخ الحضارات؛ ومارست التدريس لمدة سنتين في سياتل، بولاية واشنطن؛ واشتغلت ثلاث سنوات في أوتاوا، في مكتب للمحاماة... قبل أن أكتشف أن لدي شغفاً وحيداً، وموهبة وحيدة، ستصبح لقمة عيشي ألا وهي الرسم. وبما أنني أدعى ألكسندر، فلقد اخترت ألك

سندر اسما مستعاراً، ولم يتطلب ذلك مني سوى القيام بتعديل شكلي بشكل طفيف للغاية.

توفيت والدتي منذ اثني عشر عاماً في مونتريال، وقد هرمت قبل الأوان. ولقد وافتها المنية مرتين: المرة الأولى لدى مغادرة منزلها في وست ماونت، والثانية لدى وداع والدي إلى مثواه الأخير. وأظن أنني أدخلت البهجة إلى حياتها في آخر سنوات عمرها، ولكنها كانت مريضة في الأساس، وتشدُّها أواصر أوثق في «المقلب الآخر للحياة»....

وفي يوم مأتمها، كان الثلج ينتشر في كل مكان والجليد يعمُّ المقبرة. تأملتُ المشهد من حولي، ثم جميع الوجوه وجهاً وجهاً – الزملاء المستعجلين الذين يتفقدون الساعة خلسةً، والجيران المحتشدين، والأنسباء المنسيين. واعترتني الرغبة فجأة في رؤية الشمس تتلألأ على بحر صديق، فهمست لوالديَّ الراحلين: «لقد حققتُ أمنياتكما الملائمة من خلال تحصيلي العلمي. والآن، سأحقِّق حلمكما المجنون».

«أنطاكية؟»، ابتسم أصدقائي، جميعهم بلا استثناء. «لن تتحمل العيش فيها أكثر من ستة أسابيع!» وراح أكثرهم فضولاً ينقِّبون في الأطالس والموسوعات. أنتيوش، وتُعرف اليوم بأنطاكية، مدينة في تركيا، على نهر العاصي... كلا، ليست هي. مضيق أنطاكية: اسم أطلق على المضيق الذي يفصل بين جزيرة ري وجزيرة أوليرون، غرب فرنسا... ها قد اقتربوا منها، ولكنها ليست «جزيرتي» بعد، التي لا

وجود لها إلا على خرائط بحرية بالغة التفصيل. ولا سيما – وهذا هو الأهم! – على صك الشراء الذي احتفظ به والدي كالدرة النفيسة.

هل قلت إن أصدقائي ابتسموا وهزوا أكتافهم ؟ ابتسمتُ كذلك بدوري، على طريقتي. قبلتُ التحدي! ورحلت. وحدي، سياديٌّ في وحدتي. بحوزتي صكُّ ملكيتي، ومدخراتي الشحيحة، إنما كذلك، ولحسن الحظ، مصدر موارد لا يستهان به: عقد «بيع حقوق النشر» مع شتى المؤسسات الإعلامية. والشخصية التي اخترعتها، غروم، الرحالة المستقر، نالت، منذ أن أبصرت النور، نصيباً من الشعبية لم تُكذَّب منذ ذلك الحين؛ فعلى هذا النحو، نُشرت رسومي العام الماضي على صفحات الرسوم المصوَّرة لاثنتين وثمانين صحيفة في أميركا الشمالية، وأوروبا، وأستراليا، وأماكن أخرى. وبموجب بنود عقدي، فأنا ملزمٌ بإرسال شريط قصير مؤلف من ثلاثة رسوم يومياً. وبالطبع، لا أرسلها يوماً بعد يوم، بل على شكل دزينة، كل أسبوعين.

كان باستطاعتي إرسال رسومي من نيويورك أو هونولولو أو سنغافورة، ما الفرق؟ في جزيرتي، كنت أنتج كماً ونوعاً. وعلى هذا النحو، أظن أنني أملك في جواريري، في الوقت الراهن، أشرطة جاهزة للأشهر الأربعة القادمة. ولدي متسع من الوقت لإنجاز أمور كثيرة أخرى، مثل كاريكاتير الرأي هذا الذي أنشره كل أسبوع في مجلة المرقاب الأدبي.

في السنة الأولى، أقمتُ في نزل كائن في بور-أتلانتيك، ومكثتُ فيه الوقت الكافي لتشييد منزلي.

وحتى هنا، في أرخبيل الشيرون، ابتسم الناس حين سمعوا بأنني قد عقدت العزم بالفعل على العيش في أنطاكية. فيما مضى، كانت الجزيرة تضم قرية لصيادي الأسماك، ولكنها مهجورة منذ سبعين عاماً ونيف.

بمفردي، ومن دون أحد غيري، سأغير وضع الجزيرة. فمن مهجورة، أضحت مأهولة. عدد سكانها: نسمة واحدة.

كنت مقتنعاً، لدى وصولي إليها، بأنني كذلك مالكها الوحيد. وهذا خطأ فادح! فلقد اشترى والدي كل شيء بالفعل، إنما فقط ما كان معروضاً للبيع، أي أكثر من ثمانية وثلاثين فداناً بقليل من مساحة إجمالية تبلغ ستة وأربعين فداناً. أما بقية الأراضي فقد احتفظت بها البلدة، من دون أن تعلم بعد، إذا ما كان عليها أن تتخلى عنها أم لا.

وأظن أيضاً أنها لم تشأ، لأسباب مبدئية، أن يمتلك رجل، وغريب كذلك، من رعايا جلالة الملكة، جزيرة بأكملها. فما دامت البلدة تحتفظ بجزء منها، فهذا يعني أنها باعته أرضاً وليس إقليماً.

ولهذا السبب عينه بلا شك، لم أُنبَّه عندما قررت سلطات الأرخبيل، منذ سبع سنوات، ببيع بقية الأراضي، بسبب حاجتها الماسة إلى المال، فاشترتها، بثمن باهظ، روائية توَّاقة إلى الوحدة هي إيف سان-جيل.

لا أدري إذا كان هذا الاسم لا يزال يسمعنا رنين جرس، كما يقال باللغة الإنجليزية. فالكتاب الذي أصدرته منذ أربعة وعشرين عاماً اعتبر من روائع الأدب. كان عنوانه المستقبل لم يعد يسكن في هذا العنوان. وجدت إيف سان-جيل نفسها تحت الأضواء الفاحصة، واعتبرت حاملة شعلة جيل سُلب مثله العليا، بل وسُلب ذلك السبب الرائع للعيش ألا وهو ترقب الأفراح القادمة. احتفى بها الناس وتقرَّبوا منها وعشقوها، ولكنهم اختلفوا كذلك كثيراً حولها، بل وشوَّهوا سمعتها بشراسة أحياناً، فاضطرت إلى الاستقالة من وظيفتها كأستاذة جامعية؛ وفي نهاية المطاف، تخاصمت مع جميع أصدقائها وأسرتها على السواء، ثم جابت العالم طوال ثلاث سنوات. وفي كل مكان قصدته، كانت تلاقي المزيد والمزيد من التكريم، ولكنها كانت تُهاجم بضراوة في كل مكان.

وقررت في يوم من الأيام، إذ سئمت الجدال والترحال، أنه قد آن الأوان لكي تعاود الانغماس التام في الكتابة. كان الجميع يترقبونها، يترقبون روايتها الثانية، رواية تكريس الشهرة. ولكن هذه الرواية لم تبصر النور قطّ. فراحت تعاقر الخمر، بإسراف. وذكر بعض الصحف أيضاً أنها تعاطت الكوكايين والأمفيتامينات...

لا أعرفها بالقدر الكافي لأفطن إلى السبب الذي دعاها إلى المجيء والاستقرار في «جزيرتي». وما أعلمه علم اليقين أنها، بعد مضي ثلاثة عشر عاماً على صدور روايتها الأولى، لم تصدر روايتها الثانية حتى الآن. أحسب أنها منكبة عليها... وعلى أي حال، لا يبدو أنها تزاول أي نشاط آخر.

لا حياة اجتماعية على الإطلاق. في الأرخبيل، اسمها معروف، ولكن معظم السكان لم يلمحوها قطّ. لا يقصد منزلها أحياناً سوى السعاة – مثل سعاة بقالية الميناء، والسمَّاك صاحب مطعم الأسماك البحرية، والصيدلية، وكذلك، بين الحين والآخر، السباك أو البنَّاء أو مصلح الأعطال الكهربائية.

أما أنا فقد زرتها مرة واحدة، منذ خمس سنوات، بعيد وصولها. ندمتُ لأنني استشطت غضباً حين علمت بأن جزيرتي لن تعود ملكاً لي حصرياً. وظننت أن من واجبي الترحيب بهذه المرأة الشابة، مثل جار يتحلى بالكياسة، وأن أعرض عليها المساعدة إذا ما احتاجت إلى أي شيء...

قصدتُ منزلها من دون إخطارها، لأنني لا أعرف رقم هاتفها، وكان يوم أحد قرابة الساعة الخامسة عصراً. قرعت الجرس، وانتظرت، وقرعته مرة أخرى. كنت أهمُّ بالانصراف عندما فتح الباب أخيراً. كانت جارتي ترتدي قميص النوم. ولوهلة، تراءى لي أنني قطعت قيلولة متأخرة وعلمت، منذ ذلك الحين، أنها تستيقظ دائماً حوالي السادسة مساء، وتخلد إلى النوم العاشرة صباحاً. إنها عادات بشرية مقلوبة رأساً على عقب.

كانت الزيارة سيئة، بعد هذه البداية. غير أنني حاولت الخروج من المأزق على أهون سبيل.

«لقد جئت في لحظة غير مناسبة، المعذرة، سأعود مرة أخرى».

«لا داعي لذلك. ماذا كنت تريد بالضبط؟».

يا لهذه الحفاوة! كدتُ أرتد على عقبيَّ وأنصرف من دون أن أنبس ببنت شفة. ففضلت أن أتحلى بالصبر... كم أتحلى بالصبر منذ انتقالي للعيش على إيقاع جزيرتي! وقلتُ لها، ممتعضاً:

«ليس بالشيء المهم. اسمي ألكسندر، أنا جارك، وكنت أريد فقط أن أرحب بك في الجزيرة. ها قد فعلت!».

ثم ألقيت عليها التحية بإيماءة خفيفة من الرأس، وعدت من حيث أتيت بكرامة.

كنت قد خطوت ثلاثين خطوة عندما سمعتها تغمغم خلفي كلمة مقتضبة رضيت بأن أعتبرها «شكراً!». وأُغلق الباب على الفور.

قلت في سرّي، لتهدئة أعصابي، إننا لا نعيش الوحدة نفسها. إنها تهرب من البشر الذين من الواضح أنها تمقتهم؛ أما أنا فقد انعزلت عن العالم لكي أراقبه بمزيد من السكينة، وربما لكي أفهمه فهماً أفضل، وأحيط به إحاطة أشمل.

لم أنقم على تلك المرأة، وفضلت أن أقتنع بأنها تتخبَّط في متاهة من الهموم، وأنها تعاني؛ ولن أضيف على معاناتها. فليكن الله في عونها!

وكلما ابتعدتُ عن منزلها في طريق العودة إلى منزلي، سكنت مشاعري وتلطَّفت، بل لقد ابتهجت بجيرة روائية صامتة، متوارية، تكاد تكون غير موجودة، عوضاً عن شخص مزعج، أو امرأة ثرثارة تجتاحني بحضورها، أو عصابة من المهرِّبين...

غير أنني عاهدت نفسي، حرصاً مني على عدم إخضاع سكينتي لامتحان شديد عسير، ألا أقصد أبداً الطرف الآخر من الجزيرة.

ألا أقصده أبداً؟ حتى الساعة، احترمتُ، من دون أيما شعور بالذنب، ذاك الوعد الحكيم الذي قطعته على نفسي. غير أنني تردّدت للمرة الأولى هذا المساء.

عندما يكون مزاجي اجتماعياً عادة، أذهب إلى بور-أتلانتيك، وأقصد حانة القبطانة، فأشرب كأساً أو كأسين، وأتجاذب أطراف الحديث، ثم أعود لأنزوي في جزيرتي، متصالحاً مع عالم البشر أمثالي، إنما وقد ترسخت رغبتي في الوحدة أيضاً.

ولم يكن من الوارد أن أقصدها اليوم. فبور-أتلانتيك تخلد إلى النوم باكراً، وتستبيح شوارعها الكلاب والقططة الشاردة التي تأتي لتحوم حول براميل القمامة. وفي جميع الأحوال، ليس باستطاعتي حتى، اجتياز ممرَّ الـ«غواي»، حين يصطخب البحر.

فكنت متململاً، أجترُّ هواجس، وأردِّد في سري أنني بالتأكيد آخر الناجين من الكارثة، وأن الموت الخفي يزحف نحوي مثل الضباب، وأنه سينال مني عما قريب، وسيغلفني بسمِّه، ويلتهمني مثل غيلان طفولتي، وأنني ربما أقضي آخر ليلة في حياتي، وأنني لن أرى الشمس ولا زرقة البحر بعد اليوم، وأنه يوجد، في الخارج، في العالم الفسيح، بشر مترقبون لا يعدون ولا يحصون، يمضُّهم التوجس نفسه، ينتحبون، يعولون، أو يتمتمون كلمات مطمئنة وقد تلاصقوا للإحساس بمزيد من التعاضد في مواجهة القدر المحتوم...

في مواجهة ذلك، ما قيمة تحفظاتي، وكبرياء الجار الذي لم تُكرم وفادته؟

فسأقصد إيف سان-جيل ثانية! لا بد أنها قد استيقظت، واستهل نهارها تواً. وإذا استقبلتني بفتور، هذه المرة أيضاً، وتفوَّهت بكلمات مزعجة، سأردُّ لها الصاع صاعين، وأشتمها، وأبصق في وجهها ويلاتٍ أبدية- فماذا سأخسر بعد؟

في طفولتي، كانت أسوأ صفة يمكن أن أسمع والدي يتفوَّه بها هي «صفيق الوجه». تلك الصفة، في نظره، هي الخطأ الذي لا يغتفر لشخص أو حركة أو موقف أو رأي. كان يعشق الكياسة والتهذيب وسموَّ النفس. ولقد ورثت ذلك عنه بإفراط.

ولكن ما معنى الأدب والكياسة في هذه الليلة؟ وما قيمة سموِّ النفس عندما يكون فناء الكون ماثلاً ها هنا، ويوشك أن يحول كل شيء إلى أجساد يأكلها الدود؟

قلت لنفسي إنني سأكون صفيق الوجه، في هذه الليلة، لو اقتضى الأمر. سأقفز بقدمي المضمومتين فوق حاجز اللياقات، وفوق حاجز كبريائي أيضاً. سأذهب للقاء تلك المرأة وأتحدّث إليها حديث رجل فانٍ إلى امرأة فانية.

في الخارج، كان المطر يهطل دون انقطاع. ارتديت مشمَّعي الأصفر، مشمَّع البحار الزائف. وحملتُ أكبر مصابيحي الكهربائية، ذاك الذي يلوح مثل مصباح العواصف، وخرجت.

وصلت إلى دار جارتي، وطرقتُ بابها، شكلياً فقط، وأدرتُ الأكرة على الفور. في الداخل، لمحتُ بصيصاً شاحباً، لعله دون شك بصيص شمعة مضاءة. دفعتُ الباب، وعلَّقتُ مشمَّعي الذي كان يندى بالماء، ووضعت قبعتي المبتلة أرضاً في المدخل، وأطفأت مصباحي، ثم مضيت باتجاه مصدر الضوء.

كانت الروائية متربعةً على أريكتها، متدثرةً بشال فضفاض، لا تظهر منه سوى يدها الممتدة إلى الأعلى مثل ريشة أميركية من الهنود الحمر، تحمل كأساً. وعلى الطاولة زجاجة ويسكي، ومذياعٌ ينبعث منه صفير أشبه بذاك الذي ينبعث من مذياعي.

كانت تحدِّق أمامها، بنظرة ثابتة، إلى المذياع، وإلى الزجاجة، وكذلك إلى معصمها وكأسها. لم تحرّك ساكناً، ولم يظهر بأي شكل من الأشكال أنها قد لمحتني أدخل. وبعد دقيقة، قالت أخيراً وهي تهزُّ كأسها:

«إذا كنت تشربه مع مكعبات ثلج، فعجِّل، لأنها ستذوب كلها بعد قليل».

لمحت قربها، وبمتناول يدها، ثلاجة صغيرة من تلك التي يصادفها المرء في غرف الفنادق. فاستدرت حول جارتي الجالسة في أريكتها، وعثرت، من دون أيما صعوبة، مستعيناً بضوء الشمعة، على كأس مقلوبة ومكعبات ثلج ما زالت جامدة، وقد ذاب عنها الجليد توًّا.

«سيستغرق ذوبانها بعض الوقت، البرد قارس في منزلك».

فغمغمت بصوت المدخِّنة:

«التدفئة الكهربائية لا تعمل جيداً من دون كهرباء!».

ابتسمتُ، ويبدو لي أنني رأيتها تبتسم. وبالطبع، كان الصقيع أخفَّ في منزلها هذه الليلة مما كان عليه في زيارتي السابقة.

جلست قبالتها، على أريكة مماثلة لأريكتها، وصببت الويسكي مدراراً على مكعباتي الثلاثة أو الأربعة. خيَّم الصمت، وربما كان سيطول، فقلتُ لكي أستهلَّ الحديث:

«هل استطعت أن تعلمي شيئاً؟».

«حسب مذياعي، يبدو أنه وز..وز.. وز...».

وراحت تقلد الصفير المتميِّز؛ فابتسمتُ مرة أخرى. في نهاية المطاف، لم يكن مجيئي لزيارة جارتي فكرة سيئة.

سألت سؤالاً مشوباً بسوء النية: «هل تتحلين دائماً ببرودة الأعصاب؟».

«كلا، فقط في زمن الكوارث النووية».

فجمدت ابتسامتي. تبين لي أن ما كان عندي مجرد فرضية وخشية كان عندها يقيناً.

«أتظنين حقاً أنهم قد تجاسروا وأقدموا على ذلك؟».

أجابت جارتي من دون أن تلتفت نحوي:

«هل لعبتَ الكرة الطائرة يوماً على الشاطئ؟ يتناقل اللاعبون الكرة من يد إلى أخرى، ويقفزون لبلوغ مستواها، ويتبادلون رميها،

ويرتمون أرضاً للحاق بها، يضحكون، ويصرخون، ويستميتون. ولكن الكرة، في لحظة من اللحظات، عاجلاً أم آجلاً، ومهما فعلوا، ستحطُّ على الأرض. بووم!».

علا رنين مكعبات الثلج في آن واحد، ونحن نُدني كأسينا من شفاهنا.

«ربما يجدر بنا أن نشعل ناراً».

قالت لي: «إذا كنت مصراً. ستجد حطباً وعيداناً جافة قرب المدفأة، وجرائد قديمة تحت الطاولة».

حالما علت ألسنة النار، أطفأتُ الشمعة، ثم عدت إلى مكاني، وقلت وكأنني أخاطب نفسي:

«عندما يخطر ببالي أن هذه الكارثة كان يمكن أن تحدث أثناء وجودي في منزلي، منكباً على منضدة الرسم، لا يخامرني أي شك. لا ريب أن انفجارات هائلة قد وقعت، وسحباً نووية عملاقة قد تصاعدت، لم أسمع ولم أشاهد شيئاً. إنه نهار مشؤوم، أليس كذلك؟».

«لقد نال البشر العقاب الذي يستحقون».

توقفت لبرهة قبل أن أبادرها قائلاً:

«أعرفُ بشراً لم يستحقوا ذلك».

«أنا لا أعرف أحداً من هؤلاء».

ارتسمت في عينيها قسوة تكاد تكون طفولية، فدفعني ذلك إلى تفادي خوض نقاش معمَّق، والرد عليها بنبرة مرحة.

«إذا بحثتُ ونقبتُ، سأجد رغم كل شيء بعض الأشخاص الذين أرغب في إنقاذهم. أصدقاء، ربيبة، بعض الجيران...».

«أنا لا. لا أصدقاء، ولا أسرة، ولا ربيبات. أما الجيران...».

ورسمت بيدها وذراعها حركة نابية. فأجبتها معاتباً:

«سأرغبُ في إنقاذ سكان الجزيرة لو استطعت إلى ذلك سبيلاً، وسأبدأ بسكان أنطاكية...».

في الحقيقة، لم يكن ذلك الكلام صادقاً جداً. كنت ألهو، هذا كل ما في الأمر، أناكدُ جارتي بلطف. ولكن هذا اللطف، لسبب من الأسباب، أحدث تأثيراً. فالتفتت نحوي، وللمرة الأولى، ارتسمت على وجهها ابتسامة امرأة، ولكنها سرعان ما محتها، وكأنها فضحت أمرها. ثم غمغمت، بصوت يكاد يُسمع لا أكثر:

«من الأفضل أن يصل المرء إلى ساعة أجله بأسلوب دمث، وإن كان مشوباً بالكذب».

لا بد أن إيف سان-جيل كانت جميلة في الماضي، بل أنا على يقين من ذلك، فقد شاهدت بعض الصور القديمة لها: شعر أصهب، وصدر عارم، وشفتان عابثتان. ولكن المرارة والكحول عجّلا في ذبولها قبل الأوان. أنا، البالغ من العمر ثلاثة وخمسين عاماً، أبدو، باعتراف الجميع، إذا وضعنا التزلف جانباً، في الخامسة والأربعين لا أكثر؛ أما هي، ولم تتجاوز الثامنة والثلاثين، فتبدو أقرب إلى الخمسين. ومع ذلك، فعيناها اللتان توقعت أن أراهما خامدتين، ما زالتا تتوهجان.

ولو رتبت شعرها قليلاً واعتنت بلونه، لو أعلت كتفيها وبسطت صدرها- بدافع الاستفزاز، أو السخاء، أو الغنج، لا يهم-، لو...

استرسلت في هذه اللعبة، في سري، لعبة مُصلِحِي الهيئة الخارجية، والفرسان المنقذين. خطر ببالي وأنا أغمر جارتي بنظرتي أنها لم تكن حالة ميؤوسة لا شفاء منها، مع فارق طفيف، هو أننا كلنا حالات ميؤوسة لا شفاء منها في هذه الليلة.

أعلنت فجأة: «أعتقد أنني سأتناول قرصاً منوماً وأخلد إلى النوم».

حرَّرت ساقيها الملتفتين الواحدة على الأخرى، وأطفأت المذياع، ثم أشعلت عود ثقاب قرَّبته من الشمعة.

«إذا كنت لا تقوى على المشي، يمكنك أن تمضي الليلة هنا، على هذه الأريكة. لقد بدأ الدفء يعمُّ هذه الحجرة».

نهضتُ دفعة واحدة، ووضعتُ كأسي جانباً.

«كلا أشكرك، أحتاج إلى أن أكون في فراشي، وغرفتي، وحمامي، وإلى ممارسة كل عادات الرجل المتمسِّك بعزوبيته».

«أفهمك. فإلى اللقاء مرة أخرى. إذا لم يواعدنا الموت غداً، عُد لزيارتي!».

في طريق العودة، أقنعت نفسي بأن أحذو حذوها: أن أتناول قرصاً منوِّماً وأخلد إلى النوم. هذه الليلة، إذا لم أفعل ذلك، لن أذوق طعم الرقاد. لقد هدأ روعي بفضل هذه الزيارة، في الحقيقة، وها أنا ذا

أتحلى بمزيد من السكينة لمواجهة الآتي. غير أنني أعلم أنه لن يكون في وسعي، في اللحظة التي أطفئ الأنوار، وألفي نفسي وحيداً، مستلقياً تحت أغطيتي، وهذا المذياع الذي يتعالى صفيره بقربي، ألا أستعرض في ذهني شريط حياتي، وأصدقائي، ووالديَّ على وجه الخصوص. سأستسلمُ لكل خيبات الماضي المريرة وأدعها تجتاحني، حتى لا يغمض لي جفن...

كان الصقيع يلفُّ الدار عندما عدت إليها. نظام التدفئة عندي يعمل على الوقود الذي أخزِّن منه كمية احتياطية تكفيني فصلين متعاقبين من فصول الشتاء؛ ولكن السخَّان يشتغل، ثم يتوقف، ثم يعود فيشتغل، بفضل آلية تعمل على الكهرباء. في الأوقات العادية، عندما يطول انقطاع التيار الكهربائي، أتصل برقم هاتف لتقديم شكوى، وسرعان ما تُعالج الأمور. وبما أنه يتعذر عليَّ الاتصال هاتفياً، فلا خيار أمامي هذا المساء سوى أن أشعل ناراً في المدفأة، مثلما فعلتُ عند جارتي...

سرى الدفء في جسدي قرب الحطب، فلم أشأ مغادرة غرفة الجلوس للمخاطرة في الأجواء القطبية التي تسود غرفة النوم. فبقيت في مكاني، لا أحرِّك ساكناً، وراحتاي وعيناي ترنو نحو ألسنة اللهيب. وأثناء مشاهدة صفحات جريدة قديمة تحترق وتتجعَّد، شعرتُ فجأة، من باب اصطناع الجرأة، برغبة في الكتابة تساورني.

ليست الكتابة أسلوبي التعبيري العفوي، ولئن قبلت بأن أدلي بهذه الشهادة، وأحسستُ بنفسي مدفوعاً إلى تدوين الأحداث في

ظروف غريبة لم يسبق لها مثيل، فلا أعتقد أنني سأكتب شيئاً آخر في المستقبل.

ها أنا أتحدث فجأة عن المستقبل. كم يبدو لي الأمر فجأة ضرباً من التبجح!

على وهج النار، جالساً في أريكة، وقد أسندت مفكرتي الصغيرة إلى مجلد كبير مصوَّر- عن الرسام نورمان روكويل، بالمناسبة- كتبتُ هذه الصفحات دفعة واحدة، من دون أن أحاول إعادة قراءتها، أو تنميقها، أو العودة إلى الوراء.

في الخارج، توقَّف المطر. تُخيِّم السكينة على المشهد. في هذه الغرفة، الجو دافئ لطيف وإن لم يبق من النار سوى مفرش من الجمر.

لم أسرد بعد شيئاً من كل ما يؤرقني. غير أن النعاس راح يغلبني، ويدي تتثاقل، وأفكاري تلتبس. حان الوقت للتوقف عن الكتابة، والاستسلام للخدر. وعندما أستيقظ، سأرى إذا كان يجدر بي الاحتفاظ بهذه الصفحات، ورفدها بصفحات أخرى، أو الاستفادة منها ببساطة لإشعال النار لاحقاً.

مكتبة
t.me/t_pdf

الأربعاء ١٠ تشرين الثاني

عندما استيقظت، كان المذياع يصدر ذلك الصفير المنتظم نفسه، مؤشراً على المأساة. تحققتُ أيضاً من الكهرباء، والهاتف، واشتراك الإنترنت. الوضع لا يزال على حاله.

رفعتُ الستائر المعدنية، وتبين لي أن العاصفة قد هدأت. كانت شمس ساطعة تجفف، بالفعل، أوراق الأعشاب وسيقانها. وعلى صخرة سوداء، في أقصى حديقتي، جثم طائرُ نورس. التفت نحوي، تلاقت نظراتنا، ولم يحرك ساكناً. وفي الحقيقة، كنت أقف بعيداً.

أيكون انتعاش الهواء كاذباً إلى هذا الحد؟ أيكون الرعب قد حلَّ بالفعل ما وراء هذه المساحة الزرقاء الشاسعة؟ ومع ذلك، فتحت الباب الزجاجي وتنشقتُ هواء المحيط. تمطيتُ، فطار نورسي بكبرياء مطلقاً زعيق عتاب.

فوجئت بنفسي فرحاً مع أن لا شيء، لا شيء على الإطلاق قد تغير، على حد علمي. إنني لا أعرف حتى الآن إذا كان هذا الأكسجين الذي يتغلغل في رئتي يحمل ذرات الموت. ولكن الشمس ها هنا، ضياء الشمس، دفء الشمس، فاستسلمت لدفئها ووهجها. هنا العشب المبلَّل الذي أدوسه بقدميَّ الحافيتين. هنا طائر النورس ذاك الذي ما زلت أسمع زعيقه من بعيد- زعيقه أو زعيق مثيلته. وهناك المحيط الأطلسي، وقد علت أمواجه وراحت تلامس أحياناً الحجارة التي تتاخم حديقتي. اقتربت منه، غير مكترث للبرد، وخلعت ثيابي وأنا أمشي. ولدى اقترابي من الماء، جثوتُ، حتى كدتُ أغمس فيه وجهي.

كنت حياً. ما زلت حياً. يوماً آخر؟ أسبوعاً؟ قلت لنفسي إن البلاء لو أصابني فسآتي إلى المحيط أصارحه بهمِّي. فليأخذني! فليحملني حيث يشاء! فليبتلعني، بالأخص، ولا يلفظ جثتي أبداً!

عدتُ إلى المنزل أكثر سكينة. أشعلت النار ثانية، واستلقيت قربها، عارياً بعد، كأنني أصطليها وأتشمس.

في العادة، حين أستيقظ كل صباح، أتساءل عما يجب أن أقوم به في نهاري. أعدِّد المهام، أحضر قوائم، على الورق أو في ذهني، مثلما كنت أفعل عندما كنت أمارس عملاً نظامياً. أما اليوم، فلقد نجحت في عدم طرح هذا السؤال على نفسي، وتساءلتُ بالأحرى عن الأحاسيس التي أرغب في أن تخالجني، في هذه اللحظة بالذات، الأحاسيس في جسدي، في كل بقعة من جسدي، الأحاسيس في رأسي، الرطب

والجاف، المثلج والمحرق، التوتر والتراخي، الجهد، البكاء، الضحك، الاسترخاء، الخدر اللطيف والخفي قرب المصطلى...

ومن جديد، غفوت، ولم أنهض إلا بعد هنيهات يسيرة.

عندما استيقظتُ للمرة الثانية، استرجعت صلتي، ويا للأسف، بغرائز المهووس المسؤول الذي كنت. أعطي لنفسي أوامر، أجلد نفسي لكثرة ما أردد «يجدر بي»، «يجب أن»، «كان حرياً بي»...

تناولت ساعة يدي التي وضعتها في معصمي. إنها تشير إلى الثانية والنصف بعد الظهر. استشرت على الحائط مواقيت المد والجزر. اليوم، سيكون الجزر على أشدِّه عند الساعة الرابعة والدقيقة التاسعة عشرة بعد الظهر. وإذا شئت الذهاب إلى بور-أتلانتيك، فيجب المغادرة فوراً والعودة بعد ثلاث ساعات معدودات.

امتطيتُ دابتي، وهي دراجة هوائية بلون قرميدي، مزوَّدة بسلة من القشّ، حرصتُ على تعليقها في الخلف، وقدتها باتجاه الـ«غواي». كان الممرُّ يلتمع ببرك ماء لا تعدُّ ولا تحصى، ولكن الماء لا يغمره. غير أنني تقدَّمتُ بحذر. فأي انزلاق يعني أنني سأهوي في المحيط، لأن البرزخ لا يتجاوز عرضه ستة أمتار، ومساحته موحلة في بعض الزوايا. كما أن الـ«غواي» ليس جسراً ولا قنطرة، بل هو طريق طويل يبلغ طوله ثلاثة آلاف عقدة، ولذلك، لا يبصر المرء اليابسة في بعض اللحظات، ويخالجه الإحساس بأنه يقود دراجته على المحيط الأطلسي، نحو العدم.

لدى بلوغ الضفة الأخرى، شعرت بالحاجة إلى أن تحطَّ قدماي لبضع لحظات على الأرض اليابسة، قبل مواصلة طريقي باتجاه الميناء.

كانت الشوارع مهجورة، ولكن الحانة التي اعتدتُ ارتيادها تعجُّ بجمهرة رواد الأيام التي ينعدم فيها الصيد.

يسمى المكان \القبطانة، ذكرى زمن كان بحارة أرخبيل الشيرون يرتحلون فيه إلى أقاصي المعمورة، برفقة زوجاتهن أحياناً، اللواتي يحصلن وإلى الأبد، على اللقب المشرِّف، لقب «القبطانة».

والأخيرة في تلك السلالة، أسعفني الحظ فتعرَّفت إليها، وقد وافتها المنية منذ عشر سنوات فحسب، وحفيدها يدير الحانة اليوم. وعلى الحائط، وسط الغنائم، والتذكارات البحرية، واللوحات القديمة، وملصقات الزجاجات القادمة من فالبارييزو أو ماكاسار، صورة فوتوغرافية مهيبة بالأبيض والأسود، مكبَّرة بمقاييس بشرية، لقبطانتنا بثوب طويل مع زوجها القبطان على متن السفينة. كان وجهها من الوجوه الجميلة الصارمة في الأزمنة الخوالي.

وعدا هذا الحضور، لا وجود لأي نساء مطلقاً على هذه الحيطان. فالبحارة يقصدون الحانة بالضبط هرباً منهن. فمعهن، تتكرَّر حكاية حزينة من البعاد والسأم، جيلاً بعد جيل. يبحر الرجال، لأسابيع وأشهر، وتبقى النساء وحدهن سيدات منازلهن. ينسى الرجل عادة العيش مع زوجة، وتنسى المرأة عادة إطاعة الزوج. وعندما يعود زوجها، يجد المنزل قد ضاق للغاية. فيهرب الرجل. ويفرُّ أكثر الرجال إقداماً إلى

سماوات أخرى، إلى الأبد؛ ويكتفي، معظمهم، برحلات طويلة يومية، إلى الحانة، بالطبع، إلى حانة \القبطانة، للشرب، ولعب الورق في صحبة الرجال، والضحك من مخاوفهم السابقة.

وبما أن قاعة الحانة مظلمة عادة، يكاد لا يلاحظ فيها اليوم غياب الإنارة. وسرعان ما اعتادتها عيناي. فتعرفتُ إلى الوجوه، وصافحتُ الأيدي، وحتى قبل أن أجلس، انهالت الأسئلة على «الكندي» الذي كنت، ترافقها الشتائم المألوفة. اللعنة، هل من المحتمل أن يكون كل شيء قد تعرَّض للدمار، «حتى باريس»، وأن النسيان طوانا هنا على الأرخبيل؟ سحقاً، ولماذا نحن؟ وكم يوماً، وكم ساعة سيستمر إرجاء تنفيذ الحكم؟

لم أملك بالطبع الجواب الشافي على أي من هذه الأسئلة، وليس بمقدوري سوى إضافة هواجسي إلى هواجسهم. ألم نتابع جميعاً الأحداث نفسها، واعترتنا المخاوف عينها؟ توصلنا جميعاً اليوم إلى التشخيص نفسه، كل منا بمفرداته وحيائه.

همس لي غوتييه العجوز بنبرة بالغة التكتم: «زوجاتنا خائفات».

بلع ريقه ولزم الصمت مجدداً. نظرت خلسةً إلى ساعة يدي التي كانت تشير إلى الخامسة عصراً، فأفرغتُ في جوفي ما تبقى في قعر كوبي الذي يحتوي على نصف لتر من الجعة – وهو مكيال العقلاء! – ونهضت. لديَّ زيارة أقوم بها بعد.

قلَّما أقصد بور-أتلانتيك من دون أن أعرِّج لبضع دقائق، إما في

الذهاب وإما في الإياب، على من يطلق عليه في هذه النواحي اسم «الملَّاح». في الماضي، كان الملَّاح يملك مركباً يساعد به الناس على العبور، بالضبط، بين جزيرتي أنطاكية وشيرون الكبرى في الساعات التي لا يكون فيها ممرُّ الـ«غواي» سالكاً. أما اليوم، فمهمة موظف البلدية هذا تقتصر على مراقبة البرزخ وصيانته، غير أن تسمية «الملَّاح» تكرَّست.

لا أعتبر أن من واجبي زيارته، لأنه أقرب جيراني، باستثناء إيف، بل لأنه موجود هنا من أجلي قليلاً. ففي الفترة التي لم تكن فيها أنطاكية مأهولة، ألغيت وظيفة الملَّاح. وكانت لافتة كبيرة صدئة مربوطة بسلاسل تسدُّ مدخل الـ«غواي» وقد كتب عليها: ممنوع العبور منعاً باتاً.

وارتأت سلطات الأرخبيل، إذ اضطرت إلى رفع الحظر بعد استقراري في الجزيرة، وبكل ضمير حي، أن الواجب بات يملي عليها السهر على مراقبة الممر. غير أنها استنبطت حلاً فطناً، حرصاً على عدم إثقال كاهل ميزانية البلدة، يقضي باقتراح الإقامة في بيت الملَّاح لشاغل الوظيفة، والسماح له بزراعة الأراضي المتاخمة والانتفاع بها، مقابل الخدمة التي يؤديها. وفي الحقيقة، كانت خدمة لا ترهق كاهل من يؤديها تقوم على مراقبة ممر الـ«غواي» في الساعة التي تسبق المد، للتحقق من أن ما من شخص تهوَّر وسلكه.

عرفت خلال اثني عشر عاماً خمسة أو ستة ملاحين متعاقبين:

نقيب متقاعد؛ وزوجان اجتذبهما المسكن المجاني؛ وبحاران تخليا عن حياة المغامرة... والملّاح الأخير، الذي وصل منذ قرابة عامين، غريب. وهنا، في الأرخبيل، يعتبر غريباً الشخص الوافد من مانيلا أو من الساحل المقابل على السواء. ولكن هذا الملّاح كان غريباً حقاً، إذا جاز التعبير. كان يونانياً. ليس بكل ما للكلمة من معنى، إذ يبدو أن أصوله متعددة ومختلطة، وهو يفضل القول إنه يتحدر «من أصل إغريقي سحيق»؛ على الأقل الاسم الذي يحمله، أغاممنون، وهو من أكثر الأسماء هيللينيةً، مع أن السكان المحليين اختصروه إلى أغام.

كان شخصية مدهشة، لا يتوقع المرء أن يلتقي مثلها في هذا المكان، ولا على وجه التحديد لأداء مهام متواضعة مثل مهامه. كان قارئاً نهماً للكتب، وواسع الاطلاع، ومتقد الذكاء، فنشأت بيننا علاقة وطيدة، تتجاوز إطار علاقاتي اللبقة فحسب مع الملّاحين الذين سبقوه.

*

لدى سلوكي الطريق القصير الذي يقود إلى منزله، سمعته يفتح نافذة في الطابق العلوي، فهتفت على الفور:

«هل حركة المرور كثيفة اليوم؟».

«عبر شخص على دراجته الهوائية منذ ساعتين. ومن المتوقع عبور آخر، في الاتجاه المعاكس، قبل هبوط الظلام».

كانت العبارات الأولى التي نتبادلها دائماً تقاسيم مرحة على

الموضوع نفسه: ندرة حركة المرور في ممر الـ«غواي». وحتى في هذا اليوم، لم نشذَّ عن القاعدة.

وريثما ركنت دراجتي قرب دراجته، كان أغاممنون قد نزل إلى الطابق السفلي، ووقف أمام باب الدار.

كان رجلاً جسيماً، عريض المنكبين، تلوح ملامحه مثل ملامح أكثر المهجَّنين نقاوة: عظام الوجنتين بارزة، عيناه مائلتان قليلاً، بشرته سمراء مكلَّلة بشعر كستنائي فاتح كثيف، يميل إلى الشقرة. قد يوحي للوهلة الأولى بأنه بحار سلتي أحرقته الشمس والريح المالحة؛ وإنه يعزز هذا الانطباع بهيئته، وقبعته الباهتة اللون، وسترته المطرَّزة بمرساة مذهَّبة. غير أن المرء، حالما يعاينه عن كثب، لا يعود قادراً على تحديد أصله، فهو يبدو أشبه بثمرة زواج «الثور الجالس»، المحارب من الهنود الحمر، مع حورية الولكيري الشقراء.

لا أتأثر أكثر من غيري بوسامة الرجال، ولكن لا بد لي من القول إنه يحلو كثيراً النظر إلى هذا الشخص، الذي إذا وقعت عليه عين المرء فإنه لا يحوِّل عنه بصره إلا بجهد جاهد. الوسامة، أجل، بلا شك، إنما كذلك مسحة من الغرابة.

«ظننت أنني سأصادفك في حانة \القبطانة\».

قال لي: «قصدُتها طلباً لبعض الطعام قرابة الظهيرة، غير أنني لم أطل البقاء فيها. لدي أشغالٌ في البيت، بعض الإصلاحات؛ فمذياعي معطَّل».

كدت أصوِّب كلامه... ولمحت في اللحظة المناسبة أنه يبتسم، ويغمز لي غمزة قرصان.

تنهدتُ قائلاً: «لا بأس، أنت تجد بعض القوة لكي تضحك مما جرى!».

«ولماذا لا أضحك؟».

«أمام كل ما يجري؟».

«ولكن ما الذي يجري، بالله عليك؟ لا أرى من حولي سوى سحنات متجهمة. هذا الصباح، في الحانة، يكاد المرء يخال نفسه في مجلس عزاء. كنت أرغب في أن أسألهم: ولكن أين هو ذاك الفقيد الذي تتفجَّعون عليه؟ إنني لا أراه! أفترض أنك أيضاً ستحدثني عن كارثة نووية».

«وكيف لا نتحدَّث عنها؟».

نظر إلى ساعته، ثم رمق السماء.

«حان الوقت لمراقبة الطريق. فلنصعد إلى الطابق العلوي، ولنجلس عشر دقائق، سأفتح أفضل زجاجة نبيذ عندي، فلا فائدة من الاحتفاظ بها إلى الغد إذا لم يعد لدينا غدٌ ننتظره!».

عندما جلسنا إلى الطاولة في مطبخه، هو قبالة النافذة الواسعة التي تطلُّ على البرزخ، وأنا قبالة النافذة الأخرى، التي لا ألمح من خلالها سوى القمة العارية لبعض أشجار الدردار الجافة، تكلم أغاممنون بجدية:

«مثل الجميع، استمعتُ كثيراً إلى الأخبار في الأسابيع الأخيرة، وخشيت أن يتفجر الوضع. ذلك الانفجار الغامض في ولاية ماريلاند؛ والأميركيون الذين أصروا على «جمع» الأسلحة النووية التي «وقعت بين أيدي الشر»، من جميع أنحاء الكوكب... كيف كانوا يعتقدون أنهم سينفذون هذا «الجمع»؟ وهل ستقبل البلدان الأخرى بأن يُنزع سلاحها؟ اجتمعت، في الحقيقة، كل مكوِّنات أزمة كبرى جداً. أما أن نستنتج من ذلك أن كارثة نووية قد وقعت بالفعل البارحة مساء، فهذا أمر لا يعقل بكل بساطة!

«ومع ذلك، ستقول لي إن أمراً ما قد حصل، حوادث خطرة، بل بالغة الخطورة. أجل، لا شك عندي في ذلك. ولكن ما هي؟ لا أحد، على ما يبدو، يعلم علم اليقين. والأمر الوحيد الذي بوسعنا أن نتيقن منه، أنت وأنا، أننا ما زلنا على قيد الحياة، وأن لا شيء حولنا قد تعرَّض للدمار. ألا تعتقد أنه يجدر بنا الابتهاج والاحتفال عوضاً عن الاسترسال في الأنين والنحيب؟»،.

وملأ كأسي وكأسه ثانية، فشكرته، وشربت نخباً في صحتنا. استطاعت كلماته أن تهدئ روعي قليلاً، وشعرت نحوه بالامتنان. غير أنني أجبته: «ولكن، كيف تعلم يقيناً أننا فقط في حالة وقف التنفيذ فحسب؟ لا تيار كهربائي، ولا هاتف، وكل هذه الأجهزة التي تعطَّلت في الوقت نفسه، وبالطريقة عينها. كيف تفسِّر هذا الأمر؟»،.

«هنا، على الأرخبيل، تحدث أعطال على الدوام، لا سيما في هذا

الفصل، ولم يقل أحد قطّ إنها نهاية العالم! ثم، أنا لا أود التقليل من أهمية ما يجري. تنتابني مثلك مخاوف. ثمة أمور غريبة تحصل ليس من السهل تخمينها. ولكن هل هي كارثة نووية؟ بالتأكيد لا! أما أن يقال بأن بقية بلاد العالم قد أبيدت، وأننا وحدنا، سكان أرخبيل الشيرون، قد كتبت لنا النجاة ريثما تأتي سحابة إشعاعية إلينا، فهذا كلام يجافي المنطق».

«ليتك تكون على حق يا أغام! لا أطلب أكثر من الاعتقاد بأن العالم لم يتعرَّض للإبادة. ولكن السؤال الذي يطرح نفسه: ماذا حدث؟».

أجابني قائلاً: «عظيم! ها قد تركت الأجوبة الخاطئة وعدت إلى الأسئلة السديدة! ومن الأفضل دائماً الانطلاق منها».

نظر إلى ساعته.

«لا أريد أن تظن بأنني أطردك من بيتي، ولكن لن يطمئن بالي إذا رأيتك تسلك ممرَّ الـ«غواي» في الظلام».

في الواقع، كان ضوء النهار قد خَفَت قليلاً في الخارج. وبما أنني كنت مصاباً بالعشى الليلي، فلن أعود قادراً بعد حين على تمييز البحر، الأزرق والرمادي، من السكة، الرمادية والزرقاء. فودَّعته قائلاً: «إلى الغد!»، ثم انصرفت مهرولاً.

في طريق العودة، رحت أُصفِّر لحن مصارع الثيران من أوبرا كارمن. ولدى سماع صوتي المرح، أدركت أن هذه الرحلة إلى الجزيرة المجاورة قد أشاعت في نفسي الارتياح. بقيت في حيرة من أمري،

بالتأكيد، ورحت أطرح على نفسي ألف سؤال، وأنا أصفِّر لحناً. ومهما قيل، «الشك الذي لا يطاق» أفضل من اليقين الفظيع.

لدى العودة إلى منزلي، ضغطتُ على مفتاح الكهرباء، ثم على زر المذياع؛ رفعت سماعة الهاتف الجداري الجليل، بل وتلفظتُ بعبارة «آلو!» العبثية. بالتأكيد، لم أسمع أدنى جواب، أو أدنى صوت. لم يتبدَّل الحال أثناء غيابي القصير، باستثناء مزاجي.

فجلستُ قرب الواجهة الزجاجية لتدوين بعض الملاحظات عن رحلتي اليوم.

*

استعدتُ، بفضل الملَّاح، بعض البهجة والتفاؤل النسبي والسكينة، لذا سأكرِّس الوقت لاستطراد وجيز من أجل التذكير بأحداث الأسابيع الأخيرة.

لقد لمَّحتُ إليها غير مرة، وربما كان يجدر بي أن التحدّث عنها بإسهاب منذ البارحة. غير أنني لم أعرف بالضبط السبيل إلى ذلك. فهل أسترجع الأحداث التي يعرفها أبناء عصري؟ ومن أجل أي قراء؟ في الحقيقة، لا أدري حتى الآن كيف أجيب عن هذه الأسئلة، واكتفيت بالكفِّ عن طرحها. سأركن بكل بساطة إلى غريزتي لكي أنصرف إلى تدوين ما خطر ببالي، في بضع فقرات، لحظة تعطَّل فيها المذياعان في منزلي، فخشيت وقوع الأسوأ.

ربما يجدر بي أن أستهلَّ كلامي فأذكر بأن مسألة الانتشار النووي «الجامح» قد أصبحت، خلال السنوات الأخيرة، من الشواغل الملحة للقادة السياسيين والرأي العام على السواء. فالوقود الإشعاعي، وقطع الغيار، وربما صواريخ بأكملها، ومهندسون وفنيون وعسكريون متمرِّدون- كانت كل تلك الأمور تتداول في جميع أنحاء الكوكب، وسط كوكبة ناشزة من الإشاعات.

قيل إن عصابة من المهرِّبين قد حازت ثلاث قنابل لن تتردد في استعمالها لو سوَّلت لأحدهم نفسه شنَّ هجوم على ملاذها الآمن. أهي حقيقة؟ أم اختلاق؟ ومن سيذهب للتحقق من الأمر في قلب أدغال بورنيو أو الأمازون؟

وقيل إن كوماندوساً إرهابياً قد تمَّ اكتشافه في مزرعة بنواحي مدينة دريسدن، فيما كان منهمكاً بإعداد جهاز متفجر يحتوي على مواد إشعاعية. واعتبرت السلطات الألمانية ذلك ضرباً من المبالغة ومجرد تكهنات، ثم أحيطت القضية بقدر كبير من التستر والصمت. وفي هذه الحالة أيضاً، ما مدى صحتها، وما هو جانب اختلاق الوقائع فيها الذي يستند إلى نظرية المؤامرة؟ من ناحيتي، لا أدري.

ومما يعزز الهواجس ويتسم بطابع أكثر إلحاحاً أن زعيماً متطرفاً وغريب الأطوار من زعماء الحرب، هو «المشير» ساردار سارداروف، حاكم ولاية جبلية في القوقاز، قد اشترى في السنوات الأخيرة، على ما يبدو، عدداً لا يستهان به من الصواريخ التي كان يملكها الجيش

السوفياتي فيما مضى، وكل الدلائل في مسيرته السياسية والنفسية تدعو إلى الاعتقاد بأنه على عجلة من أمره لاستعمالها. فمن بحق الجحيم يستطيع إقناعه بالعدول عن قراره؟

في هذا السياق، حصل، منذ بضعة أسابيع، في قرية صغيرة بولاية ماريلاند، ذلك الانفجار المثير للقلق البالغ، والمسبِّب للجزع الشديد، الذي لمح إليه أغاممنون، ومن المرجح أن يكون السبب في الأحداث التي تنهال علينا منذ البارحة.

فبعد ظهر يوم ٢٦ أيلول الماضي، أي منذ شهر ونصف الشهر، دوَّى انفجارٌ قوي في إنديان هيد، وهو ميناء نهري صغير على ضفاف نهر بوتوماك، يبعد حوالي ثلاثين كيلومتراً عن قلب العاصمة واشنطن. وخلال الساعات الأولى، لجأت السلطات المحلية إلى الإنكار، ولم تجرؤ على تحديد ما قد حدث ألا وهو انفجار نووي حقيقي! لا ريب أنه لم يكن قوياً واتسم بنطاقه المحدود، بما أن الدمار الذي خلَّفه كان في نطاق دائرة لا يتجاوز نصف قطرها ألف متر. غير أنه قد تسبَّب بمقتل أكثر من ستمائة شخص، وأصيب الآلاف من سكان النواحي بجروح أو تعرَّضوا للتلوث. ولكان سقط عدد أكبر من الضحايا لو لم تبدِّد رياحٌ غربية أرسلتها السماء السحابةَ الإشعاعية... ولتهدئة النفوس، راح بعضهم يسعى جاهداً للحديث عن «انفجار عرضي»؛ وتلك كانت طبيعته، بالمعنى الحقيقي؛ فالأشخاص الذين عبثوا بالجهاز المتفجر لم يعتزموا، بلا شك، التسبُّب بتفجيره في ذلك الموقع، وفي تلك

اللحظة. وحتى تلك الأيام الأخيرة، ظلت عدة وسائل إعلام تُرَدِّد أن المسؤولين عن الكارثة هم طلاب شباب منبهرون بالسلاح النووي وليسوا إرهابيين يتأهبون لتوجيه ضربة إلى العاصمة الاتحادية. إنها فرضية يصعب تصديقها، ويصعب كذلك نفيها، بالنظر إلى أن كل هؤلاء السحرة المبتدئين قد أبيدوا عن بكرة أبيهم واندثر أثرهم.

وغداة وقوع الانفجار، بدأ الناس يدركون عواقب ما قد حدث. فنشأ، في أميركا وغيرها من الدول، ذلك القلق العنيف الذي يشتدُّ ويتعاظم منذ ذلك الحين. ويسعنا القول إن البشرية جمعاء رزحت تحت هول الصدمة، تائهة، مذهولة. وقد يتراءى ذلك ضرباً من الغلو، بالنظر إلى أن أحداثاً من هذا القبيل قد نسجها الخيال منذ عقود في الأعمال الروائية والأفلام السينمائية، وفي تقارير «أجهزة الاستخبارات». ألا نعلم منذ وقت طويل أن كتيبات لتركيب مثل هذه الأجهزة المتفجرة متوافرة على شبكة الإنترنت، وتضم تعليمات مفصلة وما يرافقها من رسوم تخطيطية؟ ومع ذلك، فعندما وقع الحادث الحقيقي في نهاية المطاف، عمَّ الذهول وساد الارتياب على السواء.

في هذا المناخ المخيف المرعب، والمؤلم بشدة، أرسلت حركة مسلحة لم يسمع بها أحد حتى الحين إلى شتى وسائل الإعلام مقطع فيديو يظهر فيه رجل ملثَّم يعلن مسؤوليته عن الحادث. وأجمع خبراء الإرهاب على أن مقطع الفيديو غير موثوق، وأن الإخراج هو بفعل شخص مهووس بالكذب. غير أن أخصائيين آخرين اعتبروا أنه لا

يجب استبعاد فرضية عمل إرهابي، وأن المشير ساردار قد يكون من أوعز بتنفيذه. فبعض الخطابات المتشدِّقة التي ألقاها الحاكم المستبد القوقازي قبل يومين من وقوع الانفجار قد تُفسَّر على أنها إقرار بالذنب.

لقد شعر رئيس الولايات المتحدة بنفسه بأنه مرغم على التحرك. وفي خطاب بُثَّ في العالم بأسره - ظهر خلاله شديد الهزال بسبب إصابته بسرطان الرئة، الذي بلغ مرحلته النهائية-، أعلن هاورد ميلتون، بمهابة، أنه قرر «جمع» كل قنبلة، وكل رأس نووي، وكل غرام من البلوتونيوم أو اليورانيوم المخصَّب قد تكون بين أيدي أشخاص خارجين عن السيطرة، لا في الولايات المتحدة فحسب، بل على كامل رقعة الكوكب، وبالوسائل كافة. ولاقى هذا الموقف الترحيب في أميركا الشمالية، وأستراليا، وفي بعض البلدان الأوروبية، ولكنه استقبل بريبة، وأحياناً بغضب، في أماكن أخرى. ففي روسيا والصين، وفي الهند وباكستان بخاصّة، صرح القادة من دون مواربة أنهم لن يبقوا مكتوفي الأيدي إذا ما اجترأ أحدهم على المسِّ بمنشآتهم أو ترسانتهم.

لم تغرب عن بال أحد الخطورة البالغة للوضع، لا عن بال المسؤولين ولا البشر العاديين. وفي الحقيقة، سادت الخشية، في النصف الثاني من القرن العشرين، إبان اندلاع بعض الأزمات، من حدوث نزاع نووي بين المعسكر الغربي والاتحاد السوفياتي سابقاً؛ ولكن الأصابع القليلة التي كان بإمكانها أن تضغط على أزرار الموت

كانت أصابع سياسيين غزا الشيب مفارقهم يخشون حكم التاريخ عليهم ونظرات أحفادهم المذعورة.

ولا شيء يسمح بالظن أن شخصاً مثل سارداروف قد تساوره موانع مماثلة. وإذا كانت إصبعه سترتعش لدى الاقتراب من «الأزرار»، فإن ذلك سيكون بالأحرى تحت تأثير الغضب والحقد والجنون القاتل.

ما السبيل إلى إقناع مختلين أمثاله بالعدول عن قرارهم؟ ما السبيل لإحباط مخططاتهم؟ ما السبيل لنزع سلاحهم؟ بالتهديد والوعيد؟ بفرض حصار؟ بشن عمليات كوماندوس؟ بتنفيذ أعمال قصف محددة الأهداف؟ لا يمكن اللجوء إلى أي من الوسائل من دون أن ينطوي ذلك على خطر جسيم، ويخشى الجميع، بدءاً بالرئيس ميلتون، جنوحاً مدمراً. ولكن أقوى رؤساء العالم لم يعد قادراً على تجنب الانتقال إلى الفعل.

في هذه الأيام العشرة الأخيرة، كانت وسائل الإعلام تتحدث عن عملية أو عمليات «تطهير» وشيكة في نواحي القوقاز، وربما كذلك في مناطق أخرى من الكوكب، وكنا نعيش جميعاً هاجس نزاع قد يندلع جراء ذلك. وهذا ما يفسر موقفي الفوري، البارحة مساء، عندما حصلت الأعطال.

هل حصل بالفعل جنوحٌ من هذا النوع، وكان مصحوباً بمواجهات مسلحة وانفجارات نووية؟ ربما حصل، وربما لم يحصل...

في الشهر الماضي، استلهمت هذا المناخ الذي يسوده الرعب لإنجاز رسم نشر في مجلة المرقاب الأدبي وستتناقله صحف أخرى على نطاق واسع في جميع أنحاء العالم، صوَّرتُ فيه كوكبنا الحبيب على شكل قنبلة يدوية، ترمز شقوقها إلى خطوط الطول والعرض. ومن سطح الكوكب، تخرج يدٌ تحاول نزع مسمارها المغلق.

في أسفل رسومي، اعتدتُ أن أصوّر، قرب توقيعي، شخصية صغيرة تعتمر قبعة رأسية، شخصية سمارت ألك، ألك الذكي، الذي يضاعف الرسم، ويعلِّق عليه، ويقف منه أحياناً على مسافة. وفي هذا اليوم، اكتفت شخصيتي، المغلوبة على أمرها، بسدِّ أذنيها، وكأنها لا تخشى سوى دوي الانفجار.

*

انتهيت من تدوين هذه المعطيات القليلة الحديثة العهد التي تشكل خلفية الأحداث الراهنة، وربما تنطوي على مفتاح اللغز، ثم قصدت المطبخ لكي أتناول، على عجلة، قطعة من جبن الماعز مع آخر كسرة خبز لدي، قبل أن أسلك سيراً على الأقدام الطريق التي تقودني إلى منزل إيف.

قرعتُ بابها ثلاث مرات بقبضتي المضمومة، وعلى الفور، أدرتُ الأكرة مثلما فعلت البارحة، ثم دخلت وصفقتُ الباب خلفي للإعلان عن حضوري، في حين أن غيري، بمزيد من التكتم، كان سيتنحنح، ثم توجهت نحو الصالون منادياً:

«يا أهل الدار؟ هل أنتم هنا؟».

فأجابت جارتي في الحال:

«أنا فوق، تعال بسرعة!».

بحثتُ بعيني عن السلم، ثم هرولتُ صاعداً. لمحت عبر باب مفتوح شعلة شمعة مرتعشة. كانت آتية من غرفة إيف التي وجدتها جالسة وقد ارتدت برنس الحمام على طرف السرير. وفي الحقيقة، لم تكن الساعة تشير بعد إلى السابعة مساء!

«اسمع!».

أصختُ السمع. تبينتُ موسيقى خافتة متقطعة النغمات، وكأنها تخرج من علبة موسيقية.

قالت جارتي: «إنه المذياع. تركته مفتوحاً، وأخفضتُ صوته. وفي اللحظة التي كنتَ تغلق باب المدخل، سمعتُ هذه الموسيقى».

اقتربتُ من الترانزستور القديم، ورفعتُ الصوت، ثم حركتُ زر «التوليف» بحثاً عن محطتي المعتادة، أتلانتك ويف. كان اللحن نفسه يعزف فيها، وكأن جميع الإذاعات، بعد أن حكم عليها بإرسال مجرد صفير، قد اجتمعت في إذاعة واحدة، وراحت تبثّ الموسيقى نفسها؛ موسيقى مريحة، عنيدة قليلاً، متكررة بالأحرى، ولكنها لم تصبح مزعجة.

تيقنت أمراً، على الأقل: هذه الموسيقى، لم أسمعها قطّ من ذي قبل. فلو سمعتها، كنت لن أنساها.

وبعد دقائق معدودة، اقترحت عليَّ إيف أن أسبقها إلى الصالون، مع المذياع، وأن أشعل ناراً.

قالت لي لتصرفني من غرفتها: «تنتابني على حين غرة الرغبة الغبية في التبرج والاهتمام بأناقتي قبل أن أستهلَّ نهاري».

فنهضتُ، واصطحبتُ المذياع الأبيض مثل كلب من فصيلة الكانيش بين ذراعي، ونزلت درجات السلم ببطء.

عندما وافتني الروائية إلى الصالون، كانت الموسيقى نفسها لا تزال تسمع. أخفضتُ الصوت، ولكن لم أكتمه، لأن العيدان الجافة كانت تطقطق بشدة. وكما فعلت البارحة، صببتُ لنفسي كأساً من الويسكي من دون «ثلج» هذه المرة؛ فالمكعبات قد ذابت كلها. وجلستُ في الأريكة نفسها. وجلست هي في أريكتها. بدأت تتكوَّن لدينا عاداتنا.

«ذهبت إلى بور-أتلانتيك بعد الظهر. تجاذبتُ أطراف الحديث مع بعض البحارة، ثم مع الملَّاح أغاممنون. أنا متأكد بأنك تعرفينه...».

«جاء لزيارتي مرتين أو ثلاث مرات، بذرائع مختلفة. وتساءلتُ في كل مرة عن دافع قدومه إلى هنا. أبسبب جريمة اقترفها؟ أم بسبب قصة حب فاشلة؟».

«ربما كان يبحث، مثلنا نحن الاثنين، عن الوحدة، من دون أن يملك الموارد الكافية لشراء قطعة من جزيرة تخصُّه. والعمل كملَّاح حل ملائم: سكن مجاني، وقطعة أرض يزرع فيها خضاره، وصيد

السمك لتأمين قوته اليومي، ووقت فراغ ليفعل ما يحلو له. أعتقد أنه قارئٌ نهم».

«أعلم، تصوَّر أنه قرأ روايتي! وذكر لي جملاً بحالها حفظها عن ظهر قلب!».

قالت جارتي ذلك، وارتسم على وجهها تجهمٌ مفزوع. فحرصتُ على عدم إظهار أي مرح أو استغراب، متابعاً كلامي وكأنني لم أسمع شيئاً.

«إنه مقتنع بأن لا شيء مما نخشاه قد حصل. لم تقنعني حججه تماماً، ولكن معنوياتي ارتفعت حين فارقته».

رفعت إيف كتفيها باستخفاف ثم انبرت قائلة:

«هنيئاً لك!»؛ ثم انتقلت فجأة إلى موضوع آخر، وسألتني: «أمتأكد أنت أنه لم تتبق مكعبات ثلج؟».

«أجل، متأكد تماماً، ويا للأسف! لا بل غمست أصابعي في الدلو. ولا حتى فتيتة ثلج واحدة! أتريدين بعض الماء عوضاً من ذلك؟ لو فتحتُ الصنبور وتركت الماء تجري لمدة عشر ثوان، ستصبح باردة جداً».

«أجل، أريد».

كنت أدخل إلى المطبخ، حين توقفت الموسيقى فجأة. عدت إلى الزر لرفع الصوت. كان صوت أنثوي يقول:

«السيد هوارد ميلتون، رئيس الولايات المتحدة، توجَّه بكلمة إلى شعبه، وإليكم كلمته المسجَّلة».

خيَّمت لحظة صمت، ثم سُمع الصوت الذي هرم قبل الأوان لرجل الدولة:

«أيها المواطنون الأعزاء،

قبل كل شيء، إنني حريص على طمأنتكم: فأراضي الاتحاد لم تتعرَّض لأي هجوم غريب عنيف، ولم تسقط ضحايا ولم يحصل دمار وخراب. ولقد شئتُ أن أستهل كلمتي بهذه الكلمات المطمئنة، لأن إشاعات تهويلية انتشرت في هذه الساعات الأخيرة.

«لا شك في أن هذه الإشاعات قد تعزَّزت بسبب حدوث بعض الظواهر غير الاعتيادية، مثل انقطاع الإنترنت، وتوقف الإرسال التلفزيوني والإذاعي، وتعطيل شبكات الهاتف أو اختلال بعض الأجهزة الكهربائية. وكل الدلائل تدعو إلى الاعتقاد أن حوادث مماثلة قد وقعت في جميع أنحاء العالم.

«لقد أصبحنا نعرف سبب هذه الظواهر، ولكن الحكمة تقتضي عدم التحدث عنها علناً عند هذا الحد. غير أنني أستطيع أن أعلن لكم بأن اتصالات قد تمت، على أرفع المستويات، مع الأشخاص الذين يقفون وراء هذه الحوادث؛ ولقد أكدوا لنا أنهم لا يضمرون أي عداء تجاه الولايات المتحدة. وكلي أمل وثقة بأن عودة الحياة إلى طبيعتها ستحصل في القريب العاجل بفضل هذه الاتصالات.

لن أخفي عليكم أننا نواجه، منذ البارحة، وضعاً غير معهود على الإطلاق. ولكننا نفعل ذلك بحس من المسؤولية والثقة فينا. وإنني على

يقين بأننا سننجح، بفضل يقظة جميع الأميركيين وحكمتهم وحسِّهم المدني، وبالتعاون الوثيق مع أصدقائنا وشركائنا في جميع القارات، في تخطي هذه المرحلة الدقيقة دون مكابدة أضرار كما تخطينا أكثر من مرة في الماضي لحظات خطيرة من تاريخنا.

«سأطلعكم بانتظام على تطور الأوضاع. فاعتصموا بالصبر! وتحلوا بالثقة، ستكون كل الأمور على ما يرام.

«بارك الله فيكم!

بارك الله في الولايات المتحدة الأميركية!».

سُمعت ثلاث نغمات من النشيد الوطني الأميركي، ثم استأنفت المذيعة الكلام على الهواء: «استمعتم إلى كلمة...». أخفضتُ الصوت، وحوَّلتُ نظري إلى نار المدفأة، والتفتت إيف في الاتجاه نفسه.

سألتني، بعد برهة، وهي ترفع الكلفة للمرة الأولى: «ما هي انطباعاتك؟».

جاء سؤالها مبكراً للغاية. ففي ذهني، يتدافع ألف سؤال، لم أكن قد صنَّفتها بعد. وليس بمقدوري سوى التفكير بصوت مرتفع.

«إنه يتكلم على الأشخاص الذين يقفون وراء هذه الأحداث من دون تسميتهم. من هم؟ أهي منظمة؟ أم حكومة؟ كل هذه الأمور تتراءى لي غريبة وغامضة... ويقول أيضاً إن الولايات المتحدة لم تتعرَّض لهجوم، وإنها لم تخسر ضحايا ولم يحصل فيها دمار. ولكنه

ليس كذلك بياناً لإعلان النصر. لم يذكر ساردا روف وأعوانه الذين أقسم بأن يقضي عليهم. هل أبيدوا؟ هل جُرِّدوا من سلاحهم؟ إنه حتى لا يذكرهم. ولا يتطرق أصلاً في أي لحظة إلى النزاع النووي، لا ليقول إنه اندلع، ولا ليقول إن تفاديه كان ممكناً».

كانت الموسيقى قد توقفت مرة أخرى عبر المحطة الإذاعية، وأُعلن عن إعادة بث كلمة الرئيس ميلتون بعد بضع دقائق.

سألتها: «ألديك واحدة من تلك المسجِّلات القديمة التي تعمل ببطاريات؟».

أجابت إيف بنبرة مفرطة في التعجب: «نعم، طبعاً لديَّ واحدة».

«لا بد أنها هنا، في هذا الجارور الكبير الذي يحوي أشياء متنوعة».

عثرتُ عليها بسهولة، وتحققتُ من أنها تعمل، وقرَّبتها من المذياع، في اللحظة المناسبة مع بدء الكلمة التي أصغينا إليها معاً بانتباه أشدَّ من المرة الأولى.

كان ميلتون يغدق «بركاته» الختامية، فانبرت إيف وقالت لي: «أتعلم ما سمعناه الآن؟ إنه استسلام! أجل، تماماً، إنه خطاب استسلام!».

وراحت تحاكي الخطيب، فخشَّنت نبرة صوتها، واتخذت وتيرة متثاقلة ولاهثة:

«علينا أن نواجه خصماً غير متوقع، قطع اتصالاتنا، وخرَّب أجهزتنا، وبالتالي شلَّ قواتنا المسلحة.

فلا سبيل لدينا بالتالي للمقاومة، فنحن نتباحث... ولكن دعونا لا

نهلع، أيتها المواطنات وأيها المواطنون الأعزاء، فهؤلاء الأشخاص لا يضمرون لنا أي عداء!».

اضطررتُ للتسليم بأنه تفسير مقنع؛ ولكنه ليس التفسير الوحيد.

فألحت عليَّ جارتي، التي استنفرت أكثر من أي وقت مضى: «أي تفسير آخر؟».

لم أستطع إجابتها، كان ذهني مشوشاً ومحتاراً ومتباطئاً. لقد حان الوقت للانصراف، فانتصبتُ واقفاً.

«هل يمكن أن أستعير منك المسجِّلة حتى الغد؟ يجب الإصغاء إلى هذا النوع من الخطب مراراً على التوالي لاستيعاب ما يتوارى خلف كل كلمة...».

«ستسدي لي خدمة إذا ما خلَّصتني من هذا الجهاز نهائياً، لا أريد رؤيته بعد اليوم. اشتريته العام الفائت، ظناً مني أنه سيساعدني على الكتابة. وعوضاً عن الخربشة على الورق أو الرقن على لوحة مفاتيح، كنت سأكتفي بالتنزه على الشاطئ وأنا أسجِّل صوتي في العلبة الصغيرة. الحل المعجزة! لقد تنزهتُ لساعات، وأيام بحالها، والميكروفون قرب شفتي، ولم أستطع قطّ تسجيل الجملة الأولى فيمكنك أن تأخذه وتحتفظ به، على الأقل، سيكون قد عاد بالفائدة على أحدهم».

إيف على صواب، غريبة تلك الإشارة إلى خصم يغفل ميلتون ذكر اسمه. وعلاوة على ذلك، فهو لا يسميه «خصماً» ولا «عدواً»، ولا

يسميه كذلك «شريكاً»؛ ويشير إليه بإجلال مشوب بالخشية. يقول لنا إن الحكمة تقتضي عدم التحدث في المسألة علناً في هذه المرحلة. إنه حذرٌ لم نعهده بالفعل في أسلوب أشد قادة العالم بأساً.

ما سمعناه في الحال ليس الفاتح الإسباني هرنان كورتيس معلناً لشعبه عن لقائه إمبراطور الأزتيك موكتيزوما، بل سمعنا موكتيزوما معلناً لشعبه عن اللقاء مع كورتيس...

ولذلك، تبدَّد قليلاً القلق الذي ساورنا البارحة، ولكن ارتسم مكانه قلق آخر، أقل واقعيةً وأشد غموضاً كذلك. فهمنا أنه لم تحصل كارثة نووية، غير أن خطباً آخر قد وقع، خطباً جللاً ومباغتاً، أكاد لا أعرف عنه شيئاً بعد، ولا أدرك، في هذه اللحظة، حجمه ولا تبعاته.

مكتبة
t.me/t_pdf

الخميس ١١ تشرين الثاني

يرهقني دور المؤرخ الذي أسندته لنفسي. إنني أمضي سحابة نهاري أترقَّب الأنباء، وأتحقق، وأدوِّن ملاحظات، ثم أكتب. وعلى الأقل، سأكتب هذه الليلة على ضوء مصباحي...

فلقد عاد التيار الكهربائي! وهذا الصباح، عندما فتحت عيني، قرابة الساعة العاشرة والنصف، كانت ساعات كهربائية تومض في كل أنحاء المنزل تقريباً - في حاسوبي وطابعتي، وجهاز الستيريو، والفرن، والثلاجة... باللون الأحمر، والوردي، والفيروزي، كلها تسقسق معلنة أنها لا تشير إلى الساعة الصحيحة التي يجب ضبطها.

تناولت سماعة الهاتف للاتصال برقم أدريان، ربيبتي، التي تعيش في باريس. فلم أسمع سوى رسالة مسجَّلة، ولكنها بصوتها فعلاً. يبدو أن شبكة الهاتف قد جرى إصلاحها، ولم تعد الموجات «مُصادَرة».

*

كان اتصالي الثاني بأقدم أصدقائي - أو توخياً للدقة، بأقدم الأشخاص الذين بقيت معهم على تواصل دائم: مورو. ستسنح لي الفرصة، بلا أدنى شك، لمعاودة الحديث عنه، ولكن ربما يجدر بي، منذ الآن، الإفصاح عن السبب الذي يجعلني على عجلة شديدة من أمري للاتصال به.

تعرفتُ إليه في الجامعة، حيث كان قد أصبح أشهر من نار على علم. إنه الجهبذ النجيب، والمفعم بروح النكتة...

وهذا ما استهواني في شخصه في بداية تعارفنا، وكذلك هيئته، ورأسه المفرط في استدارته، وشعره الأكرت للغاية على بشرة شديدة البياض، ونظارتاه اللتان تذكر سماكتهما بواجهة محل للصاغة، وفمه الكاسر الذي يشبه فم طفل لم يشبع. كان حاسر البصر ومكتنز الجسم، لا يستوفي حقاً المعايير الشائعة للوسامة؛ ولكنه يتربع على العرش وفق معيار الإغواء الذي لا يكترث لأي معيار.

نشأت بيننا صلة وثيقة، من تلك التي لا يؤثر فيها لا الزمن ولا البعد. وحافظت على عادة مصارحته بما لن أصارح به أي مخلوق آخر، وهو كذلك. غير أننا قلما التقينا في هذه السنوات الأخيرة. فكل منا سار وفق مساره الخاص: فقد تخليت عن دراسة الحقوق لأجل الرسم، وهجرت العالم الجديد للعيش في الأرخبيل الذي تتجذَّر فيه أصولي؛ أما مورو فلقد أصبح محامياً لامعاً، تُعرض عليه أكثر المنازعات تعقيداً من ساو باولو أو تورونتو أو لندن أو سنغافورة. ولم يكترث يوماً لإنشاء

مكتب كبير يحمل اسمه. ففي هذا المجال- كما في الحب، أصلاً - إنه يتنقل كالفراشة، على هوى القضايا الجارية.

وبالتالي، كان خبيراً فذاً، بنظر زملائه، وإلهاً في عيون أصدقائه؛ غير أنه ظلَّ لفترة طويلة بعيداً عن الأضواء. أجل، حتى في مجتمع يعيش على الصخب مثل مجتمع الولايات المتحدة، نجح في تحقيق الإنجاز المتمثل في أن يصبح شخصية مهمة مع بقائه مغموراً. ثم، فجأة، منذ ثلاث سنوات، أميط اللثام عن اسمه ووجهه للجمهور. وتعذَّر عليه أن يتهرَّب؛ فأحد أصدقائه المقرَّبين وصل إلى البيت الأبيض!

لم ألتقِ في حياتي الرئيس ميلتون. لا قبل انتخابه، ولا منذ ذلك الحين. لعل نظرته تلكأت أحياناً على أحد رسومي، ولكن من الأرجح أنه لا يعلم من يختبئ وراء توقيع ألك سندر، ولا أي صلة قربى سرية تربطنا. فمورو يفصل بين صداقاته. وأنا بدوري لم أكن أعلم إطلاقاً بعلاقتهما قبل أن يُكشف عنها النقاب.

وأثناء الحملة الانتخابية، ذكر بعض الصحف اسم «موريس أوتس، المعروف بمورو»، من دون تقديم تفاصيل عن دوره. وبعد الانتخابات، عندما أصبحت كل تصرفات الرئيس الجديد تُفحص تحت المجهر على مدى أربع وعشرين ساعة يومياً، افتضح السر، فبدأ الحديث يدور عن مستشار خاص جداً، عن عقل مفكر، ومعرِّف، وساحر، ومرشد روحي... لا أدري كيف كانت ردود فعل أصدقاء مورو الآخرين؛ أما أنا فقد تضايقتُ أكثر مما تباهيت.

تبدَّل موقفي اليوم، بل من دواعي سروري أن أحد أصدقائي قد بلغ أعلى المراتب. ثمة انقلاب هائل يحدث ووسائل الإعلام ممتنعة عن الكلام. وإنني بحاجة إلى معرفة ماذا يجري، وعند مورو الخبر اليقين بالضرورة.

فطلبتُ رقم هاتفه. لم يكن الاتصال في أكثر الأوقات كياسة؛ ففي واشنطن، لم تكن الساعة تشير إلى الخامسة صباحاً بعد. ولكن مورو لا يعير المسألة أهمية. إنني أعرف عاداته: فما دام الهاتف لا يزعجه، يبقيه مفتوحاً؛ وإذا كان يتأهب للنوم أو للتركيز على ملف قضية، يطفئه. وإنه على صواب. فأحياناً، عند الظهيرة، يكون المرء منغمساً في عمله، والهاتف يغدو متطفلاً لا يطاق؛ وأحياناً، نستمتع بالتحدث مع شخص في منتصف الليل. وأنى لي أن أعرف، أصلاً، إذا كان صديقي في بيته، وليس بالأحرى في طوكيو أو أثينا أو سيدني أو كوالا لامبور؟ عندما أريد الاتصال به، لا أبالي على الإطلاق بمنطقة التوقيت، وأكتفي بالاتصال.

رفع السماعة بعد الرنة الثانية.

«ألك، أنت سريع. لقد عادت الخطوط للخدمة منذ عشرين دقيقة فقط».

«قل لي إنني لا أزعجك!».

«أنا في سانتياغو، تشيلي، إنها السابعة صباحاً، ولم يغمض لي جفن الليلة الماضية. أنت لا تزعجني البتة، ولكن سائر البشرية تضايقني إلى أبعد حدود».

وصدحت ضحكته، ضحكة التلميذ، التي تلغي السنين والمشيب. بعض القهقهات الصاخبة، ثم توقف بغتة. فقد تأهب مورو الآخر للكلام، مراقب العالم، مُحلِّل الأزمات، المستشار الخاص جداً، بنبرته التي لا تفارقها الدماثة، إنما الرصينة اليوم أكثر من العادة، والذي يصيب الهدف، ويجيب عن الأسئلة التي تُطرح قبل صوغها.

«حدث أمرٌ يثير بالغ القلق. إنه جنوح نتحمل المسؤولية عنه جزئياً، ولكن كان يستحيل علينا أن تفادي حدوثه».

أكد لي الأنباء التي تداولتها الصحف الأسبوع الماضي ومفادها أنه قد تقرَّر تنفيذ عملية «تطهير» ضد معقل المشير سارداروف، في القوقاز، لتعطيل ترسانته النووية.

«لن يكون ذلك من دواعي سرور الروس، ولا الصينيين، ولا الهنود، ولا الأوروبيين؛ ولكن، إثر ما حدث في ولاية ماريلاند، كانوا يعلمون جميعاً أننا مرغمون على التحرك، ولا أحد يفكر في اعتراض سبيلنا. فسارداروف المسعور أعلن عملياً مسؤوليته عن انفجار نووي على أرض الولايات المتحدة! هل أوعز به حقاً؟ هذه مسألة أخرى. ولكنه يتبجَّح بذلك، وهذا يكفي لكي لا يترك بمأمن من العقاب».

«كانت الضربة مقرَّرة الأسبوع القادم، ومؤسستنا العسكرية تهتمُّ بالتفاصيل الأخيرة. ولكننا علمنا يوم الاثنين من مصدر موثوق أن سارداروف يستعدُّ لإطلاق صواريخه على عدد من المدن. سمعنا حديثاً كان يقول فيه للشخص الذي يكلمه: «إذا كانوا يعتزمون مصادرة

صواريخي، فيجب أن يقتلوني أولاً. لقد قبل الاتحاد السوفياتي بالهزيمة والتفكك من دون أن يتحلى أبداً بالجرأة على استعمال أسلحته. أما أنا فلن يحصلوا على صواريخي سليمة. سأفجِّرها كلها، ولن يحصل ذلك لا في الصحراء، ولا في البحر».

«كنت في الطائرة الرئاسية عندما تلقى هوارد من أجهزتنا مذكرة تتسم بنبرتها التحذيرية الشديدة: سيشنُّ ساردروف هجومه في غضون أربع وعشرين ساعة. كانت طائرتنا قد حطَّت في سانتياغو في إطار جولة على أميركا اللاتينية، والبنتاغون يطلب تعليمات، ولا بد من اتخاذ قرار في الحال».

«إنني مقتنع بأن ما من صاروخ من صواريخ العدو كان سيصيب أراضي الولايات المتحدة؛ فسيُعترض سبيلها كلها وتُدمَّر في الجو. ولكنها ستطول أهدافاً أخرى، في أوروبا، والشرق الأوسط، وجنوب آسيا، مما سيؤدي إلى كارثة كبرى. هل كنا نستطيع المجازفة بتعرض مدن مثل أثينا أو فيينا أو روما أو القدس أو إسطنبول أو دبي للدمار؟ كان الرئيس مرغماً بالتأكيد على التحرك».

«كانت الخطة الأصلية تقضي بشنِّ عمليات كوماندوس للاستيلاء على قواعد «المشير» وتفكيك صواريخه وقائياً. ولكن الأمور تسارعت، وما من خيار آخر سوى تدمير صواريخه كافة وهي في الأرض عن طريق قصف شامل قبل أن تتمكن من الإقلاع».

«سيتسبب ذلك حتماً في وقوع كارثة في القوقاز، قرب منصات

الإقلاع، وكنا ندرك ذلك. ولكن ما العمل؟ إما تدمير الصواريخ فوراً، ما سيؤدي إلى سقوط الكثير من الضحايا، وإما المجازفة بالسماح لها بالإقلاع، لكي تذهب وتنقضَّ على أهدافها، وتوقع من الضحايا أعداداً أوفر، ولدى حلفائنا. وكان القادة العسكريون ينصحون بضربة فورية، ويلحون على الرئيس أن يعطيهم موافقته دون إبطاء».

«كانت الطائرة قد حطَّت وتوقفت على أسفلت المطار. وأليسيا أوبراين، الرئيسة الشيلية، تقف عند أسفل السلالم، وسفير الولايات المتحدة قد صعد إلى متن الطائرة. وكنت واقفاً خلف رئيسنا، وسمعته يقول: «أعطي موافقتي، يمكنكم الانطلاق!». سكت للحظات معدودة بانتظار سماع عبارة «شكراً!»، و«أمرك!» أو «إلى اللقاء»، ثم قال: «آلو! آلو!». والتفت إلى الضابط المعاون. «يبدو لي أن هاتفي قد انطفأ. هل يمكنك معاودة الاتصال بوزير الدفاع وإمراره لي لأكلمه؟». ولكن هاتف الضابط لم يشتغل بدوره، ولا هاتفي، ولا هاتف السفير. لقد تعطَّلت كل الهواتف.

«ووفقاً لبرنامج الزيارة، رافقتنا الرئيسة إلى مقرها في قصر لامونيدا، حيث نُظِّم حفل استقبال على شرف هوارد. وكان بانتظارنا في القصر عدد من كبار الأعيان المحليين والدبلوماسيين الأجانب، وبعض الرعايا الأميركيين المقيمين في شيلي. ولدى الوصول إلى المكان، تبين لنا أنهم يعانون جميعاً، بلا استثناء، المتاعب نفسها مع هواتفهم المحمولة، وأن الهواتف الأرضية كانت كذلك غير صالحة للاستعمال، وأن الحواسيب ليست موصولة بالشبكة. وهذا الأمر، في

ذاته، يدعو للقلق البالغ، وهوارد يشتعل غيظاً لأنه لا يعلم إذا كان الأمر الذي أصدره بتدمير صواريخ سارداروف قد سُمع في البنتاغون أم لا.

«كان من المقرَّر أن يجري الرئيس والرئيسة محادثة على انفراد، وأن يوقِّعا بعض الاتفاقيات الثنائية التي أُعدَّت لهما، ثم أن يتوجها معاً إلى قاعة كبرى لإلقاء الكلمات المتعارف عليها وتناول كأس مع المدعوين. فدخلنا إلى مكتب الرئيسة. وجلست هي وهوارد. وكان المقرَّبون إليهما يستعدون للانسحاب لكي يتركوا لهما دقائق معدودة لخلوة، عندما وقعت حادثة غريبة».

«فعلى أحد رفوف المكتبة، كان يوجد حاسوب لوحي إلكتروني. كان الجهاز مركوناً فوق الرف، مستنداً إلى بعض الكتب. لم يلمحه أحد. فمن يلمح الشاشات اليوم؟ إنها منتشرة في كل مكان، متماهية مع المشهد. ولكن هذه الشاشة التي كانت مطفأة تلك اللحظة مثل كل الشاشات الأخرى، أضيئت فجأة، ودبَّت فيها الحياة وخرج منها صوت جهوري يقول بالإنكليزية: «طاب مساؤك، سيدي الرئيس! ».

«التفتت كل الأنظار إلى الوجه الذي ظهر على الشاشة. وتململ مسؤولو الأمن. كانوا يخشون عملية اغتيال، أو على الأقل تطفلاً تخريبياً. رفع بعضهم هواتفهم غريزياً وألصقوها بآذانهم، أو قرَّبوها من أفواههم، وكأنها أجهزة لاسلكي، قبل إدراكهم أن الإرسال والتلقي معدومان بالطبع. وقال الشخص، متبسّماً، وكأنه يراهم: «هواتفكم المحمولة كلها معطلَّة، ولقد جئت لإصلاح الشبكة».

«تجمع أعضاء الوفدين في دائرة حول الشاشة، بانتظار التعليمات التي لم يتأخر إعلانها، هذه المرة بالإسبانية: «إنني الآن في هذا القصر، وسط مدعويك، سيدتي الرئيسة. إذا شاء أحد معاونيك أن يأتي لاستقبالي، ومرافقتي للمثول أمامك...».

«أفترض أن بإمكان هذا الشخص، إذا استطاع الدخول إلى القصر، بالرغم من الإجراءات الأمنية المشدَّدة، الوصول إلى المكتب من دون الذهاب لإحضاره. ولكنه كان يبدو حريصاً على احترام الشكليات. فكُلِّف الضابط المعاون للرئيسة الشيلية بالذهاب لإحضاره، يرافقه أربعة أو خمسة رجال أمن. ثم رأينا الشخص يصل، يواكبه هذا الرهط الصغير، وكان أطول منهم قامة، وعلى وجهه ترتسم تلك الابتسامة الخفيفة نفسها التي كانت ترتسم على الشاشة».

«كان بعض الأشخاص يرغبون بالقبض عليه لإخضاعه لاستجواب مشدَّد. ولكن رئيسنا نهض لمصافحته، وحذت السيدة أوبراين حذوه، قبل أن تدعوه للجلوس». فقال المتطفل بأدب: «ربما تودين أن تأمري بإغلاق الباب؟» بالطبع، كان هو الذي يصدر الأوامر.

«التبست الأمور على جميع الأشخاص الحاضرين. هل يجب البقاء في المكتب أم الانسحاب؟ فحسم هوارد المسألة للجميع. وطلب إلى أربعة من معاونيه البقاء إلى جانبه، وكنت من بينهم. ثم حدَّدت الرئيسة بدورها أربعة أشخاص من فريقها. وخرج الآخرون».

«وحالما أغلق الباب، التفت الشخص نحو هوارد: «سيدي

الرئيس، منذ ساعتين تقريباً، أعطيتَ الأمر بقصف قواعد عسكرية في منطقة غابورني. اطمئن، لم ينقل هذا الأمر قطّ». ازدادت سحنة الرئيس امتقاعاً. ساد الشعور بأنه يجهد لكي يظلَّ صوته مسموعاً: «إن ما تقوله لا يبعث في نفسي الطمأنينة على الإطلاق. لقد أصدرت فعلاً الأمر بتدمير عدد من الصواريخ التي قرر المشير ساردروف إطلاقها على عدة مدن كبرى في أنحاء العالم. وتفادياً لحدوث كارثة كبرى، وسقوط الآلاف، وربما الملايين من القتلى، اضطررت لاتخاذ قرار بقصف هذه القواعد». فقال له الآخر: «أجل، سيدي الرئيس، إن ما تقوله دقيق. كان ساردروف قد عقد العزم بالفعل على إطلاق قنابله على عدد من الحاضرات، بنية التسبب بسقوط أكبر عدد ممكن من الضحايا. ولا شك أنك ستطمئن حين تعلم أنه لم يستطع بدوره أن ينقل أوامره، وأن صواريخه لم تتمكن من الإقلاع. ولقد أصبحت قنابل المشير الآن غير قادرة على التسبب بالأذى، وهو كذلك».

«فأجاب هوارد: «يثلج صدري ما تقوله لي الآن، صدِّقني. فلقد أوعزتُ بشنِّ الهجوم على مضض. لم يخف عليَّ أن قصف منصات إطلاق الصواريخ سيؤدي إلى سقوط عدد كبير من الضحايا في صفوف السكان المدنيين الذين يعيشون في الجوار، ولكن لو لم أفعل، لكانت مدن بأكملها ستتعرَّض للإبادة». «مجدداً، أؤكد لك، سيدي الرئيس. مع الوقت القصير جداً الذي كنت تملكه، وما يتوافر لديك من وسائل، لم يكن لديك سوى الخيار الذي اخترته. ولذلك، اضطررنا للتدخل».

«كان كلامه ينم عن ثقة بالنفس وصفاقة. فسأله هوارد: «من تكون؟». إنه بالطبع السؤال الذي يسأله الجميع. فالتفتت الأنظار إلى الشخص، بفضول شديد. تظاهر بأنه غارق في التفكير، ولكني على يقين بأن جوابه كان جاهزاً، بالنبرة المناسبة. «سيدي الرئيس، سؤالك مشروع، وأعدك بالإجابة عنه في حينه. أما الآن، فالمدعوون ينتظرونك، وأنا لدي أمور ملحة يجب أن أهتمَّ بها. فاسمح لي أن أنسحب، وسأوافيك إلى هذا المكان قرابة الحادية عشرة ليلاً، بعد حفل العشاء الرسمي، إذا كان ذلك يناسبك».

«ونهض الرجل دون انتظار رأي الرئيس والرئيسة. هل كان لديه بالفعل أمرٌ عاجل يجب إنجازه، أكثر إلحاحاً من هذه الأحاديث؟ لا أظن. كان يريد فقط أن يشعرنا بمدى ضعفنا من دون هواتفنا، ومن دون مصادر معلوماتنا. وفي الواقع، كان هوارد مثل الشبح. كان موجوداً في قصر منيف، محط الأنظار وسط هذا الحضور الراقي. ولكنه فقد الاتصال بواشنطن؛ وطائرته معطلة على أرض المطار؛ ولا يعرف شيئاً مما يجري في سائر أنحاء العالم. وفي الحقيقة، لم تتوافر لدينا سوى المعلومات التي تكرَّم هذا الشخص وزوَّدنا بها. وأظن أنه كان يسعى إلى حملنا على الرضوخ والقبول بجميع شروطه».

«وما هي، يا مورو؟».

«لست أدري إطلاقاً، يا ألك. حتى هذه اللحظة، لا أعرفها. عندما التقينا، بعد حفل الاستقبال والعشاء الرسمي، في مكتب الرئيسة، اكتفى

ذلك الشخص بأن طلب إلى هوارد إذا كان يرغب في توجيه كلمة إلى الشعب الأميركي بشأن الحوادث الأخيرة. ولهذه الغاية، اقترح أن نلتقي صباح الأربعاء؛ وحتى يحين موعد اللقاء، سيقوم الرئيس ومعاونوه بإعداد نص الكلمة، في حين سيهتم هو نفسه بإعادة البث. لم يقلْ ذلك بوضوح، ولكن كلمة الرئيس بطبيعة الحال لن تُبث إلا إذا نالت استحسان هذا الشخص وأصدقائه. وهذا ما حصل على ما يبدو، لأن هوارد استطاع التكلّم في اللحظة التي اشتغل فيها الهاتف مجدداً، في الوقت الحاضر، على الأقل...».

«ولكن من هم هؤلاء القوم؟ من المؤكد أن لديك فكرة عن المسألة!».

«سأخيِّب أملك، لا أدري على الإطلاق...الرجل يقول فقط: «نحن» و«أنتم».

«أتعتقد أنه زعيمهم؟».

«لا أظن ذلك. لن يتنقل زعيم شخصياً وبمفرده، ولكنه أكثر من مجرد مرسال. في الماضي، كنا اعتبرناه الحاكم بأمره... يبدو شديد الثقة بنفسه. جلس بهدوء في أريكة، قبالة الرئيس والرئيسة، مثل رئيس شركة متعددة الجنسيات قَدِم لزيارة أحد فروعها».

«ألم يُعرف عنه شيء؟».

«يزعم بأن اسمه ديموستينس».

«أهو يوناني؟».

«قد يكون مجرد اسم حركي. وفي جميع الأحوال، إنه لا يشبه كثيراً اليونانيين الذين أعرفهم، فبشرته نحاسية، وهو يتكلم الإنكليزية وكأنه عاش طوال حياته في ولاية ماساتشوستس».

*

أمضيت سحابة نهاري في تدوين كلام مورو. سعيتُ جاهداً لاستحضار التفاصيل، لأنني لم أكتب ملاحظات أثناء كلامه، ومتسائلاً، غير مرة، إذا كان يجدر بي تدوين كلامه حرفياً، بين هلالين مزدوجين، ومن دون أي «رقابة».

أعلم أن المسألة ليست على قدر كبير من الأهمية وسط كل ما يجري من أحداث، ولكن لا بد لي من القول إنني كنت مندهشاً، طوال حديثنا، من السهولة التي أظهرها في إفادتي بما يُقال في أوساط الرئيس، وفي اجتماع مغلق. لم أشأ أن ألفت انتباهه إلى ذلك، كي لا أضع حداً لزخمه، ولأنني أثق بحصافته. فلكونه محامياً، وكذلك، كما أفترض، في إطار دوره كمستشار سياسي، فهو يعرف أن يظهر عادة تكتماً شديداً. ولكن يحدث أحياناً، عندما يفكر بصوت مرتفع، برفقة صديق، أن يندفع بفعل تحليله المنطقي، فيكاد ينسى أن آذاناً خبيثة قد تقف له بالمرصاد. وفي نهاية المطاف، لقد أجاب، من دون أن أضطر لاستجوابه، فأشار خلال حديثه إلى أن مفهوم السرية نفسه فقد قيمته، «بما أن الوحيدين الذين يجدر بي أن أخفي عنهم شيئاً لا تخفى عليهم الأمور بالفعل».

فسعيت جاهداً لتدوين كلامه حرفياً، وتفاديت مقاطعته...غير أن سؤالاً آخر كان يؤرقني. في البداية، كان هذا السؤال يبدو لي شديد الغرابة، بالغ السخف، حتى أنني خجلت من مفاتحة مورو بشأنه. ولم أقتنع بضرورة أن أكلمه بشأنه إلا في المساء.

وتوضيحاً لكلامي، فعندما وصف صديقي الشخص المدعو ديموستينس، خطر ببالي على الفور أغاممنون. هل لأن الأمر يتعلق، في هذه الحالة وتلك، باسم يوناني من العصور القديمة، في حين أن لا أحد من هذين الشخصين يلوح مثل الإغريق؟ أجل، حتماً، لا يمكن لمثل هذه المصادفة إلا أن تثير فضولي.

في البداية، وكما قلت، تردَّدتُ، خوفاً من التعرض للهزء والتهكم، وعن صواب. فأن يكون «هؤلاء القوم» - وإنني أستعمل، في غياب تعبير أفضل، هذا التعبير الشديد الغموض- قد وجدوا من الضروري إرسال موفد للقاء رئيس أقوى دولة في العالم، فهذا أمر لا يستعصي على الفهم؛ ولكن ما الذي يدعوهم إلى تعيين ممثل لهم في أرخبيل الشيرون، في ذلك المفترق التافه للغاية الذي يقود من بور-أتلانتيك إلى جزيرة أنطاكية الصغيرة؟ إنه أمر لا يُعقل، أجل، بل وسخيف. ومع ذلك، فقد كنت مضطرباً، وأريد أن يطمئن بالي. كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل عندما تناولت الهاتف ثانية لمعاودة الاتصال بمورو.

«لدي سؤال آخر. ديموستينس هذا، كيف تلوح هيئته؟».

«إنه فارع القامة، عريض المنكبين، حجم رأسه أكبر قليلاً من الحجم المتوسط الذي يصادف لدى البشر. يصعب تحديد اللون، فلنقل إنه زيتوني البشرة، بارز عظام الوجنتين. إنه أشبه بهندي من الهنود الأميركيين الحمر. هل أنت ترسمه في هذه اللحظة؟».

«سأفعل بعد قليل، ولكن طلبت منك أن تصفه لي لسبب آخر، فثمة شخص هنا...».

وحدثته عن أغاممنون باسمه الإغريقي وسحنته الشبيهة بهندي من قبيلة الكومانشي. كان يبدو بدوره أنه آت من أصول غير معروفة.

فلزم مورو الصمت. تخيلته يحكُّ رأسه المستدير بأصابعه الغليظة المتآكلة أظفارها.

«ألك، قد لا يكون لما تقوله لي صلة بمسألتنا، وقد يكون له صلة بها. ففي الوضع الذي نحن عليه، لا يسعنا إهمال أي خيط. فإذا انتشر هؤلاء الأشخاص في جميع أنحاء العالم، يمكن لكل واحد منهم أن يطلعنا على أمور مهمة. كن على ثقة أننا، في الوقت الحاضر، نتخبط في ظلام دامس. إنهم هنا، في مكان ما، فوق رؤوسنا؛ يشاهدوننا، يسمعوننا، يراقبون كل حركة من حركاتنا، ويمنعوننا من القيام بهذا الأمر، ويجيزون لنا القيام بذلك، كما يحلو لهم. ليس باستطاعتنا الإقدام على خطوة من دون موافقتهم. أما نحن فلا نعلم شيئاً عنهم، ولا من يكونون، ومن أين أتوا، ولا كيف يعملون، ولا نعلم دوافعهم الحقيقية. فإذا كنت تريد معرفة رأيي بالموضوع، لا تتردد. اذهب لرؤية

أغاممنون ذاك. لا تتحرَّج بمقدمات، فالوقت يدهمنا، وتكلم معه مباشرة. أذكُرْ له اسم ديموستينس، واسمي، بل واسم الرئيس! ارمِ كل أوراقك على الطاولة، ولكن فليقلْ لك شيئاً. كل ما تستطيع أن تستقيه سيكون ثميناً».

وعدته بأن أهتم بالأمر في الغد، وبأن أوافيه بما يجرى في الحال.

المفكرة الثانية

انجلاءات

«فالضوء ثمين إنما ليس إذا كان
الثمن الذي سأدفعه أن تُفقأ عيناي»

أراغون، ديانا الفرنسية

الجمعة ١٢ تشرين الثاني

في مطلع هذا النهار، استولى عليَّ الشعور بأنني أدين لمورو بدين معنوي. فلقد أظهر نحوي أخوَّة بالغة البارحة، واستغرق وقتاً يحكي لي ما جرى، مستفيضاً في التفاصيل! وبفضل صداقته وثقته، يتراءى لي أنني في قلب أحداث العالم، في حين أنني أعيش على الهامش، بعيداً من كل شيء، على حصاتي الجلحاء الصغيرة.

وتعبيراً له عن امتناني، آليت على نفسي أن أتحقق، منذ ساعات الصباح الأولى، مما إذا كانت لأغاممنون «الذي يخصني» صلة ما بديموستينس «الذي يخصه».

لم تكن «ساعات الصباح الأولى» بالمبكرة إلى هذا الحد. فبما أنني غفوت عند الفجر، لم أستيقظ إلا قرابة الظهيرة. وتفحصتُ على الفور جدول المد والجزر. كانت ذروة المد، وممرُّ الـ«غواي» ليس

سالكاً. فمن المستحيل عليَّ الذهاب لزيارة الملاح، غير أنه يمكنني الاتصال به هاتفياً.

رد بعد الرنة الثانية، بصوته المرح على الدوام. ونظراً للظروف السائدة، كنت قد قررت التكلّم بنبرة أكثر تحفظاً.

«يجب أن أتحدث إليك عن بعض الأمور التي تناهت إلي. هل يمكن أن نلتقي اليوم؟».

«إذا كان الأمر عاجلاً، أستطيع العبور بقاربي وأوافيك».

«أكون لك ممتناً».

«سأرتِّب أدواتي وآتي في الحال».

بعد نصف ساعة، سمعتُ هدير محرِّك. توقف الملَّاح في آخر الحديقة، ولفَّ حبل المرساة حول وتد، واقترب ووقف أمام بابي ذي الواجهة الزجاجية، ممسكاً قبعته بيده، وقد أحنى رأسه جانباً. أتلك دلالة على الاحترام؟ أم التواضع؟ أم تراه يراوغ ويحتال قليلاً؟

دعوته إلى الجلوس، ثم دخلتُ في صلب الموضوع من دون لف أو دوران.

«هل تعرف بالصدفة شخصاً اسمه ديموستينس؟».

خيَّم الصمت. كان أغاممنون يتفحَّص وجهي، ويبدو أنه يوازن بين الصمت والكلام. وبعد برهة، تفوَّه بما يلي:

«إنه اسم من عندنا».

كان رداً مبهماً، مصحوباً بابتسامة غامضة. فحاولت أن أرسم على وجهي أكثر الأمارات ثقة. غير أنني شعرتُ بغصة في حلقي. فتناولت

من على منضدة صغيرة سيجاراً صغيراً، وأشعلته لكي أسترد رباطة جأشي.

«إنني أتحدث عن رجل ظهر يوم الثلاثاء، في سانتياغو شيلي، حاملاً رسالة إلى رئيس الولايات المتحدة...».

عاود الملّاح تحديقه إليّ. كان يتنازعه تردد أخير، دون شك؛ ثم التمعت في نظرته بارقة عزم.

قال: «فهمت. إنه شخص من عندنا».

كنت مضطرباً بعض الشيء. توقعت جواباً مراوغاً، ثم مطاردة طويلة في متاهة. فجاءت الاعترافات أسرع مما كنت أتوقع. أصبحت الكرة في ملعبي، ولا يجوز تركها تتدحرج وتستقر.

«شاءت المصادفات أن أحد أصدقائي من أيام الشباب كان موجوداً مع رئيس الولايات المتحدة. استطعت محادثته البارحة عبر الهاتف. ولقد روى لي مشاهداته لما جرى من أحداث».

ونقلت إلى الملّاح، بهذا القدر أو ذاك من الأمانة، المعلومات التي نقلها إليّ مورو: العملية التي كان يهيأ لها ضد معقل سارداروف؛ والتهديدات التي صدرت عن هذا الأخير؛ والأمر بالهجوم الذي أعطاه هوارد ميلتون؛ والانقطاع المفاجئ للاتصالات؛ ثم ظهور المدعو ديموستينس في قصر لامونيدا...

استمع الملّاح إلى كلامي باهتمام شديد من دون أن يقاطعني أو يستجوبني. وعندما توقفت عن الكلام، استرجع نبرته المرحة.

«قلت لك إن العالم نجا من كارثة، وإن من السابق للأوان تقديم التعازي!».

قابلت كلامه بابتسامة تهذيباً، ولكن قفشته لم تشفِ غليلي. فألححتُ عليه بالسؤال:

«هل أنبأتك روايتي بما ليس لك علم به أصلاً؟».

ظهر عليه التردد، وكأنه يبحث عن التعبير المناسب للرد.

«ما قلته لي، في الحال، يؤكد ويُكمِّل ما كنتُ على علم به».

اخترت أن ألزم الصمت في الظاهر، محدقاً إليه بثبات، لكي يتبين له أنني أنتظر التتمة. واستهلَّ أغاممنون كلامه باستعادة ما أخبرته، مضيفاً إليه تعليقه الخاص.

«تشير كل الدلائل إلى أن المشير سارداروف قرَّر بالفعل إطلاق صواريخ مزوَّدة برؤوس نووية ضد عدد من المدن في أنحاء العالم، وأن رئيس الولايات المتحدة، حرصاً منه على منع هذا الهجوم، أعطى الأمر بقصف شامل للقواعد العسكرية القوقازية. إنه جنوح مزدوج...».

وظلت جملته معلَّقة. انتظرت أن يكمِّلها، ولكنه لم يضف شيئاً. فاستنطقته:

«هذا الجنوح المزدوج، كما تدعوه، كان يجب بالتالي منع حدوثه، أهذا ما تقصد؟».

«أجل، بكل تأكيد».

«ولقد تدخلتم أنتم لكي تمنعوا حدوثه، أهذا ما جرى؟».

«أجل، هذا ما جرى».

«ولا بد من أن تتوافر أصلاً الوسائل لمنع حدوثه».

أومأ محاوري برأسه موافقاً. فتابعتُ الكلام، بصبر وروية.

«ولا بد من التحلي بالقدرة على قطع كل الاتصالات فوراً، مما يحول دون قيام سارداروف بنقل أوامره إلى جيشه، ويمنع ميلتون من الاتصال بالبنتاغون، ويشلُّ حركة كل الأطراف المتناحرة».

فوافق مرة أخرى على كلامي.

«وأنتم تتمتعون بهذه القدرة....».

قال محنياً رأسه انحناءة خفيفة إلى جهة اليسار، وكأن الإقرار بالقوة الهائلة لقومه يجب أن يترافق مع الإعراب عن التواضع: «إننا نعتقد أننا نتمتع بها...».

طوال الحديث، كنت أرفع نبرة صوتي تدريجاً. والجملة التالية، اضطررت إلى ضبط نفسي كي لا أصرخها:

«من أنتم؟».

ربما كان من المستحسن أن أستهلَّ كلامي انطلاقاً من هذا السؤال. ألم يُلمِّح إلى ذلك حين أقرَّ بأن المدعو ديموستينس واحد منهم؟ ولذلك، لن يستغرب السؤال، ولقد استعدَّ له بطبيعة الحال. ومع ذلك، فقد بدا محرجاً؛ وعلى غرار «ابن بلده» عندما طرح عليه الرئيس ميلتون السؤال نفسه، حاول أن يكسب الوقت.

«من الصعب اليوم أن أكلِّمك بالصراحة التي أرغب فيها. إننا نشهد لحظة بالغة الدقة، وليس من الوارد أن نسترسل ونقول هنا، في

الأرخبيل، بين صديقين، أموراً قد تعرقل المفاوضات الجارية. ولا يغيبنَّ عن ذهنك أن قومي لا يعملون لحساب أي أمة أو أي قوة عظمى، وأن هدفهم الوحيد هو الحيلولة دون وقوع كارثة على نطاق الكوكب؛ وسيكونون في عجلة من أمرهم للعودة إلى أدوار المتفرجين حالما يتبدد هذا الخطر».

«وأنت، ستعود إلى ما كنت عليه، «ملّاح أنطاكية»...».

«كنت وسأظل ذاك الملّاح».

تبادلنا ابتسامة مغتصبة. وانقضت ثوان معدودة من الصمت. ثم قلت، بشيء من السخط:

«ألا تريد حقاً أن تصارحني بالمزيد؟».

كان أغاممنون يهمُّ بالرد على سؤالي عندما قرع أحدهم الباب. كان أمراً عادياً، في أماكن أخرى؛ أما على هذه الجزيرة، فالأمر مستغرب، ويكاد يكون غير ملائم عند الحد الذي بلغه حديثنا. ولكن يجب أن أفتح للزائر. كانت إيف - يجدر بي القول حتماً بما أن ممرَّ الـ«غواي» غير سالك في هذه الساعة، وأن الروائية هي المقيمة الوحيدة الأخرى في الجزيرة. ومع ذلك، إنها المرة الأولى التي تأتي لزيارتي. كانت زيارة صباحية، نظراً لأسلوب عيشها، لأن الساعة لم تكن تشير بعد إلى الثانية بعد الظهر.

وعندما لاحظت أنني برفقة أحدهم، اقترحت بصورة خرقاء أن تعود لاحقاً؛ فأكدتُ لها بكياسة أنها لا تزعجنا.

في الحقيقة، لم أعرف إذا كنت قد انزعجتُ أم ارتحتُ جرّاء

قدومها. فمن ناحية، أفترض أن أغاممنون لن يكون مستعداً للبوح بالطريقة نفسها أمام شخص ثالث؛ ومن ناحية أخرى، كنت محرجاً في هذه الخلوة، ولست ممتعضاً لأن جارتي جاءت وقاطعتها.

أما الملَّاح فقد لاح مبتهجاً بهذا التطفل، بل أحسستُ أنه كان يرجوه في أعماقه. فحُلَّت على الفور عقدة لسانه، وتوجَّه إلى إيف مباشرة.

«قصدتُ منزلك في أحد الأيام، سيدة سان-جيل، واستحضرت فقرة من روايتك الجميلة. أنت لا تتذكرين هذا النص، أما أنا فلن أنساه».

واسترسل في الكلام، فرمقتُ جارتي. لم يظهر عليها أي زهو، بل تراءت نائية أو صماء. كنت قد لاحظتُ من قبل أنها تغالي في غيظها كلما أشار أحدهم إلى روايتها. إنها من صنف الأدباء الذين لم يؤلفوا سوى رواية يتيمة نالت نصيبها من الشهرة، ثم أمضوا حياتهم بطولها يحاولون تجاوزها، والتفوّق عليها، من دون أن يدركوا مبتغاهم، فيكرهونها في نهاية الأمر وكأنها سقف سجنهم. وفي هذا الصدد، كانت جارتي نموذجاً مضخَّماً حياً. فما كاد الملَّاح يذكر كتابها حتى أشاحت بوجهها. ثم تناولت كيفما اتفق من على الرف دليلاً ضخماً للمعارض راحت تتصفحه متظاهرةً بأنها مستغرقة فيه كل الاستغراق ولا تسمع ما يقال من حولها. غير أن الآخر تابع الكلام، برباطة جأش.

«قلتِ ما يلي: على دروب الحياة نتعثر طوال الوقت بجثث

تاريخنا المربكة. ولكن البشرية، إذا ما سئمت يوماً المشاحنة مع ماضيها، والتقت مستقبلها، فهل ستنجح في معرفته؟ هل ستنجح في أن تعرف نفسها من خلاله، ووضع راحتيها على جسده القوي والدافئ؟ دعيني أقلْ لك سيدتي، إذا كانت تلك نبوءة، فلقد تجسَّدت؛ وإذا كانت أمنية، فلقد تحقَّقت».

كنت قد أومأت، باتجاه أغاممنون، إيماءة اعتذار عن فظاظة زائرتي، عندما أفلتت فجأة الدليل الذي تحمله - وتركته يسقط - على الأرض! التفتت نحو الملَّاح وقد تبدلت سحنتها، وتقدَّمت نحوه، مشرقة كأنها في حضرة ظهور عجائبي. ظننت أنها سترتمي بين ذراعيه أو تجثو عند قدميه. ولكنها توقفت على بعد خطوات قليلة منه لتسأله، وهي تنظر مباشرة إلى عينيه:

«من أنت؟».

كان السؤال الوحيد، ذاك السؤال الذي ترغم أحداث الأيام الأخيرة الأرض بأسرها على طرحه، السؤال الذي طرحه هوارد ميلتون على ديموستينس، والذي طرحته توّاً على أغاممنون، من دون أن أتلقى جواباً. ولكن الملَّاح أُحرج هذه المرة، فاستأذنني وتناول سيجاراً صغيراً من عندي، وأشعل عود ثقاب، وتركه يشتعل، وشعلته تتطاول، قبل أن يقرِّبها من طرف السيجار. خلتُ أصابعه ترتعش، وأدركت، في غمضة عين، سبب تعيينه في هذا المكان غير المتوقع، بهذا التنكر. وبسبب إيف، بالطبع! ومن أجل السهر عليها! فمن الواضح أن هؤلاء القوم يكنون لها المودة، بل والإجلال.

ولذلك، لم أعد آسفاً على الإطلاق لتطفل جارتي؛ فبفضلها، بدَّل الإحراج موقعه، أو على الأقل، توزَّع على نحو أكثر إنصافاً.

تساءل أغاممنون: «من أين أبدأ؟».

إنني أعتقد، هذه المرة، أن تردَّده ليس مصطنعاً.

اقترحت على إيف بحزم: «من اسمك. ما معنى هذه الإشارة إلى اليونان القديمة؟».

«أجل، إنها المقاربة الصحيحة، فليكن ذلك منطلقنا! لا يحمل قومي أسماء إغريقية بمحض الصدفة. فنحن متحدرون من تلك الحضارة، ونخصُّ بالإجلال ما أطلق عليه بعض المؤرخين اسم «المعجزة الأثينية»، تلك الحقبة العظيمة التي تطوَّر فيها العقل البشري، في ميادين كثيرة معاً، حيث «اخترع» عملياً المسرح والفلسفة والطب والتاريخ والنحت والهندسة المعمارية، وكذلك الديمقراطية. وحصل كل ذلك في بضع عشرات من السنين وعلى يد قلة قليلة من الأشخاص. كان ازدهاراً إبداعياً فريداً منقطع النظير، لا في القرون السابقة، ولا في القرون اللاحقة؛ وقد بزغ بزوغاً مباغتاً، ثم تبدَّد بالقدر نفسه من المباغتة. وفيما بعد، تطلب الأمر ألفيتين قبل أن يشهد العالم ما يشبه النهضة».

«ماذا كان سيحدث لو ظلت البشرية تتقدَّم كما كانت في العصر المبارك للمعجزة الإغريقية، عوضاً عن الغرق في حقبة قروسطية مديدة؟ ماذا كان سيحلُّ بالفنون والعلوم والفكر؟ إلى أي مصاف كان العقل البشري سيرتقي لو ظل يتألق بالوتيرة نفسها، وفي جميع الميادين؟ إنك تطرحين كل هذه الأسئلة بوضوح في كتابك يا سيدتي،

وتعربين عن الحنين إلى تلك الحقبة التي لا مثيل لها التي أعطتنا سقراط وأفلاطون ويوريبيدس وهيرودوت وأبقراط وفيدياس وأرسطو والكثيرين غيرهم».

«أما الآن، فلنضع جانباً لبرهة كتب التاريخ للإصغاء إلى قصة جميلة؛ قصة حكاها لي أبواي، وعاشها أسلافي البعيدون، على ما يبدو، أو حلموا بها، أو تخيَّلوها».

«في اللحظة التي بدأت شعلة المعجزة ترتعش، قرَّر أشخاص أكثر جسارة من غيرهم التحرك. كم عددهم؟ كانوا حفنة. أدركوا أن حضارتهم آيلة إلى الانهيار، وأنه لا بد، مهما كان الثمن، من صون المبادئ السامية التي تنطوي عليها. فرحلوا. تركوا أتيقا وبيوتيا وثيساليا وبيلوبونيز، ولم يصطحبوا معهم، كما تقول الأسطورة، «سوى ماهية أرواحهم». وعلى هذا النحو، استهلت مغامرة قومي».

«كان المنفى وقتذاك يعاش مثل عقاب، وبتر، ويكاد يشبه الانتحار. وهذا ما يبرر دون شك أن هؤلاء الأشخاص أعلنوا انتماءهم إلى شخصية رحلت قبل عقود بعد أن ألقت بنفسها في فوهة بركان».

قالت إيف بمهابة: «إمبيدوقليس الأغريجنتي».

«هو بعينه. لقد اتخذ أسلافي اسم «أصدقاء إمبيدوقليس». وهكذا نشير إلى أنفسنا دائماً».

كان من دواعي سروري أن أعرف ذلك، على الأقل للكف عن استعمال مفردات غامضة، ومزدرية بهذا القدر أو ذاك، لدى الإشارة إليهم، مثل «هؤلاء القوم»...

وسألت جارتي: «والآخرون، سائر البشر، كيف تسمونهم؟».

«ثمة تسميات متنوعة، سيدتي. نقول أحياناً «الآخرون»، فقط لا غير، أو «هم». وكثيراً ما نقول أيضاً «الشعوب»، أو «الجموع»، أو كذلك...».

رددت إيف بنبرة غنائية، كما لتؤكد أنها حسمت خيارها: «الجموع! الجموع!».

عدل الملَّاح عن مواصلة تعداده.

سألته بدوري: «وبلدكم يا أغام، ماذا تسمونه؟».

«نقول ببساطة «إمبيدوقليس»... ولكن لا تبحثوا عن هذا الاسم في خرائطكم!».

ابتسم، وفهمت أنه لن يقول لنا المزيد في هذا الشأن، فعدتُ إلى الموضوع السابق.

«ذاك النزوح لأسلافك خارج اليونان، أهو أسطورة أم قصة حقيقية؟».

قال ضاحكاً: «القصة حقيقية، بما أننا نصدِّقها. وفي جميع الأحوال، حكاها لي أبواي على أنها السيرة الأصلية لأصولنا، وأتاح لي ذلك، طوال حياتي، أن أعرف من أكون، ومن أين أتيت، وأية وجهة يجب أن أسلك، وما هو هدف حياتي».

كان يحاول جاهداً أن يظهر صادقاً، من دون أن يسعى لإزالة اللبس.

سألت إيف: «وكيف استطاع هؤلاء الناجون من اليونان القديمة تدبّر أمورهم واكتساب مثل هذه القوة؟».

قال أغاممنون: «إنه بالفعل السؤال الجوهري الذي يمكن للأحداث الأخيرة أن تطرحه. وأعدك بالرد عليه قريباً. ولكن لم يحن الوقت بعد. فالوضع بالغ الدقة اليوم لكي أحدثك بقلب مفتوح كما أود. بعد بضعة أيام، إذا سارت الأمور على ما يرام، سيكون بإمكاني أن أروي عطشك».

لم يكد ينهي جملته حتى رنَّ هاتفه. فنهض، واعتذر بإيماءة، وغادر الحجرة. لم يرجع إلا ليقول لنا:

«إنني آسف، يجب أن أنصرف. سنعاود الحديث مطوَّلاً عن كل هذه الأمور».

وانحنى أمام جارتي، وطبع على يدها قبلة تذكر بالعصور الخوالي، قبل أن ينسحب، ويتركنا لوحدنا وقد نهلنا كلامه الغريب، من دون أن يرتوي عطشنا.

التفتُّ نحو إيف، راجياً أن تدلي بتعليق يكون صدى لما يعتمل في داخلي. غير أنني لمحت في عينيها بريقاً يشبه ارتعاش شمعة. واحتراماً لخشوعها، ولفرحها الداخلي الجلي، أحجمتُ بدوري عن الكلام؛ لم أقل شيئاً بصوت مسموع، على الأقل، لأنني كنت أستحضر في قرارة

نفسي كل جملة من الجمل التي سمعتها. كنت أريد التحقّق من أنني حفظت كل ما قيل، كي يتسنى لي تدوينه حرفياً من دون أي خطأ.

لقد باح لنا أغاممنون، وبكلمات بسيطة، بسرٍّ، أجل بسرٍّ، لن تعود الأمور من بعده مثلما كانت من ذي قبل. لا البشرية، ولا كوكب الأرض، ولا التاريخ، ولا حياتنا اليومية.

قالت جارتي فجأة: «أنا بحاجة إلى المشي في الخارج، قرب البحر. هل ترافقني؟».

قصدنا تلك الناحية من الشاطئ التي يُطلق عليها هنا اسم «الرمال البنفسجية»، لأن طحلباً من هذا اللون يأتي ويستقر فيها أثناء حركات المد الكبرى. والمنحدر، حيث نحن، من ألطف ما يكون في هذه البقعة، فمضينا في سبيلنا بعيداً بالقدر الكافي للقاء المحيط. كانت إيف تسير مثل الماشية في نومها، متسربلة في الصمت، غارقةً في التأمل، إنما بخطى مبتهجة، تتقدم أحياناً بوثبات مقتضبة. إنها نشوة يبلغها الإنسان لدى تنشق مواد أخرى غير هواء البحر...

واصلت جارتي السير بالوتيرة نفسها لدى وصولها قرب الماء. أمسكتها من ذراعها، لكي أعيدها بحزم إلى الخلف، فانصاعت. لم يكن مزاجها انتحارياً، بل منتشياً فقط، يكاد يكون منتصراً؛ ولكن المحيط لا يأبه لحالتها النفسية، ولكان ابتلعها بالقدر نفسه. لقد شهد كل شاطئ من شواطئ أرخبيل الشيرون سبّاحيه من المتهورين والجسورين، ولا يملُّ البحارة المتقاعدون في حانة القبطانة تعداد أسمائهم والظروف التي قضوا بها.

فأمسكتُ بها بيدي، وأرجعتها أكثر إلى الخلف، نحو مسالك مسيَّجة بالسرخس القزم وأشجار التوت البري، فراحت تدور حول نفسها مثل طفلة ترتدي ثوباً مزهراً، وتتعثر خطاها أحياناً. أمسكتها بيد حازمة، ولم أتركها. لم تحاول بدورها الإفلات من قبضتي، وكانت أصابعها متشبثة بأصابعي، ورأسها يأتي بين الحين والآخر ليرقد فوق كتفي، وخصلات شعرها تتطاير أمام عيني.

عندما رافقتها إلى بيتها، دعتني بكلمة مقتضبة إلى الدخول؛ ثم، ومن دون أن تنتظر جوابي، أضاءت كل أنوار البيت.

«اجلس قليلاً، لن ندع هذه الأمسية تنتهي. سأحضر شمبانيا».

للاحتفال بماذا، بحق السماء؟ ما علمت به اليوم يدفعني إلى التأمل، لا إلى الانغماس في المسرات. أحتاج إلى التفكير بهدوء في مستقبلي، مستقبلنا جميعاً، وموقعنا في العالم.

يتضح أن حقبة جديدة تُستهل لا أعرف عنها شيئاً، لكأنه قد حُكم عليَّ بالنفي رغماً عني إلى قارة أجهل حتى وجودها. ماذا سأجد فيها؟ ليس لدي أدنى فكرة! ولست أدري بالتأكيد إذا كان يجب أن أصفق ابتهاجاً أو أتفجع حزناً».

وعلى الرغم مما قلت، لم أكن لامبالياً في هذه الأمسية بمزاج جارتي، وكنت أحتضنها بنظرتي ببالغ التسامح الأخوي، وغير راغب في إفساد فرحتها التي قلَّما تغمرها. ورفعتُ كأسي. ففي نهاية المطاف،

لدينا سبب، سبب واحد على الأقل، للاحتفال. وقلت، بكل المرح الذي كان بإمكاني أن أتظاهر به:

«نخب بقائنا على قيد الحياة! هذا المساء، كنا سنكون في عداد الأموات، أنا وأنت والملايين غيرنا، لو اندلع ذلك النزاع السخيف!».

كانت إيف قد رفعت متأهّبة كأس الشمبانيا، المترعة والفوّارة، وقد نهضت عن أريكتها. ولكنها لم تدنِها من شفتيها. لقد ظننت أنني انضممت، على هذا النحو إلى فرحتها، ولكن هذا لم يحصل، فقد فسد الجو. أخفضت ذراعها، وتجهم وجهها، ثم تحوَّل عن المدفأة، حيث توهجت جمرات باقيات. وعندما رفعت من جديد كأس الشمبانيا، لم توجهها صوبي، بل اكتفت برفعها إلى فوق مستوى رأسها، لنفسها فقط.

«أنا أشرب نخب شيء آخر. لا أشرب لأن البشر قد أنقذوا، وليس لأنه قد كتبت لهم النجاة، مرة أخرى، بالرغم من جنونهم. إنني أشرب وأفرح لأن البشر صادفوا أسيادهم أخيراً! أشرب نخب أصدقاء إمبيدوقليس! ها هي صفاقة البشر كلها تُمرَّغ في التراب!».

وارتقت بقدميها الحافيتين المنضدة، وكأسها أمام شفتيها مثل المجهار، لتخطب في جمع متخيَّل:

«كنا نعتقد أننا ملوك الكون، أعلى قمم الخليقة، إيفرست الخليقة. نحن، وماضينا المجيد، وعلمنا العظيم، وأدياننا المهيبة...».

وأفرغت كأسها بجرعة واحدة، قبل أن تتابع كلامها:

«وحتى عندما كنا نقول إن حضاراتنا فانية، كنا ننجح في التحلي

بالتبجح والصفاقة! كنا مقتنعين بأننا صنعنا التاريخ. ويتبين أننا لم نخرج حتى من عصور ما قبل التاريخ!».

وناولتني كأسها، لكي أملأها. شربتُ مجدداً معها، من دون أن أنبس ببنت شفة.

«لكنا أقل تكدراً لو كان الآخرون أشدَّ بأساً فحسب. ولكنهم أفضل حالاً منا! أفضل منا في كل شيء! أكثر حريةً، وأكثر فضيلةً، وأكثر نقاوة!».

وما أدراها؟

«ومعتقداتنا؟ وتقاليدنا؟ ودرايتنا؟ إنني على يقين بأنهم يهزأون بها مثلما نسخر سراً من طقوس الشعوب الأصلية!».

فقررتُ أخيراً الخروج عن صمتي لأقول لها:

«ولكن يا جارتي الغالية، ما أدراك؟».

التفتت نحوي بدهشة مذعورة، وكأنني آخر إنسان في العالم لم يعلم، ولم يفهم. وحكت لي مجدداً، على طريقتها، القصة التي حكاها لنا الملَّاح منذ قليل.

«في يوم من الأيام، منذ عهود سحيقة جداً خلت، انقسم البشر. بعضهم رحل، مثل مهاجرين ذهبوا لإقامة مدينة جديدة، وبقي الآخرون. ومنذ ذلك الوقت، توجد بشريتان متوازيتان. إحداهما تعيش في النور، ولكنها حاملة للظلمة، والأخرى تعيش في الظلمة، ولكنها حاملة للنور. وقد سلكت كل منهما سبيلها الخاص، وبوتيرتها الخاصة...».

القصة نفسها، السر المكشوف نفسه، التي أعادت جارتي الروائية ترتيبها وتأويلها وتجميلها. ولكن إيف كانت ترويها وكـأنها أحداث حقيقية، مدوَّنة منذ الأزل في كتب كنت الوحيد الذي لم يقرأها.

قد تكون محقة... غير أن الشكوك تتنازعني. فما هي تلك البشرية الأخرى؟ وأين تعيش؟ وأين منازلها ومصانعها ومختبراتها؟ ولماذا لم نفطن قطّ لوجودها قبل مطلع الألفية الثالثة؟ اخترت أن ألوذ بالصمت لأنني لا أستطيع الموافقة على ما قالته، إنما من دون أن تتوافر لدي الحجج لمعارضتها. وراحت جارتي في هذه الأثناء تواصل على المنوال نفسه.

«مضى أصدقاء إمبيدوقليس قدماً من دون أن يخوضوا في خلافاتنا، ومن دون أن يلتهوا بمعتقداتنا السخيفة. وإنهم اليوم يسبقوننا بأشواط كثيرة، في جميع ميادين المعرفة، وكذلك في فن السعادة... إنني أريد أن أشرب نخبهم! نخب إخوتنا الذين استرجعناهم!».

تعبتُ من مجادلتها، فشربت النخب مسايرةً لها. أفرغنا زجاجة، ثم زجاجتين، وإن لم أشرب من كل واحدة سوى ربع ضئيل. وما كان ليخطر ببالي أبداً أن امرأة قانطة مثلها تحتفظ بكل هذه الكمية من الشمبانيا!

«فلنشرب نخب إمبيدوقليس!».

لم أكن ممتعضاً لرؤيتها تظهر هذا القدر من البهجة والحماسة. وشربتُ معها نخب كل من تشاء. غير أن أفكاري كانت ترتحل في ثلاثين اتجاهاً مختلفاً. تستميلني كلمات إيف أحياناً، وأتبناها، ولكنت

تفوَّهتُ بها عن طيب خاطر؛ ففي نهاية المطاف، إذا اخترت الانعزال في جزيرتي، فبسبب ريبتي مما آل إليه مصير العالم. غير أنني كنت أتريث في لحظات أخرى: فإذا افترضنا أن «أبناء وطن» أغاممنون وديموستينس ما هم عليه في الظاهر حقاً، في منتهى البأس والكمال، بشرية متفوقة بوضوح، ماذا سيحلُّ بنا، أنا ومعشر قومي؟ هل نصبح سكاناً أصليين مشاكسين، معزولين في محمياتنا، محاصرين بالأسلاك الشائكة؟ فصيلة أدنى مرتبة، مسودة أخيرة للخليقة سينكبُّ عليها غداً علماء الآثار وعلماء الحفريات والباحثون عن كل الغرابة؟ ماذا سيحلُّ بعلومنا ولغاتنا وأدياننا وأساطيرنا وأبطالنا وكل تلك الأمور التي نفخر بها والتي تلهب ذاكرتنا؟ كيف سيُقدَّر لنا الاستمرار في العيش عندما لن نعود نعتزُّ بأنفسنا؟ وقلت لنفسي إن لدينا عيوبنا، بل ونحن لا نطاق في كثير من الأحيان، ونحن مجرمون، وبرابرة. ولكن هذا ما نحن عليه!

وباستعادة التشبيه الذي قمت به قبل يومين: لو كنت رساماً من شعوب الأزتيك، وكان أحد أصدقائي مستشاراً مقرَّباً لموكتيزوما، فهل سأستبشر خيراً بتقدم الإسبان، وفعالية أسلحتهم، وحذاقة غزاتهم؟

لم أصارح إيف بكل ذلك. لن تصغي إليَّ لشدة ما اتَّقدت عواطفها، وبخاصّة في نهاية السهرة، لشدة ما ثملت. والحق يقال أيضاً إنني فقدت، خلال هذه السنوات الطويلة من العزلة، عادة المماحكة والرغبة فيها. ففي ذهني أناقش، وفي رسومي أزعق، وأبتهج أو أعاند.

أثناء وجودي عند جارتي، انزويتُ بضع لحظات في الحمام لإرسال رسالة نصية إلى مورو، وطلبت إليه الاتصال بي في أقرب فرصة، لموافاته بما توافر لدي من معلومات.

لم يرد على اتصالي إلا قرابة منتصف الليل، معتذراً، فلقد أمضى النهار بطوله في الأجواء.

أبلغني، محاولاً أخذ المسألة على محمل الهزل: «سمح لنا الأوصياء السمحاء علينا بمغادرة سانتياغو للعودة إلى واشنطن». وبالرغم من المذلة، كان يشعر بالارتياح. «لم يعد هوارد يطيق البقاء في الخارج. لا أدري إذا لاحظت ذلك، فلقد أغفل بعناية في كلمته التي توجَّه بها، يوم الأربعاء، إلى مواطنيه، أن يذكر بأنه يخاطبهم من شيلي؛ فقد شعر بأن ذلك سيوقعهم في حيرة وبلبلة. وعلاوة على ذلك، يتطلب وضعه الصحي رعاية يومية لا سبيل لتوفيرها على نحو ملائم إلا في جناحه في البيت الأبيض».

«هل «هم» حظَّروا عليكم المغادرة حتى ذلك الحين؟».

«ليس صراحة. ولكنك تُدرك أننا لن نصعد إلى الطائرة الرئاسية إذا كان انقطاع الاتصالات مع المطارات أمراً محتملاً. وعندما طلبنا البارحة إلى ديموستينس إذا كان يضمن أن الرحلة ستقلع من دون عراقيل، اقترح ببساطة أن يصعد بنفسه على متن الطائرة، ما شكل، في الواقع، أفضل ضمانة ممكنة».

«وهل ركب الطائرة معكم؟».

«أجل، سأحكي لك ما جرى... ولكن أفرغ أولاً ما في جعبتك».

فنقلتُ إليه حديثي مع الملّاح، وحاولت ألا أنسى أي تفصيل. تركني مورو أفرغ جعبتي، من دون أن ينبس ببنت شفة؛ غير أنني أحسست لدى سماع تنفسه أنه كان منبهراً. وعندما انتهيت، كافأني بصرخة تعجب مدويّة، «واو!»، على الطريقة الأميركية.

«كل ما قلته لي تقريباً يا ألك لم أكن قد سمعت به قطّ حتى هذه اللحظة. فمع ديموستينس، اقتصر كلامنا على الاستراتيجية والملف النووي ونزع السلاح. لم يسأله أي منا عن أصوله، ولم يتطرَّق بدوره إلى الأمر على الإطلاق. لم أسمعه سوى مرة واحدة، في معرض حديثه، يذكر اسم إمبيدوقليس».

«كان ذلك على متن الطائرة. استطعت الجلوس بجانبه لمدة خمس دقائق في بداية الرحلة. ولا داعي لأن أقول لك إن معظم أفراد الوفد كانوا يطمعون بالجلوس في هذا المقعد. واستهلالاً للحديث، قلت له، بدافع اللباقة قليلاً، ولجسِّ نبضه قليلاً، إنني أود كثيراً زيارة بلده لدى انتهاء هذه الأزمة. فابتسم لي قائلاً: «ولم لا؟ هل تحب الرحلات الطويلة جداً؟». أجبته: «أجل، إنها لا تخيفني». «وماذا عن الرحلات القصيرة جداً؟». شعرت بأنه يسخر مني بلطف، ولكنني أجبت رغم ذلك:

«لا أكرهها كذلك». «في هذه الحالة، ستكون على الرحب والسعة في بلاد إمبيدوقليس». سألته: «أتعني في صقلية؟». فضحك. «أراضينا

في صقلية مثلي، وأنا يوناني». وصافحني. وكانت سينثيا، السيدة الأولى، واقفة في الممر بقربنا، ويبدو أنه قد عيل صبرها. فنهضتُ، وجلستْ هي مكاني».

يأخذ مورو الأمور بخفة دم وأناقة، كعادته؛ ولكن من الواضح أنه في حيرة من أمره.

في نهاية هذا اليوم الطويل، أعيد قراءة الصفحات التي كتبتها، وكل الكلام الغريب الذي اضطررت لتدوينه، ولا أدري ما هو موقفي. لقد رُويت لي حكاية جميلة، جمالها يفوق الخيال. لعلها خرافة...وفي المحنة التي أجد نفسي فيها، إنني أرغب في تصديقها، وإن اضطررت لإسكات صوت العقل في داخلي.

وبالتالي، البشرية مزدوجة... والأرض خشبة تدور عليها مسرحيتان متزامنتان، الأولى في الظاهر، والثانية في الباطن؛ الأولى تتسم باللاوعي، وهي سيرتنا؛ والأخرى تحمل في طياتها الحكمة والخلاص، إنما تنطوي كذلك، بالنسبة إلى قومي، على الانحطاط. فهل يجدر بي، على غرار جارتي، الاحتفال بشرب الشمبانيا؟ ألا يجدر بي بالأحرى أن ألبس ثوب الحداد؟

في الوقت الراهن، إنني أتحفظ عن إبداء رأيي.

السبت ١٣ تشرين الثاني

في جزيرة أنطاكية، كثيراً ما يهطل المطر طوال الليل، لتنجلي السحب الخاوية في الصباح ويعود الضياء. تلك هي لباقة السماء الأطلسية.

في الليلة الماضية، حلَّ المطر في ساعة متأخرة، ثم تطفَّل على مطلع الصبيحة. ومع ذلك، كانت الشمس حاضرة، قرابة الساعة الحادية عشرة، لا تشيع الكثير من الدفء ولكنها تسطع على الجدران المطلية بالكلس فتجعل قطيرات الماء وبركه تتلألأ.

أيقظني رنين الهاتف. كانت ربيبتي، أدريان، ترد على رسالتي، معتذرةً عن تأخرها. لقد أمضت في المستشفى ثلاثة أيام وثلاث ليال، وسط أجواء محمومة. توفي ثمانية أشخاص في القسم الذي تعمل فيه منذ يوم الثلاثاء لأن انقطاع الاتصالات قد حال دون إسعافهم في أوانه.

وعشيرها شارل، وهو مثلها طبيب في قسم الطوارئ، ناقم على الدنيا؛ أما هي فتأخذ الأمور بحكمة. قالت لي: «إذا كان ما جرى قد جنَّبنا الكابوس النووي، لن يكون هؤلاء المساكين قد ماتوا سدى!».

بعد أن أنهيتُ المكالمة، قفزت من الفراش، ولبست بنطلون الجينز، وأعددتُ ترمس القهوة، ثم جلست إلى طاولة الرسم. منذ أربعة أيام، لم أخطَّ خطاً واحداً، ولم أشأ الاستسلام للخمول. لم يتوقف الوقت، إنه معلَّق فقط. وعاجلاً أم آجلاً، ستعود الصحف للصدور، ورقياً أو إلكترونياً؛ ويجب أن أزوِّدها بالرسوم مثلما كنت أفعل من قبل. ففتحت دفتر الرسم على الصفحة الأولى البيضاء. ثم قبضتُ على قلمي الرصاص الثخين. فمن خلاله، تأتيني شرارات الإلهام. غطاؤه المفضَّض يجتذبها مثل مانع الصواعق.

وفجأة، خيَّم الصمت. كان الصمت يخيِّم بالفعل، ولكن الصمت ينطوي على مستويات من الارتفاع وطبقات من السماكة. وسأكون عاجزاً عن تحديد سبب إحساسي باختلاف هذا الصمت. فضغطتُ على زر مذياعي: من جديد، ذلك الصفير المنتظم...

اللعنة! ها نحن نعيد الكرة!

لم أطل التفكير، فهرولت إلى المرأب، وامتطيت دراجتي الهوائية، ورحت أقودها، بخطوات ساخطة وكبيرة، باتجاه ممر الـ«غواي». كان يجب أن ألتقي الملاح، والإعراب له عن غضبي، وأن أحمله بالأخص على الإفصاح عن سبب «معاقبتنا» مرة أخرى.

يا الله كم ينتشي المرء وهو يقود الدراجة هكذا على صفحة المحيط! إنه إحساس بالنشوة، إنما كذلك بالسكينة. ذلك اللون! رائحة الطحالب تلك! تلك المساحة الشاسعة القريبة! سمفونية تلاطم الأمواج تلك! تتبلَّل ُكل هموم الأرض، وتتحلَّل، ثم تغرق. واضطررت إلى التماسك كي لا يتلاشى كل غضبي في الطريق!

لم يكن أغاممنون في بيته، وقاربه ليس في المكان الذي يركنه فيه عادة. ضغطتُ على الجرس، قرعتُ الباب بيدي، أدرتُ الأكرة. فتح الباب. دفعته ودخلت، وأنا أنادي: «أغام!». ثم تتابعت الأحداث، من دون أن أخطّط للأمر مسبقاً، فوجدت نفسي أتفحص الرفوف، والخزانات، والجوارير، والصناديق، وأنقِّب تحت الطاولات، وتحت السرير، وفوق خزانة الثياب. بحثاً عن ماذا؟ عن شيء ما – جهاز، صورة، كتاب، بطاقة، تمثال صغير- يحمل رمز بلد إمبيدوقليس. لم يسبق لي في حياتي أن تصرفتُ على هذه الشاكلة. والحق يقال إنه لم يعترني كذلك مثل هذا القلق قطّ من ذي قبل.

لم أعثر على أي شيء في بيت الملَّاح. لا شيء يدلُّ على «وطنه» الأصلي. ومذياعاه البحريان، بالرغم من هيئتهما الطليعية، وبعد التحقق، تبين أنهما مصنوعان «عندنا»، إذا جاز لي القول، لأن أحدهما صنع في الدانمرك، والآخر في كوريا.

ثم ذهبتُ في جولة باتجاه بور-أتلانتيك. لا شيء يستحق الذكر هناك أيضاً. كانت الصالة في حانة القبطانة تعجُّ بالزبائن، كالعادة.

الزبائن المعتادون – غوتييه، أنطونان العجوز، والآخرون. كانوا فقط أقل صخباً، أكثر تهامساً. استقيتُ منهم حزمة من الأسئلة المتوقعة، ولم أحصل على أجوبة بتاتاً.

تسري بعض الإشاعات همساً، أُفضِّل عدم نقلها. ما الفائدة؟ عما قريب، سأتلقى معلومات يمكن التحقق منها. ربما يجدر بي أن أشير إلى أن بحاراً شاباً أهمل حلق ذقنه، يصافحني أحياناً ويرفع معي الكلفة ولكني أجهل اسمه، اقترب مني وسألني، بسيجارته التي تتدلى من فمه، إذا كنت لا أشاطره الانطباع بأن «ملَّاحنا» شخص مريب. أصاخت الآذان السمع من حولنا، فأجبته بحذر أن أغاممنون لطالما تراءى لي شخصاً شريفاً وخدوماً. واكتفيتُ بهذا القدر، فابتعد الشاب، ولم يُعلِّق الآخرون. وبعد تثاقل الجو في الحانة، لم يرقني البقاء فيها فانصرفت.

في وقت متأخر من عصر اليوم نفسه، قصدتُ بيت جارتي. كانت تعتقد، مثلي، أن أموراً خطيرة تحدث، اليوم أيضاً، في سائر أنحاء المعمورة، ولكنها تعجز مثلي عن تحديدها. ولكن هذا الأمر لا يقضُّ مضجعها، وظلَّ وجهها يتهلَّل بابتسامة الضحية التي انتقم لها، أو السجينة التي أفرج عنها قبل انتهاء محكوميتها.

أصرَّت على استبقائي على العشاء، وأكدت لي أنها لن تكابد عناء في إعداد الطعام، وأن الوجبة ستكون شديدة التقشف. في الواقع، اكتفت بفتح مرطبان من سمك التونة المحفوظ، وهو من المأكولات

التي يشتهر بها الأرخبيل، وزجاجة من النبيذ الأبيض من منطقة ما بين البحرين في بوردو. ولكنها أعلنت، بشقاوة الطفلة، لحظة الانتقال إلى المائدة، وقد انتصبت متأهبة مثل منادي القصر:

«عشاءٌ بحري على ضوء الشموع!».

عندما يتحول الحرمان إلى امتياز...

إنها المرة الأولى التي أتناول فيها العشاء إلى مائدة إيف، ولكنها ليست المرة الأولى التي أتقاسم معها وجبة طعام.

عندما أفتقر إلى الصبر الكافي لإعداد الطعام، وهذا ما يحصل لي في كثير من الأحيان، أتصل عادة بالمطعم الوحيد في الأرخبيل الذي يحمل اسم سمكة الدينس الدلفينية، ويقترح دائماً سبع وجبات مختلفة أو ثماني. كانت اللافتة التي تعلو واجهته متكلِّفة، ولكني لا ألومه، فكل ما يقدِّمه شهي الطعم ويتميز بطابع طازج لا غبار عليه. ففي كل مرة، أتردَّد. وتهمس لي زوجة الطباخ، بصوتها المغري: «سمكة القاروس المصطادة بالصنارة أم لحم الضأن المنقوع مع الفاصولياء البيضاء؟». وعندما أهمُّ بحسم أمري، تضيف قائلة: «أو ربما الربيان بالصلصة الأرموريكية...». وللتغلب على ترددي، أسألها: «وجارتي، ماذا اختارت؟». فأختار ما اختارته مرتين من أصل ثلاث مرات. ويأتي الساعي نفسه لتسليم وجباتنا ساعة الجزر، ونتذوَّقها، كل منا على انفراد إلى مائدته...

قد تبدو حياتي كئيبة، كما وصفتها. ولكن المرء الذي يقدِّس مثلي، الصمت والسكينة، إلى حد الرغبة في العيش والرسم في جزيرة

شبه مهجورة، لا يرى في هذه الرتابة أي حزن، وأي ندم، وأي مرارة.

ففي نهاية المطاف، ماذا يحتاج الإنسان حقاً؟ إذا كان يتمتع بموفور الصحة وبوصلة موثوقة بشبكة الإنترنت، لا تكتسب بقية الأمور أهمية. لن أذهب إلى حد القول، على غرار ذلك الفيلسوف الوجودي، إن الآخرين هم الجحيم؛ ولكنهم ليسوا الجنة كذلك.

وعلى أي حال، انشرح صدري بصدق، هذا المساء، لوجودي برفقة إيف، وإن كانت قائمة الطعام ليست على مستوى الأكلات التي يتفنَّن عادة طباخنا المشترك في إعدادها...

لم يقتصر حديثنا خلال العشاء على الأحداث الراهنة، فاسترسلت في الحديث مع جارتي عن والديَّ وعن أصولي، وعن الأسباب التي حملتني على مغادرة مونتريال والانتقال للعيش في جزيرة أنطاكية؛ ولقد حدثتني بدورها عن والديها، وعن دوافعها للمجيء إلى هذا المكان. كانت والدتها مغنية أوبرا نصف إيرلندية ونصف جامايكية، نالت نصيبها من الشهرة ولكنها عاشت كذلك فترات طويلة من الإحباط والإقامة في المصحات. وكان والدها طياراً أصله من تولوز. كان كثير الترحال بالضرورة، ولا شك أنه يحتفظ بعشيقات كثيرات في استراحاته. ولقد أمضت إيف طفولتها تنتظره؛ وعندما قالت لي ذلك، تنهدت تنهيدة مديدة، وكأن المسألة ما زالت تضايقها حتى بعد مرور ثلاثين عاماً.

كلما سافر القبطان سان-جيل من أوروبا إلى أميركا، كان يحلِّق

عمودياً فوق جزيرتنا، وكثيراً ما يذكر بتشوُّق «تلك الحصاة الوردية الموصولة بالساحل بخيط من فضة». وعاهد نفسه على أن يحطَّ فيها يوماً، وهو حلم لن يُقدَّر له أن يحققه أبداً ولكنه أورثه لابنته، مثلما أورثني والدي حلمه عملياً... وبحكم هذا «الحلم المتوارث»، فإن مساري ومسار إيف، بالرغم من اختلافهما، يتشابهان بهذا القدر أو ذاك في نهاية المطاف.

تكلمت جارتي هذا المساء بهدوء لم أعهده فيها منذ سنوات. فلقد صالحها ظهور «أصدقاء إمبيدوقليس» المباغت مع ماضيها، ومع روايتها التي ظلَّت يتيمة، والتي نفرت منها طويلاً، وأحبتها مجدداً منذ أن سمعت اقتباساً منها بإجلال من فم أغاممنون البارحة.

ويبدو لي، من ناحية أخرى، أن رد فعل إيف إزاء الأحداث الجارية يُخلِّف كل يوم أثراً أعظم على مواقفي الشخصية، ويزيدني تسامحاً وتفهماً حيال «المشرفين علينا». ومع أنني لا أوافق على كل ما تقوله، ومع أنني أصوِّب كلامها، وأنتقدها، وأسخر منها قليلاً؛ فالمرح الذي استعادته يخفف من ريبتي نحوهم كما لو كنت سأفعل لو أطلقتُ لنفسي العنان.

ومن دون وجودها كعرَّابة، كيف كان بوسعي الاحتفال، وسط البهجة، رافعاً كأسي، بزوال تاريخنا ونهاية حضارتنا؟

غلبني النعاس، وها قد نهضتُ مرة أخرى وأشعلتُ الشمعة ثانية

لاستئناف كتابة هذه اليومية. فثمة موضوع آثرتُ التكتم حوله وأشعر الآن بحاجة لذكره من دون مماطلة: هذا المساء، خالجتني رغبة عارمة في قضاء الليلة مع إيف، ويبدو لي أن الأمر هجس في صدرها كذلك؛ فلقد بدرت منها، طوال الوقت، نظرات، وإيماءات، وتلميحات...

ما من شك في أنني أشعر كل يوم بأنني أقرب إليها، منذ بداية الأحداث الجارية، منذ زيارتي الليلية الأولى إلى منزلها البارد بلا إنارة. ويُستشفُّ تبدُّل موقفي بالضرورة من خلال يوميتي، وكذلك حقيقة مشاعري التي تذهب حتى أبعد من ذلك. ولقد سبق لي أن وصفت جارتي بأوصاف بعيداً عن الإطراء، بل وتنمُّ عن الازدراء صراحةً، غير أنني أنظر إليها اليوم من منظور مختلف كل الاختلاف. لن أعود إلى الوراء لتنقيح نصي، وشطب عبارة «ذبلت قبل الأوان» وألفاظ أخرى مشؤومة كتبتها عنها، فذلك سيكون مجرد تزوير خسيس. والطريقة الشريفة الوحيدة لتصويب أخطائي في التقييم هي بأن أكتب بتاريخ اليوم أنني لم أعد أنظر إلى جارتي على الإطلاق النظرة نفسها. لا أدري إذا كانت تجاعيدها قد امحت، ولكني ما عدت ألاحظها، وانتفت أهميتها عندي نهائياً. فالحقائق التي صارحنا بها أغاممنون قد «بدَّلت هيئة» إيف سان-جيل بالمعنى الحرفي للكلمة، وبدَّلت تماماً نظرتي إليها. وحتى عندما لا أشاطرها آراءها، فإنني أتأملها من الآن فصاعداً بمودة، وبحنان. ومن ثم، فقد كنت بشوق هذا المساء إلى أن أضمها بشدة بين ذراعيَّ.

لماذا أحجمتُ عن القيام بذلك؟ لأن هاتفاً داخلياً كان يعظني

طوال الوقت: إذا تركتُ الساكنة الوحيدة الأخرى غيري في الجزيرة تدخل حياتي، فوداعاً لسكينتي الملكية! فإذا ما ساءت الأمور بيننا ولو بمقدار ذرة، ستصبح الحياة في أنطاكية جحيماً، وسيضطر أحدنا إلى الرحيل- أنا، على الأرجح. فهل أنا على استعداد لخوض هذه المجازفة؟

هذه المعضلة التي اعترفت بها الآن بهذه الصراحة، تجعلني أبدو مثل شخص يحسب حسابات باردة، ولا يكترث لما يحلو لمعشر قومي أن يطلقوا عليه اسم «سحر الغرام». وأنا لستُ كذلك. غير أنني على استعداد، والحق يقال، لبذل كل التضحيات ومقاساة كل الآلام لصون وحدتي، في هذه الأرض المباركة.

الأحد ١٤ تشرين الثاني

البارحة، لم يتوافر لدي سوى نزر يسير من المعلومات عما يجري في أرجاء المعمورة، فاضطررت إلى تدوين أبسط تنقلاتي وقائمة العشاء على ضوء الشموع في مفكرتي، بل وحتى اختلاجات مشاعر الرجل الذي طالت عزوبيته. واليوم، تلقيت بعض الأخبار، إنما بالقطَّارة فحسب. فالأعطال أصبحت تحصل بصورة متقطعة، ومتقلبة، وعبثية. المذياع يشتغل خمس عشرة دقيقة، ثم يتوقف لمدة ساعة، ثم يشتغل مجدداً، ثم يتوقف مرة أخرى. أما الهاتف والإنترنت فأسوأ حالاً: الشبكة تعمل دقيقة من أصل دقيقتين، ما يفقد أكثر المشتركين فيها تحلياً بالهدوء، صوابهم.

أيكون الأمر تعذيباً خفياً اخترعه «الأوصياء علينا» لمعاقبتنا؟ إنني أرى فيه، الأحرى، استعراضاً للقوة يهدف إلى إبهارنا، وترهيبنا،

وإخضاعنا. إنهم يريدون أن يظهروا لنا بأنهم يتمتعون بالقدرة على تعديل العقوبات على هواهم، وكأن في متناولهم خريطة فلكية شاسعة لنصف الكرة السماوية يستمتعون فيها، هنا بإطفاء الأنوار، وهناك بإشعالها مجدداً؛ هنا يمنعون الأحاديث، وهناك يجيزون مواصلتها...

وفي الواقع، - لم الإنكار؟ -، إنني منبهر. غير أنني أشعر بنفسي مهاناً بالأخص، وقلبي يعتمل بنقمة لم أعهدها فيه من قبل.

في هذا السياق الحافل بالقلق، لا أدري حقاً أي مغزى أضفيه على الكلمة المتفائلة، المفرطة في التفاؤل، التي توجَّه بها اليوم الرئيس هوارد ميلتون، وهي مداخلته الثانية منذ اندلاع الأزمة. سبق صوته الضعيف إعلان مقتضب، يُحدِّد بوضوح، هذه المرة، أنه يتكلم «من البيت الأبيض».

«أيها المواطنون الأعزاء،

توجهت إليكم يوم الأربعاء الماضي لإطلاعكم على الوضع المستجد الذي علينا مواجهته. ومنذ ذلك الحين، اضطررنا للتعاطي مع ممثلي القوة المتدخلة. لم تكن المناقشات دائماً سهلة، ولكننا استطعنا تجاوز هذه المحنة بفضل انتهاج موقف يقوم على الصراحة والكرامة والاحترام المتبادل. وفي هذه اللحظة، تبدو لي السماء أقل اكفهراراً».

«خلال هذه الأيام من المحادثات، تطرَّقنا مطولاً إلى الوضع المقلق الناجم عن تكديس الأسلحة النووية والمواد الانشطارية

الإشعاعية. ففي الوقت الراهن، لا يمكن إبطال مفعول هذه الأسلحة والمواد بفعالية، ويعتقد علماؤنا أنها يجب أن تُخزن، في حالة غير مأمونة، لوقت غير محدود عملياً. وفي عدد من المواقع بالولايات المتحدة، تُكدَّس مواد بالغة الخطورة بكميات هائلة، وكثيراً ما تساءلت ماذا سيحصل لو أقدم أشخاصٌ مغرضون، أو مجموعات من المتطرفين، على سبيل المثال، أو أفراد مختلون، أو كذلك أشخاص يُسيِّرهم الجشع، بتفجير سلاح فتاك في أحد مواقع التخزين تلك. وفي أماكن أخرى من العالم، لا سيما على أراضي الاتحاد السوفياتي سابقاً، تُكدَّس أسلحة ومواد إشعاعية في ظروف مثيرة للقلق. وتوجد مواد خطرة أخرى بين أيدي أشخاص معروفين بتهوُّرهم».

«وأثناء مناقشاتنا مع ممثلي القوة المتدخلة، ترسخ لدينا الاقتناع بأنهم لا يضمرون لنا أي عداء، وأنهم، على العكس، لا يكنون سوى الاحترام لبلدنا، ومبادئ دستورنا، وأسلوب عيشنا، وأنهم يعترفون بمكانتنا البارزة بين الأمم. وترسخ لدينا الاقتناع أيضاً بأن بحوزتهم تكنولوجيا تتيح معالجة المواد الإشعاعية بشكل ناجع، بحيث يُحيِّدَ مفعولها سواء عن البشر أو عن البيئة».

«أيها المواطنون الأعزاء،

«كان تطوير الأسلحة النووية، خلال حقبة من تاريخنا، شراً لا بد منه. لطالما علمنا أنها طاقة محفوفة بالمخاطر، وتنطوي على الشر،

ولكن كان لزاماً علينا أن نضع حداً للحرب العالمية الثانية، وأن نواجه فيما بعد خطراً جديداً، هو خطر الشيوعية. واليوم، أسوأ الأخطار التي تحدق بحضارتنا تأتي بالتحديد من انتشار الأسلحة النووية التي قد تقع بين أيد مجرمة، كما ثبت لنا في الآونة الأخيرة. فهذا الوحش الذي أفلت، والذي أصبح عصياً على الترويض، من الأهمية الملحة بالتالي أن يقاد مجدداً بحذر إلى قفصه، ليحبس فيه إلى الأبد».

«لقد وعدنا الأصدقاء الذين وضعتهم العناية الإلهية على طريقنا بأنهم سيتولون هذا الأمر خلال الأيام القادمة. وبموافقة حكومة الولايات المتحدة، وفي إطار احترام مؤسساتنا، سيقومون بتطهير شامل، يهدف إلى تخليص كوكبنا من كل سلاح، وكل أداة، وكل مادة قد تهدِّد بقاء الجنس البشري».

«وأود أن أطلب رسمياً في هذا المقام إلى جميع أفراد قواتنا المسلحة، لا سيما المتمركزين منهم في مواقع حساسة، وإلى جميع أبناء وطننا وجميع الرجال والنساء من ذوي وذوات الإرادة الطيبة في كل أرجاء العالم، بأن يدعوا أصدقاءنا ينجزون هذا العمل الدقيق الذي اتفقنا معهم بشأنه».

«في غضون بضعة أيام، سنكون قد تجاوزنا هذه المرحلة الصعبة، لكي نجد أنفسنا، كما أرجو، في عالم أكثر أماناً، وأكثر سلاماً، وأكثر استقراراً، وفي بيئة أسلم».

«إنني أثق، وأطلب إليكم جميعاً أن تثقوا، أن تثقوا ببلدنا العظيم،

أن تثقوا بقدرتنا على إنجاز أمور رائعة مثل تلك التي أنجزها آباؤنا، أن تثقوا بأصدقائنا، أن تثقوا بالمستقبل».

«بارك الله فيكم!».

«بارك الله في أميركا!».

استمعت إلى كلمة الرئيس ميلتون، وسجَّلتها، ثم سمعتها ثانية. إنه يريد، مثل المرة السابقة، إشاعة الطمأنينة، ولكن ما يلمِّح إليه لا يطمئنني قطعاً. فكيف لا يستشف المرء في كلامه إقراراً بالعجز؟ لا من جانب البلد الذي يتولى فيه مقاليد الحكم فحسب، بل كذلك من جانبنا نحن جميعاً الذين أصبحنا، بين عشية وضحاها، أتباع سيد جديد.

لوددت كثيراً أن أستقي تعليقات مورو. حاولت الاتصال به، ولم أفلح مع أن هاتفي يعمل، ولكن هاتفه لا يستجيب.

لو طلب إليَّ نقلَ انطباعاتي بأسلوبي المعهود، أي بريشة ألك سندر، «أنا الآخر»، فسأنجز ثلاثة رسوم متتالية. في الرسم الأول، سأظهر الرئيس الأميركي في صورة مقرَّبة، بسحنته الشاحبة واقفاً خلف ميكروفون قديم الطراز؛ وفي الرسم الثاني، تتسع المساحة، ونرى ذراعيه مربوطتين بأنابيب، وبكيس مصل؛ وفي الرسم الثالث، تتسع المساحة بقدر أكبر، ويبرز رجل صغير مريض جداً تحاصره ثلة من الجنود الشرسين الذين يصوِّبون أسلحتهم نحوه. فمن الواضح أن ميلتون تكلم وأظهر هذا القدر الهائل من التفاؤل تحت وطأة التهديد.

وفي ضوء ما تقدَّم، أنا لا ألوم صديق مورو إطلاقاً. إنني أتعاطف

معه، بالأحرى، بل وأكنُّ له الإعجاب إلى حد ما. فلا بد من التحلي بالشجاعة والحنكة لتزييف هزيمة أمة وحضارة وتحويلها إلى باعث للأمل.

في المساء، بعد أداء واجبات المؤرخ وكاتب اليومية على أكمل وجه، ثم إنجاز الرسوم التي تحدثت عنها منذ قليل بقلم الرصاص، ذهبت عند جارتي للتعليق على الكلمة معها. لم أجدها في بيتها. ما زال بابها موصداً، وبيتها معتماً. لمحت مصباحاً وحيداً مضاءً، ولكن في الخارج، كما لإنارة طريق العودة. قرعتُ الجرس، وأدرتُ الأكرة، من دون فائدة. ثم ذهبت أتمشى قرب الرمال البنفسجية، على أمل أن أصادفها في المكان الذي ضحكنا فيه معاً، قبل أمس. ولكن لم ألتقيها!

كان القمر متشحاً بغلالة رقيقة من السحب، ولكنه يبدو مكتملاً، أو يكاد، ويغمر ببياضه الأرض وأديم المحيط. تنزهتُ قرب الماء وأنا أفكر مرة أخرى بإيف وبي، بما يجمعنا، بما يفرِّقنا، بلقاءاتنا وبتحفظاتنا، بمعضلاتي غير المشرِّفة كثيراً، وبمشاعري الملتبسة. من المؤكد أنني بشوق دائم لرؤيتها، والاستماع إليها، والبوح لها بألف خاطرة وخاطرة تجول في بالي. وحتى عندما أكون لوحدي، أخاطبها في ذهني، وأتخيلها تجفل، تحتدم أو تعبس.

كنت حزيناً هذا المساء إذ فاتني لقاؤها. وسأتعذب، بلا أدنى شك، إذا لم أعد أراها غداً. غير أنه لا يسعني أن أتجاهل بأنني أصبحت، بعد

كل هذه السنوات التي أمضيتها في جزيرتي، شخصاً مستوحداً متمسكاً بوحدته، وأن هذا هو كذلك حال جارتي. ولذلك، لا أتخيل أن علاقة دائمة قد تنشأ بيننا، أو أي شيء يشبه الحب.

أكتب جملاً مثل هذه الجملة، ثم أخجل. أخجل مما فعلته بي هذه السنوات الهادئة المديدة. أما زلت قادراً على خوض «علاقة دائمة»، أو «أي شيء يشبه الحب»؟ أما زلت قادراً على أن أعيش لقاء، بكل اكتماله، بملء جوارحي، ومن دون أن يصبح على الفور الموضوع ما قبل الأخير من يوميتي؟

لو شئت قولَ الصدق، سيكون الجواب «لا». لا، ما عدت قادراً أن أحب. والمحزن في الأمر، هو أنني لست حتى حزيناً بسبب ذلك. ففي مكان القلب، لدي قنفذٌ فظ، ولا ذنب لإيف في ذلك.

وبالحديث عنها، وعنها أيضاً، لا بد لي من القول إنني أمضيت بقية سهرتي، بعد أن بحثت عنها بلا جدوى في بيتها ثم على الشاطئ، أبحث عن روايتها في مكتبتي، من دون أن يحالفني الحظ كذلك.

سبق لي أن ذكرت غير مرة هذه الرواية، المستقبل لم يعد يسكن على هذا العنوان، التي من المخزي والمعيب أنني لم أقرأها قطّ. ومع ذلك، ففي اليوم الذي تناهى إلي مسمعي، منذ خمسة أو ستة أعوام، أن الروائية تعتزم الاستقرار في جزيرتي، سارعت إلى طلب الرواية، وعاهدت نفسي أن أقرأها من دون إبطاء لكي أتعرف إلى جارتي بشكل

أفضل. غير أنني استشطت غضباً، بعد محاولتي الأولى لزيارتها، عندما لم تكرم وفادتي، فعدلتُ عن فتح كتابها، بل لم أشأ حتى إخراجه من غلافه. ولا أدري حتى الآن تحت أية كومة عديمة الشكل قد دفنته. من المؤكد أنه هنا، في مكان ما وسط فوضى مكتبتي، ويجب أن أعاود البحث عنه فوق رفوفي، تحت الأكوام، في الصناديق، بل وفي السقيفة. في ذلك الوقت، نفرتُ من الرواية بقدر نفوري من الروائية، بل «عاقبتها» كما لو وددت معاقبتها على صفاقتها التي لا سبيل لإنكارها. أما وقد تبدَّلت مشاعري تجاه «الوالدة»، فلا بد من أن تتبدل كذلك تجاه «الوليدة».

ومهما يكن من أمر، إذا كان قد أزف الوقت اليوم وحان موعد الاطلاع على كتاب إيف، فالسبب لا يقتصر على التبدل الحاصل في علاقتي بها. فالأمر يعزى أولاً إلى أن عملها الروائي قد قرأه «أصدقاء إمبيدوقليس» وأعجبوا به، واعتبروه، إذا ما صدق الملَّاح، عملاً رؤيوياً واستشرافياً. وما أن يذاع هذا التقييم الذي أبداه الأوصياء علينا، ستهرع البشرية جمعاء لقراءة هذا الكتاب بحثاً فيه عن بعض المفاتيح، وبعض الأجوبة، وبعض الأسباب الباعثة على الأمل، لا سيما وأنه يتطرَّق، كما فهمت على ما أظن، إلى عالم بموازاة عالمنا، سيكون لقاؤنا به، إلى حد ما، لقاء مع مستقبلنا.

وغداً، سأنقِّب أيضاً، في وضح النهار، وسأعثر عليه لا محالة في نهاية المطاف.

الاثنين ١٥ تشرين الثاني

تتعالى الضوضاء، منذ هذا الصباح، ويسود الهدوء كذلك. الطقس عاصف، والأجهزة بكماء. الموجات الأثيرية «مكمَّمة» بحزم.

لا عجب في كل ذلك. لا رداءة أحوال الطقس التي تتلاءم تماماً مع ما يخصنا به هذا الفصل في هذا المكان في كل عام؛ ولا انقطاع التيار الكهربائي الذي من المنطقي أن يكون «شاملاً»، كما أفترض، إذا كان «التطهير الشامل» الذي تحدث عنه ميلتون جارياً على قدم وساق، وإذا كانت عمليات حساسة تُنفَّذ في مواقع كثيرة لإرجاع «الوحش الكاسر» إلى قفصه.

إنني أتفهّم أن نُتركَ فريسة التعتيم. ولن يحول ذلك دون تذمري كلما فتحتُ المذياع، بحركة غريزية، وصادفت مؤشر الأعطال أو إعادة بث للنداء الذي وجَّهه رئيس الولايات المتحدة، مرة أخرى، كي يبادر

أبناء بلده وبناته، من مدنيين وعسكريين على السواء، بتيسير مهمة «القوة المتدخلة».

ولحسن الحظ، إيف موجودة! بحثت عنها بلا جدوى البارحة، وها هي قد رجعت. لم تقل لي أين كانت، وحرصت على عدم طرح السؤال عليها. ربما كانت بكل بساطة في بيتها، منزويةً في ركنها، لا تريد لقاء أحد...

وعلى أي حال، لم يتبدل مزاجها قيد أنملة منذ لحظة النعمة الإلهية التي ذكرتها منذ ثلاثة أيام، عندما تركت المجلد الضخم الذي تتصفحه يتهاوى من بين يديها، وتبدّلت أساريرها، إثر ما أخبرنا به الملّاح. فالبريق الذي توهَّج في عينيها في تلك اللحظة لم ينطفئ منذ ذلك الحين. وأنا لا أريده أن ينطفئ، وإن كنت لا أشاطرها الأوهام التي تلهب مخيلتها.

في هذا المساء، كررت على مسمعي، عندما ذهبت لزيارتها، الثقة العمياء التي تمنحها إلى «أصدقاء إمبيدوقليس»، مع أنَّ غرائزي تنصحني بتوخي الحيطة بالأحرى. وهذا لا يعني أنني أرفض موقفها، بل يحثني جزء بكامله من كياني على الإقرار بصواب كلامها.

سبق لي أن كتبت في هذه الصفحات أن رؤيتها للأمور مناقضة لرؤيتي؛ وأن جارتي ابتعدت عن البشر لأنها تمقتهم، في حين أنني ابتعدت عنهم «لكي أحيط بهم إحاطة أشمل». لا يبدو لي التمييز وجيهاً جداً بعد اليوم. فالحكم الذي نطلقه على مسيرة العالم متشابه، وإن أعرب كل منا عنه بمفرداته الخاصة، ووفقاً لمزاجه.

الفرق بيني وبينها يكمن في ناحية أخرى. فإيف، التي هي امرأة، والتي نصفها جامايكي، والتي تكاد تشعر في جسدها بكل أشكال الحيف التي رزحت «أخواتها» تحت وطأتها منذ آلاف السنين، لا تعتبر نفسها ملزمة بأي ولاء لأولئك الذين كانوا يسيطرون على الكوكب، حتى هذه الأيام الأخيرة؛ إنها تعتبر أنها لا تدين لهم بشيء، وأن من حقها، كل الحق، أن تفضل عليهم «أصدقاء إمبيدوقليس».

إنه موقف لا أستهجنه، ولكن لا أستطيع أن أتبناه شخصياً. لا يمكنني على الإطلاق إدانة «البشر» مثلها. فبقدر ما أنظر إليهم بعين ناقدة، وبقدر ما أدرك عيوبهم، لا بد لي من الاعتراف بأنني منهم، وبأن تاريخهم هو تاريخي. أخطاؤهم تخزيني، وإنجازاتهم تملأ قلبي فخراً واعتزازاً، وإخفاقاتهم تحزنني. لا أستطيع أن أغتبط لأن مرتبتهم تدنَّت. وفي الواقع، هذا بالضبط ما يحصل منذ بداية الأحداث.

هل استحق البشر أمثالي تجرُّع هذه المذلة؟ أجل، بلا شك – وفي هذه المسألة، أرغب في إعطاء الحق لإيف. والاختلاف بيننا أنها تفرح لذلك أما أنا فأحزن.

غير أننا احتسينا الشمبانيا هذا المساء أيضاً، ورفعنا كأسينا لنشرب نخباً. هي لمباركة شعب إمبيدوقليس وما يحدثونه من انقلاب؛ وأنا لتوجيه تحية إجلال إلى ذكرى المعجزة اليونانية القديمة، راجياً أن يتسنى لها إنارة سبيلنا من دون أن تعمي أبصارنا.

هذا الاختلاف في الحساسية بين جارتي وبيني كان حاضراً على

الدوام في ذهني منذ أن بدأ كل منا يراقب الانقلابات الحاصلة. لم أكفَّ عن مقارنة ردود فعلها بردود فعلي، لتوضيح أوجه التقارب بيننا أحياناً، وأوجه التباين أحياناً أخرى. فلقد عثرت أخيراً على روايتها في زاوية من مكتبتي. وانكببتُ فوراً على قراءتها، وإنها توضح لي أموراً كثيرة كانت لا تتراءى لي حتى الآن سوى بصورة مبهمة وتقريبية.

مكتبة
t.me/t_pdf

الثلاثاء ١٦ تشرين الثاني

هذا الصباح، قرابة الساعة العاشرة، اغتنمتُ انفراج الطقس، فذهبت للتنزه في أحد المسالك الأثيرة على قلبي. إنه يبدأ على بعد خطوتين من غرفة نومي، ويلف ويدور وسط نبات السرخس، ثم يتوقف عند أسفل صخرة مسطحة أجلس عليها أحياناً، في الأوقات التي يصحو فيها الطقس وينحبس المطر. اليوم، كان كل شيء مبلَّلاً، الدرب والنباتات والحجارة، ولكن المطر توقف، والريح سكنت، بل كانت شمس خجولة تحاول شقَّ سبيلها من بين ثنايا الغيوم. كانت النزهة تبشر بأن تكون لطيفة.

وعلى حين غرة، خلتُ أنني أسمع صوت دراجة هوائية. إنه صوت غير معهود أبداً في جزيرتي. لا ريب أن الدراجة الهوائية سيدة المكان، وأنا شخصياً، لم أستعن، منذ اثني عشر عاماً، بأية وسيلة نقل غيرها.

غير أن سائق الدراجة لا يصادف في هذا المكان مارةً أو مركبات، ومن ثم لا يشعر بالحاجة بتاتاً إلى الضغط على الجرس المنبِّه.

فارتقيت الصخرة المسطحة، وشخصت بنظري نحو ممرِّ الـ«غواي»، فلمحتُ من بعيد شخصاً يرتدي بزة، ظننته دركياً للوهلة الأولى. كان حارس الغابات. لقد جاء، من قبل رئيس بلدية الأرخبيل، يُحذِّر «سكان أنطاكية» من خطر داهم: فقد اكتشف وجود سحابة إشعاعية في المنطقة. ولم تتوافر لدى الموظف الراكب على الدراجة تفاصيل أخرى يُزوِّدني بها. وأوصاني بالبقاء بمأمن داخل بيتي، وبإغلاق الأبواب والنوافذ، ونبَّهني بالأخص إلى ضرورة عدم التنقل خارجاً لدى هطلِ المطر أو انتشار الضباب، وانتظار التعليمات. وقد أحضر لي، في ظرف عادي، حفنة من أقراص اليود، طالباً مني ابتلاع واحد منها في الحال، ثم تناول قرص كل مساء للوقاية من أي إشعاع قاتل.

هكذا إذن، «الوحش الكاسر» الشهير الذي يسعون إلى ترويضه لإرجاعه إلى قفصه، ما زال حراً طليقاً، لا بل لعله قد جاء يحوم قرب أنطاكية!

وبينما كان المرسال يبتعد، اعتراني فجأة إحساس غريب بالاختناق. كنت أتنفس بصعوبة، وكأن الهواء قد تشبَّع فجأة بجسيمات قاتلة لا بد لي من الاحتماء منها حتماً – في حين كنت أتنفس، في اللحظة التي سبقت، ملء رئتي. كان هلعاً أعرف أنه يجافي الصواب،

ولكن تعذر عليَّ ألا أستسلم له. فالطابع العادي والريفي لزيارة حارس الغابات زادني حيرة وتوجساً.

أحسست أنني قد رجعت ثمانية أيام إلى الوراء، إلى مخاوفي الأولى، عندما كنت أخشى حينذاك أن يشهد العالم كارثة نووية. ولقد شاعت في نفسي الطمأنينة لاحقاً في هذا الشأن؛ ولكن الأرض تميد الآن تحت قدميّ. من أين أتت هذه السحابة؟ كيف استطاعت التشكّل؟ ثم تساءلت، ماذا يقصد بكلمة «سحابة إشعاعية»؟ أتأمل صفحة السماء فلا أرى على امتدادها سوى سحب متراكمة. هل توجد، وسط هذا التجمع، سحابة مشتبه فيها؟ أم أنه مجرد أسلوب في الكلام؟ «سحابة» في عصرنا، أليست مفهوماً مبتذلاً نسرف في تداوله؟

وبينما كنت أقلِّب كل هذه المسائل في ذهني، عاد المطر يهطل. وتراءى لي هذا الحدث العادي للغاية مقلقاً، وكأنه يشكل جزءاً من جهاز محاصرة. فانكفأت في الحال إلى منزلي، ولزمته بعد ذلك.

في الساعة التي أخطُّ فيها هذه السطور، تواصل هطل المطر، خبيثاً، شرساً. السماء لا تسقي، بل ترشح.

لتبديد مخاوفي غير المنطقية، أنغمست مرة أخرى في كتاب إيف. فأنا لا أقرأه مثلما كنت سأقرأه لدى صدوره، عندما كنت لا أعرف جارتي، وعندما كان صوتها لا يسكن أذني بعد؛ وعندما كنت، على

وجه الخصوص، لا أعلم شيئاً عن معجبيها الغامضين. يحوم الآن سؤال من حولي: لأي سبب أعجب «أصدقاء إمبيدوقليس» بهذا العمل الروائي إلى هذا الحد؟

فالفرضية التي طرحتها منذ بضعة أيام استحالت شيئاً فشيئاً إلى يقين أكيد: إذا كان قوم أغاممنون قد كلَّفوه بالتمركز في هذه البقعة النائية من الكوكب، فذلك فقط بسبب حضور إيف، للسهر عليها وحمايتها من اختلالات العالم.

أما الرواية نفسها، فيتراءى لي، مما قرأته منها حتى الآن، أنها أقل «رؤيوية» مما توقعت. إنها لا تعلن عن حلول بشرية موازية، ولا تتطرق إلى أي من الأمور التي جرت في الأيام الثمانية الأخيرة. غير أن القارئ يفطن، بين السطور، إلى أن الروائية مقتنعة بأن «البشر» قد ضلُّوا السبيل؛ وأنها تبتهج بالأحرى عوضاً عن التحسر لذلك؛ وأنها ترجو أن «المستقبل»، بما أنه «لم يعد يسكن على هذا العنوان» كما يؤكد عنوان الرواية، سيتولى زمامه آخرون في يوم من الأيام. من هم الآخرون؟ كانت لا تعلم بالطبع عندما ألَّفت الرواية. بيد أنها تشير على الدوام إلى اليونان القديمة، بل وتذكر، بنبرة ودودة، شخصية إمبيدوقليس. إنه تفصيل يبدو مذهلاً بالنظر إلى الأحداث الراهنة، ولكن أنا على ثقة بأنه قد خفي على الجميع، لدى صدور الكتاب، إلا، كما يبدو، على «أصدقاء» الفيلسوف الأغريجنتي.

أما مصدر إلهام الرواية، فمن الواضح أنه سيرة ذاتية، وإيف لا

تنكر ذلك. لقد سمَّت راويتها ليليت، على اسم الجميلة الصهباء التي قيل إنها كانت الرفيقة الأولى لآدم، وفقاً لبعض الأساطير، التي خلقت معه في الوقت ذاته لا من أحد ضلوعه؛ والتي لم تشعر بنفسها، بحكم ذلك، مرغمة على إطاعته.

امرأة متمرِّدة تنطوي على قدر كبير من الرمزية، تنادي بالمساواة بصوت هادئ، ظافر، منتصر، متصلب، لا بصوت نائح، متوسّل أو متذمر - من المؤكد أن إيف سان-جيل ترى نفسها على هذا النحو، ومن المرجح أن ذلك يمت بصلة إلى الطفولة السعيدة التي نعمت بها. فوالدها كان يعشقها، وإن كان غائباً في أغلب الأحيان؛ ووالدتها تحبها، وإن كانت علاقتهما معكوسة أحياناً، يحلو فيها للراشدة غير الراضية أن تؤدي دور الطفلة بين ذراعيِّ ابنتها. ومن أعلى عرشها الذي نصَّبها عليه والداها، كانت إيف-ليليت تراقبهما، وتعانقهما، وتؤنبهما أحياناً، وكأنها هي المرأة الناضجة، وهما الطفلان المتهوِّران - أحدهما، خائن، والأخرى، سائرة بلا هدى.

كانت الروائية التي يعبدها والداها معشوقة من عصرها كذلك، أو لطالما حسبت أنها كذلك. فلم يسبق للنساء قطّ، منذ فجر التاريخ، أن كنَّ غير مقهورات، وغير مذعنات بهذا القدر، ولم يسبق لهن على الإطلاق أن دُعين بهذا الشكل إلى التحرر من القيد الجسدي والاجتماعي الذي يُفرض عليهن منذ ولادتهن. لا شك أنهن لم يكنّ ينعمن بالقدر نفسه من الحرية في جميع البلدان، ولا شك أن انتزاع حقوقهن لم يكن في أي

مكان قد أنجز تماماً؛ وعلى الأقل، كانت إيف- ليليت تشعر بأنها قادرة على السعي وراء تحقيق طموحاتها، ورغباتها، بل ونزواتها، كما يطيب لها. وفي مرحلة صباها التي أمضتها بين باريس ودبلن وكينغستون وسان فرانسيسكو، لم تحرم نفسها من أي بهجة، محلَّلة أو محرمة، عادية أم خطرة. إنها تنسب إلى بطلة روايتها شتى المغامرات، قد يكون بعضها من نسج الخيال، ولكنها حقيقية بمعظمها على الأرجح.

ولذلك، انتفت لديها الأسباب لكي تمقت عصرها أو تنظر إليه بريبة. فالعالم الذي ترعرعتُ في كنفه كان يقدِّم لمعاصرين كثيرين، نساء ورجالاً، مباهج حسية وفكرية ما كان ليحلم بها أحد في الأجيال السابقة من رحلات إلى أقاصي الأرض؛ ووسائل اتصال تلغي المسافات؛ وأجهزة ذكية لتيسير الحياة اليومية؛ وإتاحة الاستماع، على الدوام، إلى جميع أنواع الموسيقى، والاطلاع على جميع الصور، وجميع الكتب، وجميع الكنوز الفنية أو الأثرية - أي باختصار، مجمل الأعمال والمعارف التي راكمها جنسنا البشري منذ بدء الخليقة... فبفضل الاختراعات المستجدة، أصبح العالم بأسره مكتبة هائلة، يتسنى لنا دخولها في أية لحظة من دون أن نحتاج حتى لمغادرة منزلنا أو مفارقة أريكتنا أو خلع مبذلنا. وكان ذلك، بكل بساطة، بمنزلة الجنة للشابة أيف-ليليت، المؤرقة، الخمولة، المحبة للسهر، والمتسمة، بالرغم من ذلك، بشهية عارمة للمعرفة.

ولكن، في هذه الحالة، لماذا تتنبأ الروائية لهذه الحضارة بنهاية

مأسوية ووشيكة؟ في اللحظة التي أكتب فيها هذه السطور، لم تعد هذه الرؤيا تثير العجب. فنظراً إلى كل ما جرى في هذه الأيام الأخيرة، يكاد يسعنا القول إن تلك النبوءة قد تحققت بالفعل. أجل، ويا للأسف، يبدو بالفعل أن حضارتنا، على الرغم مما حققته من إنجازات باهرة، كانت تعاني داءً خفيّاً سيقضي عليها. لم يكن الأمر ظاهراً للعيان لدى صدور رواية المستقبل لم يعد يسكن على هذا العنوان، منذ حوالي اثني عشر عاماً. وربما يبرر ذلك ما أصابته من شهرة.

فما هو هذا الداء؟ وكيف لنا أن نُفسّر أن حضارة تختزن كل هذه الحيوية وهذه الطاقة الإبداعية قد أصبحت بلا غد، وعلى وشك الأفول؟ لا تفصح إيف عن ذلك صراحة. وعلى الأقل، إنها لا تفعل ذلك في الصفحات المئتين والخمسين التي قرأتها حتى الآن، أي ما يعادل ثلثي الكتاب بالإجمال. ومن الأرجح أنها لا تدري على أي صخور قد يتحطم تاريخ البشر. ولكنها تستشعر الكارثة، من دون أن تدع الرخاء المخيِّم يخدعها. استوقفتني عند منتصف الليل جملة تقول بالضبط: بينما كنت أتفتح، ضَمُرَت البشرية...

سأتابع القراءة غداً.

الأربعاء ١٧ تشرين الثاني

أيقظني اليوم مع مطلع الفجر مورو الحائر على غير عادته، بل والمذهول. كانت الساعة تشير عندي إلى السادسة والنصف صباحاً، وإلى الثانية عشرة والنصف ليلاً عنده. كان قد خرج من اجتماع ليلي مطوَّل في البيت الأبيض.

«سمعت خمسة عشر شخصاً عاقلاً يعرضون أطروحات منطقية، وجيهة، ومبهرة في أغلب الأحيان، ولكن ما من أطروحة بدت لي مقنعة حقاً، ولا حتى تلك التي دافعتُ عنها شخصياً.

«اجتمع بنا الرئيس لكي يطرح علينا جميعاً السؤال نفسه الذي لا مفر منه: «من أين قدم هؤلاء القوم في اعتقادكم؟». ولقد اكتفيت من ناحيتي بسرد الخرافة التي نقلتها لي، والتي تمثل بوضوح النسخة الرسمية التي تريد «القوة المتدخلة» المزعومة إقناعنا بها، بهدف تخدير

ريبتنا. غير أنني كنت آخر الذين أدلوا بدلوهم. لم أشأ أن يدور الحديث حول اليونان القديمة. كنت أتشوَّق لسماع نواقيس مختلفة».

ضمَّ الحضور كبار المسؤولين في أجهزة الاستخبارات، وبعض الجنرالات، وبعض أعضاء الكونغرس، واثنين أو ثلاثة من «الإلكترونات الحرة» كما يحلو لمورو أن يصف نفسه.

«وصل كل منا إلى المكتب البيضاوي حاملاً هواجسه وآفاقه الضيقة. كان يسود الاقتناع لدى معظم الحاضرين بأن لا وجود لقوة غامضة وراء ديموستينس وأصدقائه، إنما لقوى من عندنا أي الصينيين أو الروس أو الهنود أو الإيرانيين، بل وربما أميركيين لاتينيين أو أوروبيين. أدري أن الشخص الذي التقيته أنت في جزيرتك قد أقسم لك أن الأمر ليس كذلك على الإطلاق، ولكن مثل هذا الإنكار يُعزِّز الشكوك»، فشعرت بنفسي مضطراً لأن أقول لصديقي، بصوت يغلبه النعاس:

«لا أريد أن أدافع عن أغاممنون، ولا أستبعد أن يكون قد سعى إلى تضليلي... ولكن إذا كانت قوة عظمى «من عندنا»، كما تقول، قد استحدثت التقنيات المتطوِّرة التي تتوافر لدى هؤلاء القوم، ما حاجتها إلى اللجوء لمثل هذه المسرحية؟ سيكون ذلك بلا معنى على الإطلاق!».

«بلى، لا تنخدع، سيكون لذلك معنى. تخيَّل لو طلب الصينيون أو الروس تفتيش المنشآت العسكرية الأميركية. من المؤكد أنهم سيقابلون بالصد. أما قوة تدعي أنها محايدة، ومتسامية على النزاعات بين القوى

العالمية، فقد استطاعت الحصول على موافقة الرئيس للتدخل كما يحلو لها حيث تشاء. ومع ذلك، فأنا بدوري لست مقتنعاً مثلك بفرضية «حصان طروادة» تلك. فأنى لقوة غريمة أن تحوز معارف أرقى، وأن تستحدث أسلحة متطوِّرة، وأن تدرِّب عدداً هائلاً من العملاء، من دون أن تعلم أجهزتنا بأمرها؟ إنه أمر مستبعد كلياً. والمزعج في الأمر أن الفرضيات الأخرى مرجحة بقدر أقل كذلك. فرضية شعب قَدِم من الفضاء الخارجي، على سبيل المثال... أربعة أشخاص طرحوها هذا المساء ومنهم هوارد نفسه، ولكنها بدورها فرضية غير مقنعة».

«أنت تعرفني، لست رجلاً يستبعد فرضية حتى قبل أن يطرحها، بل إنني مقتنع بأن جنسنا البشري سيلتقي في المستقبل، حكماً، مخلوقات أخرى تتحلى بالذكاء؛ وسيكون ضرباً من العبث أن نعتبر بأن لا وجود لغيرنا في هذا الكون الشاسع. ولكن، في اليوم الذي سيحصل فيه هذا اللقاء، ستكون الصدمة فورية وبالغة العنف. فذاك الذي سيقصد الآخر سيبدأ بتهشيمه لكي يجرِّده من أية قدرة على الإيذاء؛ وفيما بعد، حين يكون قد أخضعه، يمكنه أن ينكبَّ بحنان على فنه وتاريخه ومعتقداته وحضارته. إن فكرة شعب وفد من مكان آخر، وقادر على الوصول إلينا والاستقرار في عقر دارنا حتى قبل أن نعلم بوجوده، ولكنه يقف منبهراً مع ذلك أمام تاريخنا، والمعجزة الأثينية، وإمبيدوقليس الأغريجنتي، فهذا يبدو لي ضرباً من الوهم تماماً. إنها مجرد رؤيا مثالية انبثقت من مخيلة فيلسوف».

«فأنت تفضل تصديق التفسير «المحلي»...».

«إنها، في الواقع، أكثر الفرضيات رصانة بالنسبة إلى معظم الأشخاص الذين تحدثوا هذا المساء. وفي دور «محرِّك الدمى الخبيث»، أحد المشتبه فيهم المعهودين أي الصينيين أو الروس.... ولكن احتمالات أخرى قد اقترحت، ومن بينها احتمال أن يكونوا جمعية سرية، أو جماعة، أو مجموعة عرقية قد عاشت على هامش التاريخ، وظل الناس العاديون غافلين عنها كلياً».

«وهذا يتقاطع مع القصة «الإغريقية» التي حكاها لي أغاممنون...».

«أجل، بطريقة أو بأخرى. ويبقى أن نعرف أين وكيف استطاع هذا الفرع من البشرية أن يظلَّ على قيد الحياة، قرناً تلو القرن، من دون أن يكتشف أمره أبداً، ومن دون أن يفتضح وجوده. أتظن حقاً أن هؤلاء القوم قد استطاعوا استحداث تقنيات متقدمة وأسلحة متطوِّرة في مغاور أو كهوف أو سراديب جوفية؟».

«يبدو لي، في الواقع، أنه من الصعب تصديق ذلك.... فمن هم؟ ومن أين أتوا؟».

«ألك، لا أعرف أكثر منك. لست مقتنعاً بأي تفسير من التفسيرات التي سمعتها. ولكن لا بد أننا أخطأنا في مكان ما، لأن هؤلاء القوم هنا! إننا لا نعلم بعد من هم، ولا كيف حافظوا على أنفسهم على مرِّ القرون، ولا الغاية التي ظهروا لأجلها اليوم على مسرح العالم. ولكنهم ها هنا، أشداء البأس كما يظهر عليهم، وعلينا أن نعلم، بسرعة فائقة، ماذا يبيِّتون لنا من نية».

في هذه اللحظة من حديثنا أخبرت صديقي بما يقال في أرخبيل الشيرون بشأن السحابة الإشعاعية. ولمستُ من رد فعله أن المسألة لا تؤرقه كثيراً.

«الإشاعات التهويلية رائجة هنا أيضاً، ولكن كل الدلائل تشير إلى أن لا أساس لها من الصحة. سنحت لنا الفرصة، في اليومين الأخيرين، للنظر في عدد من الحوادث التي أخطرنا بها، والتي كانت تبدو أخطر من غيرها. ولكن ما من حادث واحد فاقت فيه كميات الإشعاعات المستوى الطبيعي!».

«إن ما ينتشر ليس مواد ضارة، يا عزيزي ألك، بل حالة ذهنية. عندما أعلن هوارد أن «الأوصياء علينا» سيقومون بتفتيش شتى المنشآت، استشاط الكثير من قادتنا العسكريين غضباً، ولكنهم كانوا يقفون عاجزين تماماً. فليس بمقدورهم مخالفة أوامر قائدهم الأعلى، ولكنهم لا يرغبون كذلك في إطاعته. ما السبيل إلى الإعراب عن إحباطهم؟ بالإعراب مراراً وتكراراً أمام كل من يسمع بأن «جمع» المواد الإشعاعية لن يكون على ما يرام، وأنه قد يتسبب بكوارث جديدة أسوأ من كارثة تشرنوبيل عوضاً عن تفادي حدوثها. وبما أن هذه هي الحالة الذهنية التي كانت سائدة لدى الكثيرين، فقد انتشرت الإشاعات وتضخَّمت، في الولايات المتحدة، وأفترض كذلك، في سائر العالم».

«في حين أن عملية الجمع المذكورة قد تمت على ما يرام؟».

كان جواب مورو مرتبكاً: «في الحقيقة، لا أحد يعلم عنها شيئاً!».

إننا لا ندري على الإطلاق ما فعله هؤلاء القوم... فعلى حد علمي، عمليات التفتيش التي أجريت لم تكن ذات صلة بالأسلحة النووية بالضرورة، بل ولعل كل ما قيل في هذا الشأن لم يكن سوى لإخفاء النيّات الحقيقية. فالقول إن نزاعاً مدمراً كان على وشك الاندلاع، وإن التدخل العجائبي الذي قام به «الأوصياء علينا» قد حال دون وقوع هذه الكارثة، هو خدعة على الأرجح».

«وما الغرض منها؟».

«إحساسي، في اللحظة التي أكلِّمك فيها، أنهم قد تدخلوا بالفعل لإجراء بعض «التطهير»، ولكن في ميادين أخرى غير الأسلحة النووية. فكلما حدثنا ديموستينس عن المخاطر، شدَّد بقوة على السلاح النووي، وعلى الأسلحة التي وقعت بين أيدٍ غير أمينة، وعلى النفايات التي لا نعرف معالجتها...أما لب المسألة عنده وعند قومه، فإنه يكمن على الأرجح على صعيد آخر».

«لقد لمَّح مراراً إلى أبحاث ستؤدي إلى الإبادة، إذا ما بلغت مراحلها النهائية. كانت تلك الكلمة تتردد على الدوام في خطابه: إبادة الجنس البشري، مخاطر الإبادة، وسائل الإبادة. وبما أننا اعتدنا، منذ الحرب الباردة، الربط بين تهديدات الإبادة والذرة، فقد انطلت علينا الحيلة. ولذلك، اقتصر الرئيس، في كلمته، على ذكر «الوحش» النووي».

«وهل تعلم الآن ماذا يقضُّ مضجع هؤلاء القوم فعلاً؟».

«لا أعلم حقاً. أخمن بعض الأمور، ولكن لا أعلم علم اليقين إطلاقاً. خلال الأيام الأخيرة، تدخلوا، على حد علمي، في قرابة مئتي موقع على نطاق العالم، نصفها موجود في الولايات المتحدة. وهذه المواقع هي أساساً مختبرات تجري بحوثاً في علم الجراثيم، والكيمياء العضوية، والذكاء الاصطناعي، والفيزياء، والبالستيات. ولكن في القائمة التي رأيتها، وهي ليست وافية، ثمة مواقع متوقعة بقدر أقل، من قبيل معاهد للبحوث الزراعية، ومراصد فلكية، وعدد من المكتبات الجامعية، وشركة للإنتاج المتخصص في الأفلام الوثائقية عن أعماق البحار، بل ودير قديم في ولاية كنتاكي - والله أعلم!».

«وماذا فعلوا في تلك المواقع؟».

«لا أعرف التفاصيل إلا عن حالة واحدة، تتعلق بمعهد بحوث كائن في ضواحي بالتمور، وحيث يعمل ابن أحد الأصدقاء، جاءت امرأتان مجهولتان إلى مكتب الاستقبال صباح الاثنين. ومن الواضح أنهما كانتا تنتميان إلى «أصدقاء أمبيدوقليس». وعلى الفور، أصيب كل الذين كانوا في المبنى بالشلل، كما لو بفعل تسرب غاز. ولكن لم يكن هناك غاز على ما يبدو. ربما أشعة تحدث المفعول نفسه. وانهمكت «المفتشتان» في عملهما بعناية، ومن دون عجلة. ولقد عطلتا أدوات المراقبة والقياس بذرّ حبات رمل فيها، أو شيء يشبهها. وأتلفتا ملفات كثيرة وأخذتا بعض الملفات الأخرى. وأقدمتا على محو البيانات الرقمية للمعهد محواً تاماً، فاختفى كل أثر للبحوث التي أنجزت في

السنوات الأربعين الأخيرة! لم يعد لها وجود لا في المعهد، ولا على شبكة الإنترنت!».

«وما هي البحوث التي كان يعمل عليها هذا المعهد؟».

«إنها مؤسسة كبيرة يعمل فيها أكثر من ألف موظف. وكانت تُجرى فيها شتى أنواع البحوث، وتُنفَّذ عشرات المشاريع بصورة متزامنة. ربما كان أحدها فقط يهمُّ المفتشتين، ولكنهما أقدمتا على حذفها كلها، وذلك لا ريب كي لا يعلم أحد ضالتهما المنشودة».

«ألم تسقط ضحايا؟».

«لم يسقط قتلى، كلا، ولم يُصب أحد بجروح بليغة. ولم يحصل أي عراك أصلاً. انتهت هاتان السيدتان من عملهما من دون أن يقلق أحدهم راحتهما، ثم غادرتا المكان بعد ساعات معدودة، بينما كان جميع الموظفين في سبات عميق. وبعد ذلك، استفاقوا جميعاً، ولكن معظمهم كانوا عاجزين عن التحرك بسبب إصابتهم بخدر شديد في أطرافهم. استفاقوا، واستعادوا وعيهم، ولم يشعروا بأي ألم، ولكنهم عاجزون عن التحكم بأذرعهم أو سيقانهم. ولقد أطلق الأطباء اسماً على هذا الشلل اللانمطي: متلازمة بالتمور».

« فكل هذه العملية نفَّذها شخصان فقط؟».

«أجل، وبأيديهما العارية، أو تقريباً! من دون أي سلاح ناري، في جميع الأحـوال. ويبدو أن ذلك هو أسلوب عملهم. إنهم لا يحاولون السيطرة بالعدد أو بالمعدَّات التي ينشرونها. فعلى العكس،

إن اقتصادهم المذهل في استخدام الوسائل هو ما يبهر محاوريهم. لا تنسَ أنهم أوفدوا شخصاً واحداً للتفاوض مع حكومة الولايات المتحدة! وحصلوا منا على كل ما يرغبون!».

«كان عليك أن ترى ديموستينس ذاك الوافد من عندهم! فلدى العودة من شيلي، عندما استؤنفت المفاوضات في المكتب البيضاوي، جلس منصاعاً في المكان الذي حدَّده له هوارد، ولم يفارقه. كان وحيداً على الدوام، في حين كنا سبعة أو ثمانية. وبين الحين والآخر، يخرج أحدنا للتريض أو لتناول شطيرة، أو لقضاء حاجات أخرى؛ وفي بعض الأحيان، ينسحب اثنان أو ثلاثة منا لمقارنة انطباعاتنا. وكان الآخر يتأملنا، هادئ الأعصاب. لا يبدو عليه أنه يحتاج إلى أي شيء، أو يرغب في أي شيء، أو يريد أن يسدي أي نصيحة أو أن يتلقاها».

«هل استطعت أن تخوض معه في أحاديث أخرى على انفراد، بعد حديثكما على متن الطائرة؟».

«كلا، ولا مرة. اكتفيتُ بمراقبته من بعيد. كان في ذلك قدر لا بأس من التشويق في الواقع، بل ومن التسلية أحياناً، بل لقد شهدت بعض اللحظات التي لا تنسى. على سبيل المثال، يوم الجمعة مساء. كان ديموستينس قد أوضح بأنه لا بد من الانتهاء كلياً من «أدوات الإبادة»، وأن أصدقاءه على استعداد ليخلصونا منها. ولهذه الغاية، كان يريد أن يأذن الرئيس لقومه بالتدخل في المواقع التي يجب تطهيرها. فسأله هوارد صراحة: «أي مواقع؟». «للأسف، سيدي الرئيس، لا أستطيع

أن أقول لك». «أتريدني أن أعطيك الإذن بتفتيش مواقع حسَّاسة على الأراضي الأميركية، من دون أن تقول لي ما هي؟». أظهر ديموستينس تصلباً: «إذا أفشيت أي معلومة، ستبوء العملية بالفشل. ليس من السهل أن تقبل بما أطلبه منك، وأنا أدرك ذلك تماماً. ولكن، إذا شئنا وضع حدٍ لمخاطر الإبادة، علينا التصرّف على هذا النحو، فليس من حل آخر».

«تشاور هوارد بنظرته مع جميع من حوله. وأومأ الواحد منا تلو الآخر برأسه رفضاً، من دون تردد. فليس من الوارد منح هؤلاء القوم ملء الحرية لتفتيش منشآتنا كما يحلو لهم. وحسم الرئيس أمره، بأدب وحزم على السواء: «للأسف، أنا مضطر لرفض هذا الطلب». وأضاف قائلاً: «وأنا أعرف على وجه اليقين أنك كنت ستقوم بالمثل لو كنت في موقعي».

«بعد عشر ثوان، جاء أحدهم يقرع الباب. كان أحد عناصر الأمن أتى ليخبرنا أن جميع الاتصالات قد انقطعت مجدداً. فنهض هوارد على الفور، متكئاً بصعوبة على ذراعي مقعده. «أرفض مواصلة هذه المباحثات تحت وطأة التهديد». فأجابه الآخر: «أفهمك، سيدي الرئيس. فلنعلِّق هذه الأحاديث، ولنمنح أنفسنا الوقت للتفكير بهدوء». أشار هوارد، ولم يكن حزنه مصطنعاً: «إنكم تسعون إلى إذلالنا. تكثرون من التهديدات، واستعراضات القوة، ويبدو أنكم مقتدرون. وفي هذه الحالة، ما حاجتكم إلى إبرام اتفاق معنا؟ افعلوا ما عقدتم العزم عليه، وكفانا كلاماً!».

«صمت الموفد ثواني معدودة قبل أن يجيب: «من المحتمل،

في الواقع، أن نضطر للتصرف من دون موافقتكم. ومن ناحيتي، سيؤسفني ذلك أشدَّ الأسف. ظننت أننا نستطيع إقامة علاقات ثقة متبادلة. أغلب أصدقائي لا يفكرون مثلي. لديهم أحكام مسبقة راسخة ضدكم، وضد كل أمم الأرض. وعندما يستعرضون مساركم، لا يرون فيه سوى الضراوة والجشع والنزعات القاتلة؛ يعتقدون أنكم عاجزون عن استخدام قوتكم لشيء آخر سوى الهيمنة والقهر؛ لا يصدقون إطلاقاً مبادئكم التي تجاهرون بها، ولا تعهداتكم التي تقطعونها. أما أنا فأتراءى لهم شخصاً ساذجاً، يسهل خداعه. إذا قلت لي أن لا تسوية ممكنة، سأنسحب في الحال، ولن تضطروا أبداً بعد اليوم إلى التعاطي مع مفاوض عديم الخبرة وأخرق مثلي».

«تكلَّم بتهذيب، من دون أن يرفع صوته، ولكن كلامه كان هجوماً محقَّقاً، مبطناً بتهديد». ومن ثم، وقف، وتوجه نحو الباب، وأشار هوارد بيده لاستبقائه هامساً له بصوت مرهق إنما قد تلطفت نبرته: «عُدْ إلى مكانك يا صديقي، لا حلَّ أمامنا سوى التفاهم».

«فاقترب ديموستينس من الرئيس، ووضع يده على كتفه. «إنني سعيد لأنك تخاطبني على هذا النحو. وأريد أن أظلَّ أعتقد بأن التفاهم ممكن. ولكننا جميعاً في هذه الساعة قد أنهكنا وتوترت أعصابنا. فلندع هذه الليلة تنقضي، وإلى اللقاء صباح الغد». ظلَّ هوارد محافظاً على برودة أعصابه وإن كان يجيش من الحنق في قرارة نفسه، بل لقد خطر بباله أن يقترح استضافة المفاوض في إحدى غرف البيت الأبيض. كنا

جميعاًعلى يقين أن الآخر سيرفض العرض. ولكنه قَبِل، وقال إنّ ذلك يسرُّه ويشرفه. وفي الواقع، عومل مثل رئيس دولة. فاصطحب إلى غرفة لنكولن، وخُصِّص له ثلاثة أشخاص لخدمته. فهذا الشخص أمضى الليلة في ضيافتنا. وستلاحظ أنني لم أقل «نام»، لأنني لا أدري إذا كان هؤلاء الأشخاص يحتاجون إلى النوم مثلنا...».

قال لي مورو إن مشهداً آخر لا ينسى قد جرى بعد ظهر يوم السبت.

«أصيب هوارد بوعكة أثناء الليل. كان طبيبه، الدكتور أبيل، يلازمه طوال الوقت. ولم تكن الأمور على ما يرام سياسياً كذلك. فلقد استطعنا أن نحفظ ماء الوجه، ولكن كنا نفتقر إلى أي استراتيجية بديلة. لن يعدل هؤلاء البشر بالتأكيد عن «التطهير الشامل» الذي يتضح أنه السبب الأول لتدخلهم. ولا وسيلة لدينا لإقناعهم بالعدول عن ذلك. وكان هوارد يمزح بهذا الشأن بمرارة: «لم أعد القائد الأعلى إلا على الورق. لن أستطيع حتى أن أصدر أمراً بإقلاع طائرة واحدة من طائراتنا المقاتلة، ولا أن أحدِّد لها هدفاً تشنُّ عليه هجوماً. فمن الأفضل أن نصدِّق هذه الاحتجاجات باسم الصداقة التي يغدقها علينا هؤلاء الناس. وبما أنهم يفضلون العمل برضانا، فلنحاول أن ننتزع منهم بعض التنازلات. فليتعهدوا، على سبيل المثال، بعدم تفتيش أماكن ذات دلالة رمزية، مثل البيت الأبيض، أو مبنى الكابيتول، أو البنتاغون،

أو وزارة الخارجية، أو مقر وكالة الاستخبارات المركزية، أو مقر مكتب التحقيقات الفدرالي...».

«لقد وضعنا قائمة طويلة، ووافق عليها ديموستينس كما هي. مهرها بتوقيعه، بحركة مسرحية، ثم نهض ليعرضها بمهابة على الرئيس، وهو يصافحه». «إننا بحاجة إليك سيدي الرئيس، أكثر مما تتصوَّر. ولكي تسير كل الأمور من دون عراقيل، لكي لا يخيِّم الشك وتسود النقمة بين قومكم وقومنا، يجب أن تقولوا لقيادتكم العسكرية، وموظفيكم المدنيين، وعلمائكم، وكل مواطنيكم، ولسائر العالم، إن هذا التطهير سيصون مستقبلكم ومستقبل أبنائكم. تحلوا بالثقة، واسعوا لبناء الثقة معهم! إننا نعوِّل عليكم كثيراً، سيدي الرئيس، ونحتاج إلى دعمكم الواضح وغير المشروط».

«شعر هوارد بالطمأنينة نسبياً لدى سماع هذا التصريح. في الظروف الراهنة، كان هذا أفضل ما يمكن الحصول عليه. كان يومئ برأسه بعد كل جملة استحساناً. وكم استشاط غضباً عندما رأى نائب الرئيس، غاري بولدر، الذي لم ينبس ببنت شفة منذ ثلاثة أيام، أن من الحذاقة أن يسأل الموفد: «وماذا ستعطوننا بالمقابل؟». أجاب ديموستينس: «مقابل ماذا؟»، معتمداً فجأة نبرة لاذعة. «إننا نخرج السم من الجسد، وتريدون أن نعطيكم شيئاً بالمقابل؟». ثم التفت إلى هوارد وأضاف، وقد استرد هدوءه، وبنبرة مسرحية بعض الشيء، قال له: «على أي حال، عندما تحين ساعة الوداع، سيدي الرئيس، سأقدِّم لك هدية رمزية لأشكرك على ضيافتك: سأشفيك».

«خيَّم صمت أشبه بصمت المأتم، في المكتب البيضاوي! أجل المأتم، بما أن الحديث تطرَّق إلى إعادة الإحياء. امتقعت سحنة هوارد أكثر من ذي قبل، إذا كان ذلك ممكناً، وتمتم، بصوت يكاد لا يسمع: «لا أريد شيئاً لنفسي...»، فأجابه الآخر: «عندما أعلنت ذلك أمامك، لم أكن أتحدث في إطار مباحثاتنا. كانت تلك فقط بادرة صداقة، يا هوارد. هل تسمح لي أن أناديك هوارد؟ لقد استضفت نفسي عندك خلال هذين اليومين الأخيرين، وإنني أحرص على ألا تحتفظ عني بذكرى سيئة جداً. إنني أعلم، كما يعلم الجميع، أن مرضك في مرحلته النهائية، وأن أطباءك قد عجزوا عن شفائك؛ وسيشفيك قومي في غضون صبيحة».

«وعوضاً عن الاستبشار خيراً بهذا الوعد، كان هوارد يبدو متداعياً». «كن على علم... كن على علم أن ما قلته لي توّاً لن يكون له وزن أبداً في القرارات التي سأتخذها بصفتي رئيس الولايات المتحدة!». كنا جميعاً في منتهى الارتباك، غير أن الآخر استرسل قائلاً: «إنك زعيم أمة عظيمة، وبهذه الصفة توجهنا إليك. ولكنك قلت لي البارحة إنني صديقك، والصديق هو الذي يعرض عليك الشفاء، يا هوارد، أياً كانت القرارات التي ستتخذها بشأن مسألة عمليات التفتيش التي نقترح إجراءها».

ثم ألقى علينا ديموستينس التحية بإيماءة من رأسه. «أعتقد أننا قلنا كل ما كان علينا قوله. سأنسحب الآن إلى مخدعي، بعد إذنكم،

لكي أدعكم تتباحثون. أفترض أنك ترغب في مخاطبة مواطنيك، سيدي الرئيس، لاطلاعهم على قرارك. وحالما تجهز كلمتك، سيعيد أصدقائي موجات الأثير، لكي يتسنى للعالم بأسره سماعك». ثم أردف قائلاً: «لدي طلب أخير: أتأذن لي بتقديم احترامي إلى السيدة الأولى؟ لا بد أنها تحسبني فظاً بالمعنى الحقيقي للكلمة لأنني قضيت كل هذا الوقت في بيتها ولم أشكرها».

«وعندما خرج الحاكم بأمره، اعتبر الرئيس أنه من الضروري التأكيد، بصوت ما زال مرتعشاً: «إذا كان هذا الشخص يسعى إلى التأثير عليَّ بما قطعه لي من وعد بالشفاء، فأنا أريد أن تعلموا أن هذا العنصر لن يؤخذ أبداً في الحسبان في قراراتي». أحنينا جميعاً رؤوسنا بتهذيب، وباحترام، وكذلك برياء مطلق بالطبع. تبادلنا نظرات مواربة، وابتسامات مموَّهة. فلقد أدركنا فجأة، في لمح البصر، لماذا كان الحاكم بأمره يحرص كل هذا الحرص على رؤية زوجة الرئيس ثانية».

حرص صديقي الذي لم يكن متأكداً من أنني أدركت ذلك بدوري على أن يشرح لي متعجباً:

«حاول فقط أن تتخيل مشاعر سينثيا ميلتون حين يعلن لها الموفد أنه يستطيع شفاء هوارد من داء السرطان!».

«وهل تعتقد حقاً أن هؤلاء الناس يستطيعون القيام بذلك؟».

«كان ديموستينس يبدو واثقاً من نفسه، وأنا أميل لتصديقه بالأحرى. فأصدقاؤه أثبتوا بالفعل ما باستطاعتهم فعله، ولا أعتقد أنه قد كذب أو تبجَّح».

لزمتُ الصمت لبرهة وجيزة قبل أن أقول بشيء من الانبهار:

«إذا وضعنا السياسة جانباً، هذا أمر لم يكن مرتقباً بالنسبة إلى صديقك كإنسان، أليس كذلك؟».

«إنه أمر غير مرتقب، بالتأكيد، ولكنه مخيف أيضاً. فالتبعات هائلة، بل ومدمِّرة بكل ما للكلمة من معنى. لا يمكنك حتى أن تتخيل إلى أي مدى!».

الخميس ١٨ تشرين الثاني

هذا الصباح، في ساعة مبكرة، قرع زائرون بابي، قادمون من بور-أتلانتيك. لم أكن قد ارتديت ملابسي أو حلقت ذقني، فاستقبلتهم مرتدياً مبذلي. كانوا ثلاثة، لا يشبه أحدهم الآخر في شيء، ولكنهم انتظموا في وفد.

كان من بينهم العجوز أنطونان الذي سبق أن تحدثت عنه باقتضاب، والذي كثيراً ما ألتقيه في حانة القبطانة. لم أخض معه قطّ في أحاديث طويلة، وهو يميل أصلاً إلى التحدث بمفردات مقتضبة. غير أنني كلما قصدت الحانة، كنت أجلس بجانبه، ولا يخطر ببالي أن أغير عادتي، لأنه كان أول شخص يدعو، الغريب الذي كنت، لشرب كأس، فيما مضى.

كانت ترافقه حفيدته، المدعوة غبريال، التي لم تتجاوز التاسعة

عشرة من العمر، جميلة ولا يبدو عليها أبداً أنها تدرك جمالها، خجولة ولكن نظرتها حازمة. ومن الواضح أنها هي التي حملت جدها على زيارتي.

وجاء معهما ذلك البحار الشاب الذي أهمل حلاقة ذقنه واقترب مني يوم السبت في بور-أتلانتيك لكي يحدثني عن أغاممنون. لم تكن ذقنه أفضل حالاً هذا الصباح، وذقني بدورها لم تكن بأفضل حال. وعلمت أثناء حديثنا أنه ابن أخيه الصغير، وأن لقبه المعهود هو «Bouc»، وهي الطريقة التي يلفظ بها السكان المحليون كلمة «boucle» - لا ريب في الإشارة إلى حلقة على شكل مرساة يضعها في أذنه اليسرى. وكان يملك الشاحنة الصغيرة التي أقلّتهم إلى جزيرتي. إنها رحلة جريئة! فمنذ عقود طويلة، لم تجتز أي مركبة بهذا الحجم ممرَّ الـ«غواي».

طلب الرجل المسن إلى حفيدته أن تعرض لي سبب زيارتهم، ففعلت؛ ولشدة الانفعال في صوتها التبس عليَّ كلامها. إلا أنني استطعت أن أفهم منها أن خطيبها، وهو ملازم ثان في قاعدة شيرون الحصن، يدعى إيروان، قد اتصل بها البارحة ليقول لها إنه لن يستطيع ملاقاتها في نهاية الأسبوع كما وعدها؛ فقد منع كل الجنود من الخروج بسبب اعتراض مركب مشتبه فيه يحوم على مقربة من المنشآت، وإلقاء القبض على الرجل الذي كان موجوداً على متنه. من هو؟ إنه الملّاح! وأعلن المدعو «حلقة» أمامي ذلك بنبرة تكاد تكون منتصرة، متفحصاً وجهي لكي يتبين رد فعلي، فحاولت جاهداً ألا يرتسم عليه أي تعبير.

في المساء، علمت غابريال بواسطة صيادين أن شجاراً قد نشب في القاعدة العسكرية، وأن عدداً من الجنود قد جرحوا. وحاولت معاودة الاتصال بخطيبها مراراً، ولكنه لم يردَّ عليها.

قال لي «حلقة»: «يجب أن تفعل شيئاً. البحار صديقك، أليس كذلك؟».

«أعرفه، بالطبع، مثلما نعرفه جميعاً».

أصرَّ الشاب: «لم يبادلني سوى «صباح الخير» و«مساء الخير». أما أنت فلقد أسرَّ لك بالكثير».

كانت نبرته اتهامية. لم ترق لأنطونان، فاحتضن يدي في يده، بحركة وقائية حازمة، وفجأةً أصبح فمه الخالي من الأسنان بليغاً.

«أنا أعرف ألكسندر منذ اثني عشر عاماً، بل عرفت والده منذ ستين عاماً، أليس كذلك؟».

أومأت برأسي موافقاً على كلامه.

«أنت جئت من كندا، وأسلافك أصلهم من هنا، من الأرخبيل، أليس كذلك؟».

أصدقته القول كذلك.

فالتفت البحار العجوز نحوي، وكان يحدق حتى ذلك الحين إلى ابن أخيه المندفع لكي يفرض عليه الاحترام.

وقال لي: «ولكن الآخر، الملَّاح، إننا لا نعلم من أين أتى. إذا كنت تعلم أنت، قُلْ لنا!».

لم أعرف ماذا أقول. لو كان أغاممنون معنا، أعتقد أنه لن يخفي هويته؛ وهو لم يوصني قطّ بالحفاظ على سرِّه. ومع ذلك، سيخالجني الشعور بأنني أرتكب وشاية بحقه إذا صارحت زواري، بنبرة التكتم، بما أعرفه بشأنه.

ألحَّ عليّ أنطونان بالسؤال:

«أتظن أن الملَّاح من هؤلاء القوم؟».

هل في وسعي بعد ذلك اعتماد اللف والـدوران؟ لقد خانني صمتي بالفعل وفضحت أمري حيرتي الجلية. اعتبرت أن من الأنسب أن أجيب قائلاً:

« ما من شيء يثير دهشتي في هذه الأيام!».

تلك الجملة التي تفوَّهتُ بها، مع أنها كانت مبهمة للغاية، سمعها زواري الثلاثة على أنها «نعم» واضحة لا لبس فيها. رأيتهم يتبادلون نظرات مكفهرة. كنت مرتبكاً، ألوم نفسي لأنه لم يبدر مني تصريح أكثر تشكيكاً. غير أنني امتنعت عن إضافة أي كلمة أخرى، خوفاً من إمعاني في زلة لساني.

وبعد ثوان معدودة من الصمت الثقيل، أشار أنطونان بنبرة جادة:

«كنا نشكُّ فيه، ولكن لم نكن واثقين».

كانت غابريال ممتقعة السحنة، تعتريها مخاوف الطفلة وهواجس المرأة العاشقة.

تمتمت قائلة: «أتعتقد أنه سيؤذي العسكريين؟».

ماذا أجيبها؟ أليس الموقف الذين نحن فيه غريباً؟ رجل بمفرده يرسو قرب قاعدة بحرية، يُلقى عليه القبض، يُصوَّب إلى صدره السلاح على الأرجح، يُكبَّل بالأصفاد، ويُسجن في زنزانة من الخرسانة المسلحة السميكة بهدف «استنطاقه». ونحن، الذين اجتمعنا هنا، ما هو السؤال الذي نطرحه؟ لم نسأل: ماذا سيفعلون به؟ بل هل سيلحق بهم الأذى؟ هو، السجين، يلحق الأذى بهؤلاء العشرات من الجنود المسلحين الذين يطوِّقونه؟ والأكثر طرافة في الأمر، إذا جاز لي القول، أننا نطرح على أنفسنا هذا السؤال من دون أن يرفَّ لنا جفن، وكأن المسألة بديهية. في غضون أيام قليلة جداً، اعتدنا هذه المفارقة، وأصبحت جزءاً من حقائقنا الواقعة اليومية.

تغلَّبتُ على حيرتي، وسعيتُ جاهداً لتهدئة روع زائرتي الحسناء.

«لا أظن أن خطيبك في خطر. لا أعرف الملَّاح بالقدر الكافي لكي أتكهن بردود الفعل التي قد تكون بدرت منه أمام الأشخاص الذين اعترضوا سبيله. ولكنه بالتأكيد ليس رجلاً شرساً، بل على العكس. لن يقدم على أي فعل قد يؤذي سكان الأرخبيل. إنني على ثقة أن إروان ليس في خطر، وأنه سيعاود الاتصال بك متى سنحت له الفرصة».

هذه المرة، لم أكن مستاءً من كلامي. لقد أعدتُ الاعتبار قليلاً إلى صديقي، وهدأت روع غابريال، مع الإفصاح تماماً عن رأيي.

ولأنني كثيراً ما تجاذبت أطراف الحديث مع أغاممنون، لا سيما في هذه الأيام الماضية، يصعب عليَّ أن أتخيل بأنه شخصياً أو بأن قومه

قد يكونون مختلين أو دمويين؛ بل أميل إلى الاعتقاد أنهم أقل عنفاً منا، وأكثر أهلاً للثقة، وأشد احتراماً لمصير الضعفاء. فحقيقة المسألة في نظري هو أنه لا يسعني أمام هؤلاء البشر، لشدة اقتدارهم، إلا أن أرهب جانبهم مهما كانت نياتهم المبيَّتة نحونا.

تخطر ببالي مقارنة لتوضيح ما كتبته في الحال. عندما أتنزه ليلاً في دروب أنطاكية، أسمع أحياناً صرير قواقع الحلازين التي تسحقها نعالي. إنني مرهف الإحساس، وأحنو على تلك المخلوقات، ولن أسحق في حياتي أحدها عمداً. ويا للأسف، لا يكفي ما أظهره من حسن نية لإنقاذ تلك التي أصادفها في طريقي. فنزهاتي الليلية البريئة هي عند الحلازين بمنزلة غزوات قاتلة، ونعالي المسالمة تصبح أسلحة فتاكة. هذا ما يحصل عندما يعترضُ كائنٌ ضعيف سبيلَ كائن يفوقه بأساً.

هذه الخاطرة المتشائمة، أحجمت عن نقلها إلى غابريال الرقيقة والشخصين اللذين يرافقانها. فاكتفيت بالقول إن أصدقاء الملَّاح، على حد علمي، لم يقترفوا حتى الساعة أي جريمة، ولم يرتكبوا أي مجزرة. ومع ذلك، فلو كانت تلك مشيئتهم، لعجزنا عن الوقوف لهم بالمرصاد.

اطمأن بال المرأة الشابة على ما يبدو، فكوفئتُ بغمزة امتنان أغدقها عليَّ أنطونان. إنه رجل طيب! يا لهذه الرقة التي تُستشفُّ في ترقبه لأقل اختلاجات حفيدته! وتذكرت، وأنا أتأملهما، ما قيل لي

في بور-أتلانتيك. ربما اللحظة غير مناسبة للتحدث عن ذلك، ولكن مشاعري جاشت لدى سماع تلك القصة، وسأستطرد بإيجاز.

*

لم يكن أنطونان متفقاً مع زوجته، وقرر الزوجان الانفصال - وحصل ذلك منذ نحو خمسين عاماً. كان لديهما وقتذاك طفلان صغيران، صبيان. وعوضاً عن خوض مشاجرات لا تنتهي، رأى الرجل أن من الصواب أن يترك لزوجته البيت وكلَّ ما يملك. ووفقاً للأسطورة المحلية، لم يحمل متاعاً سوى كسوته. وأمضى حياته بعد ذلك متنقلاً من مركب إلى مركب، ومن رحلة صيد إلى رحلة أخرى، وكان يحرص، قدر المستطاع، على عدم العودة إلى الأرخبيل، ولا يزور أبداً البيت الذي كان بيته. ولقد تزوَّجت زوجته السابقة ثانية، وصار الولدان يعتبران الزوج الجديد في مقام والدهما.

هل أظهر أنطونان جبناً أم تهوراً أم حماقة؟ هل كان، على العكس، أنبل من اللازم؟ هل ضحَّى بزوجته وولديه لكي يظل حراً طليقاً أم ضحى بنفسه لئلا ينغص حياتهم؟ على أي حال، لم يرجع للعيش في بور-أتلانتيك إلا بعد أن تجاوز الستين من العمر. أصبح غريباً في نظر ولديه، بل وأقل من غريب؛ فالغريب تُلقى عليه التحية في الأرخبيل؛ أما ولداه فلا ينظران حتى في اتجاهه.

بنى لنفسه بيديه كوخاً متواضعاً قرب البحر، وكان يوزِّع وقته بين صيد الأسماك - لكي يحافظ على عاداته! - وحانة القبطانة. وفي

الحانة، لديه أصدقاء، يتبادل معهم الأنخاب، ويلعب الورق، ويُعدُّ دائماً ضيفاً محبوباً جداً. ولكنه كثيراً ما ينظر عبر النافذة، وإذا ما لمح أحد ولديه ماراً، أو أحد أحفاده الستة أو السبعة، يلوذ بالصمت، ومن الأفضل عدم مخاطبته حتى اليوم التالي.

إلى أن جاء ذلك اليوم المشهود، منذ عامين، حين دخلت غابريال إلى المشهد. كان أنطونان واقفاً في الساحة، يثرثر مع بعض الرفاق أمام باب الحانة قبل أن يذهب للجلوس في «مكانه المعهود»، حين دخلت حفيدته على حين غرة، قادمة الله أعلم من أين، وتوجهت نحوه مباشرة. كانت تمشي واثقة الخطى، شامخة النظرة، وقد أطبقت فمها، وكأنها تعتزم إثارة فضيحة. ولم يفهم أنطونان ولا أي من شهود العيان ما يجري. وفي الشارع، توقفت الحركة، وتحوَّل الكلام إلى إيماءات، وكتُمت هتافات التعجب.

فتحت غابريال ذراعيها، ثم طوَّقت بهما الرجل العجوز، والتصقت به طويلاً تاركة شعرها يسترسل فوق كتفه. لم تبدر من البحار المسن أي حركة، ولا حتى لاحتضانها بدوره بين ذراعيه. كان جسده يلوح متشنجاً وقد اغرورقت عيناه بالدموع. وبات لا يدري إذا كان على اليابسة أم على مركب يترجّح في أعالي جزر الأزور.

توجَّه ابنه، والد غابريال، الذي كان في الجوار، على الفور نحو ابنته، معتزماً تفريق الجسدين المتعانقين؛ كان مشهداً غريباً من الحب، والتمرد، والخيانة أو الإخلاص. غير أن الرجل توقف عن اندفاعته،

بعد أن اقترب منهما، واستقبله الحشد الصغير بالتوبيخ والصفير. أحس فجأة بأنه محط سخرية، فابتعد مهمهماً في نهاية المطاف. وبعد عشرة أيام، ذهب، هو وأخوه، بثياب الأحد، لزيارة والدهما في كوخه... لقد أرغمتهم غابريال جميعاً على أن يتصالحوا.

ومنذ ذلك الحين، كما نتخيل، أنها تحتلُّ مكانة خاصة، لا في قلب أنطونان الذي يعبدها فحسب، بل لدى كل سكان الأرخبيل، الذين يعاملونها باحترام يفوق الاحترام الذي يكنُّونه للشباب في مثل سنها.

وكما قلت، إنها هي بكل تأكيد التي بادرت إلى تنظيم هذه «الحملة» لزيارتي في أنطاكية. وإنها هي كذلك التي بوقوفها أعطت إشارة المغادرة.

أدعو الله أن تلاقي حبيبها سالماً معافى، وألا يكون الملَّاح قد اقترف فعلاً يتنافى مع مشاعر التقدير التي ما زلت أكنها له.

الجمعة ١٩ تشرين الثاني

هذا الصباح، قررتُ لدى استيقاظي، سعياً لتبديد القلق الذي كان يتصاعد من أعماقي، ألا أفتح أي مذياع، وألا ألمس الهاتف أو الحاسوب، وأن أستقر فوراً إلى طاولة عملي للرسم، وكأن بقية العالم كوكبٌ منيعٌ عليّ، فلا أعرف علاجاً أفضل.

وفي الواقع، كلما رسمت خطوطاً متعرجة بالحبر الصيني، كنت أسترجع سكينتي. فاستطعت على هذا النحو أن أجرف كل مخاوفي إلى زاوية ميتة، وأجد نفسي في فقاعتي، إذا جاز لي القول، من دون رفيق آخر سوى شخصيتي الشهيرة، «غروم الرحالة المستقر»، بل لقد تخيلت له اليوم ثلاث مغامرات جديدة.

كنت جالساً إلى طاولتي منذ ساعات عندما اقتحم الملّاح خلوتي.

في الخارج، كانت السماء رمادية مكفهرة، والمطر لم يتوقف بعد. دخل من دون أن يحدث ضجيجاً، ولم أتنبّه لحضوره إلا عندما لمحت وجهه منعكساً في واجهة زجاجية قد تحولت بفعل الظلمة المبكرة إلى مرآة. كان هنا، واقفاً جامداً وصامتاً. انقضت ثوان مديدة قبل أن ألتفت نحوه، ثوان تُعبِّر عن استيائي وحيرتي.

لطالما استقبلته حتى الساعة استقبالاً حاراً. فقد كان شخصية يميل إليها القلب، مؤدباً، رصيناً، كتوماً، مثقفاً، مرهفاً، حلو المعشر – وأستطيع أن أعدِّد ألف صفة من صفات الإطراء. ولم يتبدد ودي له إطلاقاً منذ وصول «رفاقه» المباغت إلى هذا العالم الذين كنا نعتقد أنه عالمنا. فأغاممنون، ولمجرد وجوده في الأرخبيل، يمثل عندي منفذاً إلى عالم مجهول كان دليلي الوحيد إليه. وحتى لئن كان «المنفذ» المذكور بالكاد مفتوحاً، كنت أعتبره واعداً، وأقدِّر قربه مني إلى هذا الحد. غير أنه لم يعد بمقدوري، منذ البارحة، أن أحتفظ نحوه بالموقف نفسه. كان يتراءى لي أنني أستقبل في بيتي عميلاً من عملاء العدو.

لم أبذل أي جهد لإخفاء ارتباكي، بل على العكس. كنت أريده أن يلاحظ ذلك، وتلك الصراحة تظلُّ من أمارات الصداقة وبقية ثقة. ومهما يكن من أمر، لم أظهر عداوة أو فظاظة. لم أعتد يوماً طردَ شخصٍ من بيتي، واليوم أيضاً، كنت عاجزاً عن عدم مصافحة اليد التي يمدُّها لي الملاح؛ اكتفيت بالشدِّ عليها بارتخاء أكثر من العادة، وكانت ابتسامتي لاستقباله مقتضبة.

اعتذر قائلاً: «لقد تأخر الوقت قليلاً للقيام بزيارة».

لزمتُ الصمت.

«يبدو أنك كنت تعمل. لقد قاطعتك...».

واكتفيت، رداً على سؤاله، بأن نهضت من مقعدي المتحرك وتوجهت للجلوس على أريكة في غرفة المعيشة. اقترب وجلس قبالتي. لم أكن قد تفوَّهتُ بكلمة واحدة بعد. كنت أنظر حيناً إلى الأرض، وحيناً آخر إلى السقف. وانقضت ثوان ثقيلة معدودة. استقام في مقعده، وكأنه يهمُّ بالانصراف.

«يبدو أنني لم أعد أستقبل بالترحاب في بيتك».

وأخيراً، قلت له بتنهيدة متضجرة:

«أنا لا أولي ظهري أبداً لصديق. ولكن الشخص الذي نُقلت إليَّ أفعاله البارحة لا يشبه كثيراً الصديق الذي عرفته».

«هل تصدر حكماً على صديق قبل أن تسمعه يدافع عن نفسه؟».

«هيا! أوضح موقفك! كلي آذان صاغية».

وعقدت ذراعيَّ.

تناول سيجاراً صغيراً من على المنضدة الواطئة، مستأذناً مني بنظرة متواضعة. فعاهدت نفسي ألا أضعف، ورددت على مسمعه:

«كلي آذان صاغية».

نفث دخانه لجهة اليمين، ثم لجهة اليسار، كما لو بفعل طقس من الطقوس. ثم راح يعرض عليَّ روايته عما جرى في شيرون الحصن.

«صباح الأربعاء، جاء ثلاثة جنود إلى بيتي. قالوا لي إن قائد القاعدة يريد أن يكلِّمني، وإنه لم يوفَّق في الاتصال بي هاتفياً. هل يمكن أن أرافقهم لموافاته؟ فوافقت، بالطبع. إنني أعرف العقيد البحري برتولو حق المعرفة، ولقد التقينا مراراً، وسبق أن زرته. فمضيت معهم من دون أن تخامرني الريبة. كانوا قد أتوا على متن قارب مزوَّد بمحرِّك؛ فتبعتهم على متن قاربي، بل وصعد أحدهم إلى القارب وجلس بقربي. فوفقاً لما روَّجته الإشاعات منذ ذلك الحين، اعتُرِضَ سبيل قاربي وهو يحوم بشكل مشتبه فيه بجوار المنطقة العسكرية. أهذا ما قيل لك، أليس كذلك؟

فأصدقته القول: «أجل، هذا بالفعل»، ثم أردفت على الفور، بنبرة محايدة: «ماذا كان يريد القائد؟»

«لم أقابله. عندما رسونا، طلب مني هؤلاء الرجال مرافقتهم. واصطحبوني إلى حجرة عارية الجدران، وأجلسوني على كرسي معدني، ثم انصرفوا مغلقين الباب من الخارج بمزلاج. طلبت منهم التحدث إلى برتولو، فزعموا أنه اضطر للتغيب، وأنه أمرهم باستبقائي في هذا المكان ريثما يعود. فقلت لهم إنني أستغرب الأمر كثيراً، فرئيسهم لطالما تعامل معي كصديق. وأضفت إنني أفضل العودة إلى بيتي، والرجوع للقائه لاحقاً. كان من بينهم شخص أعلى رتبة من الآخرين، ويبدو أنه يمارس عليهم النفوذ. فبادرني بخبث وسوء نية: «لقد دخلتَ بصورة غير قانونية في محيط قاعدة عسكرية. ولن تغادر

هذا المكان قبل أن تعترف لنا بسبب مجيئك». فأجبت بصبر إنني لم أرتكب عملاً غير قانوني، وإنني جئت بطلب من زملائه. وبالطبع، لم أكن أخبره شيئاً جديداً، ولكن كان يجب أن أقول ذلك. ومن الواضح أن هؤلاء الشبان يريدون معرفة ما يجري في سائر أنحاء العالم، ولكنهم اختاروا الخشونة عوضاً عن طرح الأسئلة مثلك بصورة متحضرة».

ابتسم لهذه المقارنة، وابتسمت كذلك بدوري. ونظراً إلى أنه ما من سبب لديَّ للتشكيك في صحة ما رواه لي حتى هذا الحد، لان موقفي منه قليلاً. ولكنه لم يصل بعد إلى أشدِّ ما أخشاه. فلزمت الصمت لأدعه يكمل كلامه.

«أخضعوني لاستجواب رسمي: من أكون، ومن أين أتيت، وكيف حصلت على وظيفتي كملَّاح، ولحساب من أعمل حقاً. ولو شئت الخروج من هذا المكان «ماشياً على قدمي»، فمن الأفضل لي أن «أعترف بكل شيء». كانوا يريدون أن ينتزعوا مني اعترافاً بأنني أعمل لحساب قوة غريمة. ويبدو أنهم يظنون بأن كل ما يجري منذ الأسبوع الماضي مجرد مؤامرة حاكها الأميركيون أو الروس أو الصينيون أو الله أعلم. لم أسعَ إلى إزاحة الغشاوة عن أبصارهم؛ فالإنسان يجب أن يستحق معرفة الحقيقة، أليس كذلك؟ فقلت لهم إنني لا أعلم أكثر مما يعلمون، وإنهم يضيعون وقتهم ويضيعون وقتي، ومن الأفضل لهم أن يدعوني أنصرف في حال سبيلي وأعود إلى بيتي.

«لم يعجبهم ما قلت. فأرغموني على الوقوف، ووضعوا أصفاداً

في معصمي، خلف ظهري. أحسست بأنهم سيعمدون إلى استخدام العنف، ولم أشأ أن أُعامل بوحشية». فقلت لهم: «لست يسوع الناصري!». فسألني زعيمهم: «ماذا تقصد؟». أجبته بالنبرة نفسها: «أقصد أنكم إذا ما ضربتموني على خدي الأيمن، فلا تتوقعوا مني أن أناولكم خدي الأيسر».

«تبادلوا جميعاً النظرات، وضحكوا ضحكة عصبية جماعية. ثم اقترب مني الشخص نفسه، وصفعني صفعة مدوية. وعلى الفور، انطفأت كل الأضواء في شيرون الحصن، وانقطعت الاتصالات. فأصدقائي الذين كانوا يتابعون الحديث كلمة كلمة، تأهبوا للتحرك لدى أقلِّ إشارة مني أو أقلّ إنذار. وعندما تبين لهم أنني أتعرض لسوء معاملة، تدخلوا لإنقاذي».

«كيف تدخلوا؟».

اكتفى أغاممنون بالرد قائلاً:

«كما يعرفون التصرف...».

وابتسم ابتسامة غامضة ليفهمني أنه لن يقول لي المزيد عن هذا الجانب من الأمور. غير أنني كنت قد قرَّرت، هذه المرة، ألا أرضى بما تنازل وصارحني به. كانت زيارة غابريال وجدها ونسيبها البارحة حاضرةً في ذهني. فحرصت على الإحاطة بكل تفاصيل ما جرى في قاعدة شيرون الحصن. وردَّدتُ، ببرودة فائقة، الكلمات نفسها التي تفوَّه بها أغاممنون:

«كما يعرفون التصرف...».

لم أقل المزيد، ولكن كان ذلك كافياً لكي يفهم زائري أن عليه مراعاة حساسيتي المشروعة على نحو أفضل بقليل.

«إذا كنت تحرص على معرفة ذلك، سأصارحك».

ربما كان يأمل أن أكتفي بانتصار رمزي، ولكن ليس اليوم.

«أجل، أحرص على معرفة ذلك».

كان كلامي واضحاً لا لبس فيه. وأشعلت على الفور سيجاراً صغيراً لكي أفهمه بأنني أترك له الكلام لبعض الوقت.

«مفهوم» ثم تنحنح وقال: «فلنبدأ بما جرى البارحة عند الجنود. أنت تريد على الأرجح أن تعرف إذا استعمل قومي أدوات أو مواد تُبرّر وجود هذه النسبة المرتفعة من الإشعاعات التي تصمُّ بها السلطات المحلية آذاننا منذ يومين. الجواب هو: كلا، على الإطلاق».

كنت على علم بذلك عن طريق مورو، غير أنني أخفيتُ عن أغاممنون أنني على علم. اكتفيت بأن أومأت برأسي لكي أشجعه على مواصلة الكلام.

«تقوم التقنية التي يلجأ إليها أصدقائي على إرسال حزمة من الموجات، يمكن مقارنتها بمسلاط قوي، واسع المدى، ولكن الضوء الذي ينبعث منه غير مرئي. وإذا ما صُوِّب إلى الهدف، يشلُّ في الحال الجهاز العصبي من دون التسبب بأضرار دائمة. هل هذا واضح؟».

كان كلامه واضحاً في الواقع، وإن كنت أجهل بالطبع التكنولوجيا التي تتيح القيام بذلك.

«هل تعلم لماذا كنت محتجزاً؟ وإذا كان غيرك قد تعرَّض للمغامرة العاثرة نفسها؟».

«ما حصل لي كان على ما يبدو حادثاً معزولاً تسببت به بعض العقول المتهورة. وأيا كان الأمر، فقد سرت شائعات بصورة مشتبه فيها في جميع أنحاء العالم مفادها أن معدَّلات هائلة من الإشعاعات قد اكتشفت. وهذا غير صحيح، هنا وفي أماكن أخرى على السواء، هذا غير صحيح بتاتاً، وكل الدلائل تشير إلى أن الأمر يتعلق بحملة دعائية تهدف إلى الحطِّ من قدرنا».

وهذا أيضاً كنت على علم به عن طريق مورو، ولكنني اصطنعت الدهشة لتشجيعه على مصارحتي بالمزيد. وفي الواقع، أسرَّ لي الملَّاح، مثل صديقي في واشنطن، بتقارب آراء، وربما بتنسيق، بين جميع الذين كانوا يريدون إفشال «التطهير» المزعوم.

هل يكون ذلك صحيحاً؟ هل تكون جميع أمم الأرض، ولمرة واحدة، قد تغاضت عن خصوماتها، وشكوكها الأزلية، لرص صفوفها في مواجهة هؤلاء «الحكام» الذين يسعون إلى إخضاعها، وإلى تجريدها من أسلحتها؟ وإذا كان هذا ما في الأمر، فالمأساة التي تدور أحداثها ستكون قد منحتنا العزاء وسط البؤس. غير أنني لم أصارح أغاممنون بأي شيء من كل ذلك بالطبع، مكتفياً بالرد عليه، وأعترف أنني فعلت بشيء من الخبث:

«أتظن حقاً أن عسكريين ومدنيين من كل بلدان العالَم قد استطاعوا الضلوع معاً في المؤامرة نفسها؟».

«أدرك أن فرضيتي تبدو لك بعيدة عن الواقع. ولكن فكر معي قليلاً! ما أكثر القادة الذين يشعرون بالتهديد بسبب تدخلنا! إنهم يرغبون في إقامة الدليل على أننا أقل كفاءةً وأقل فعاليةً مما يبدو علينا، وأننا نرتكب أخطاء ونلحق أضراراً. إنهم يتطلعون إلى إخفاق مساعينا، ورؤيتنا نرحل بأسرع ما يمكن».

بقيت محصَّناً في صمتي، بل قاومت الرغبة في أن ألفت انتباهه إلى أن قومه استعانوا بحيل مماثلة عندما لوَّحوا بالخطر الزائف المتمثل في كارثة نووية لتبرير تدخلهم.

افترقنا، أنا والملَّاح، بعد أن تصافحنا بحرارة تفوق تلك التي تصافحنا بها لدى مجيئه. وكان ذلك من دواعي سروري. فأنا لا أرتاح أبداً أمام البغضاء، حتى عندما أكون مقتنعاً بأنني على صواب.

ويبدو لي أن ذلك هو الوضع اليوم. هو وقومه يتهموننا، ونحن نتهمهم. يضلِّلوننا، ونضلِّلهم. ولكن المقارنة خادعة، لأننا نحن فقط نعاني. سيرحلون قريباً كما وفدوا، وعلى الأقل إنهم يعدون بالرحيل. وربما سيخلف هذا القرب الوجيز مع أبناء قومنا سماً في نفوسهم؛ أما أجسادهم فمن المفترض، على أي حال، أن تبقى سالمة.

إخوتنا غير المنتظرين، ما أقل شبههم بنا! إنهم يشبهوننا كما نشبه نحن البشر في العصر الحجري القديم. ماذا كان سيحلُّ بهؤلاء الأسلاف المساكين لو اقتحمنا كهف لاسكو بحفَّاراتنا، وقنابلنا المسيِّلة للدموع، ومسالطنا الضوئية، أثناء انصرافهم لرسم بهائم حمراء

على الجدران؟ لكانوا انهالوا علينا ببعض الحجارة، وصبُّوا علينا بعض اللعنات، قبل أن تزهق أرواحهم اختناقاً. ولكُنّا جاهرنا بأنهم استحقوا مصيرهم، لأن كهفهم موبوء صحياً، ولأنهم يعاملون الحيوانات وأبناء جنسهم بقسوة. هذا ما يحصل لنا اليوم، مع مراعاة ما يقتضيه اختلاف الحال...

اللعنة على مخلِّصينا!

السبت ٢٠ تشرين الثاني

كان في فمي مذاق الرماد هذه الظهيرة. وهذه الليلة، فيه مذاق حلوى المرصبان وزهر البرتقال. غير أن مخاوفي لم تتبدَّد، لا بشأن سكان هذا الأرخبيل، ولا بشأن سائر البشرية؛ ولكن مزاجي يميل إلى الطيش والخفة. فالغد سيحمل في طياته الردى في جميع الأحوال، والماضي أيضاً، ووحدها اللحظة الراهنة تحمل الحياة، مثلما تحمل حبةُ العنب الشمس والثمالة.

ها أنا ذا أكتب مثل جارتي الروائية! إنني أتشتَّت... يجب أن أظلَّ متمسكاً بالأحداث حصراً. إنها درامية بما يغنيني بالقدر الكافي عن التهويل! وإنها مذهلة بالقدر الكافي بما يعفيني من التنميقات الأسلوبية، ومن اللجوء إلى الفاكهة المثمرة على سبيل الاستعارات المجازية، على سبيل البهرجة!

فقرابة الظهيرة، سلكتُ طريق بور-أتلانتيك، على الرغم من تحذيرات البلدية، لأجل التسوق. كنت أحتاج إلى تخزين بعض المؤونة، من المنتجات الطازجة والمحفوظة على السواء، تحسباً لاستمرار تدهور الأوضاع خلال الأيام والأسابيع القادمة.

كنت قد بلغت وسط ممرِّ الـ«غواي» عندما دوَّت أصوات وتناهى هديرها إلى مسمعي. في هذه البقعة المعلَّقة بين السماء والبحر، حيث أقل سائقي الدراجات تواضعاً يرتقي إلى مصاف البهلوان، تبدو كل الأصوات في غير محلها، عدا قهقهات طيور النورس وبوق الإنذار. ولدى اقترابي من الضفة الأخرى، لمحت أذرعاً مرفوعة، ورؤوساً، وعصياً، ولافتات. لم أجهد كثيراً لتمييز الكلمات التي رسمت باللون الأحمر، لئلا أنحرف عن سكَّتي. ففي اعتقادي أنني إذا انزلقت على البلاطات، وهويت في البحر، لن يأتي أحد لإغاثتي.

كم كان عدد المتظاهرين على هذا النحو؟ نحو ستين شخصاً، لا أكثر. ولكن في شهر تشرين الثاني هذا، في الأرخبيل، وبسبب اللغط والجلبة، حسبتهم حشداً غفيراً.

كان هدفهم بيت الملَّاح. وسأكذب لو قلت إنني فوجئت بالأمر. فلقد كان وشيكاً منذ أن ألقى الجنود القبض على أغاممنون في شيرون الحصن، واستطاع أن يفلت من قبضتهم بالطريقة التي نعرفها. وعلى الرغم من أن لا علاقة لي قطعاً بهذا الحادث الشديد الغرابة، لم يسعني

ألا أشعر بشيء من الذنب تجاه هذا الرجل الذي أظلُّ أعتبره صديقاً. ما كان يجدر بي أبداً أن أؤكد لزواري منذ يومين، ولا حتى بأسلوب المواربة، هويته الحقيقية!

لم أقترب كثيراً، ورحت أراقب هؤلاء الأشخاص الذين يمعنون في تحطيم الأبواب والواجهات الزجاجية، وتخريب البستان، ورمي قطع الأثاث من النوافذ طمعاً بالتهليل والتصفيق، وكسر المصابيح وخلع الأسلاك الكهربائية. وفي الحقيقة، كنت أشفق عليهم أكثر مما ألومهم. فنحن جميعاً نعيش، منذ عشرة أيام، محنة مرهقة لا سيما وأنها تبقى في جلّها غير مفهومة. وعلى حين غرة، نصادف مذنباً! لا شخصاً مجهولاً تحوم حوله الشبهات، بل مذنباً حقيقياً، مذنباً ثبت ذنبه، أحد «أولئك القوم»، الوحيد الذي رأيناه، وربما الوحيد الذي سنراه.

بلغتُ هذا القدر من اعتباراتي المتسامحة، حين خامرني شك. فاقتربت من سيدة شهمة، عابرة سبيل بعينيها المتسعتين دهشة، مثلي، للتحقق، أفليس الاحتمال وارداً؟

«هل كان الملّاح في بيته؟».

«كلا! لو كان في البيت، لاقتصصنا منه!».

هذا كل ما كنت أريد معرفته. فالفتور الذي يعتري علاقتي بأغاممنون لا يعني أنني لا أبالي بمصيره. وحين أيقنت أنه لم يصب بمكروه، أصبح بإمكاني الانصراف مطمئن البال. ولكني لم أعد أرغب فجأة في الذهاب إلى السوق، كنت على عجلة من أمري

للرجوع أدراجي، على عجلة من أمري للابتعاد عن هذا الحشد وجميع الحشود، على عجلة من أمري للعودة إلى سكينة جزيرتي الصغيرة، في الجهة الأخرى لممرِّ الـ«غواي».

إلا أنني تـردَّدت في التواري عن الأنظار فـوراً. كان بعض الأشخاص يحملقون فيَّ بإصرار منذ بعض الوقت، ولم أشأ أن أوحي إليهم بأنني ألوذ بالفرار. ولكي أظهر أمامهم مرتاحاً، تجاذبت مع أقربهم مني أطراف الحديث، في شتى المواضيع، متنقلاً بين الابتسامات المتواطئة وتجهمات الشيخ الحكيم. وفي هذه الأثناء، علا الزعيق والصراخ. فلقد أقدم أشدُّ المتظاهرين حماسة على إضرام النار في البيت المشؤوم. وفي ثوان معدودة، احترق البيت، وكأن أحدهم رشَّه بالوقود. انتشر دخان مائل إلى السواد. وأنا لم أتحرك بعد من مكاني. أهو الانبهار بالنار؟ أم الخوف من إقدام بعض الساخطين الذين قد لمحوني يوماً أتحدث مع «العدو» على مطاردتي؟

كانت كل نفحة من هذا الهواء الممزوج بالرماد تشعرني بالعار، العار من هذا المشهد المهين، العار من بقائي متسمراً في مكاني، كممثل ثانوي مذعور، من دون أن تبدر مني حركة تنم عن التعقل الحق أو الاستنكار. العار أيضاً من معشر الناس أمثالي. كنت أقدِّر بلا شك قلقهم، وأتفهم حاجتهم إلى التعبير عن هلعهم، ولكن هذا التحامل الدنيء على بيتٍ فارغ يُقزِّزني.

وأخيراً، قررتُ امتطاءَ دراجتي مجدداً لسلوك ممرِّ الـ«غواي». ولم يتجشَّم أحدهم عناء ملاحقتي.

إذا ما صدقت محطتي الإذاعية المعهودة، أتلانتك ويف، فالإشاعات الجزعة التي انتشرت في هذه الأيام المنصرمة تحقَّقت: لقد وقعت حوادث خطرة بالفعل في عدة بلدان، طاولت شتى المواقع قيد «التطهير»، وأدت إلى إلحاق الأضرار وسقوط الضحايا. وتُقدِّر المحطة الإذاعية أن الأحداث الجارية ناجمة عن إجراءات متعمدة اتخذها «الأوصياء علينا» الذين ربما يسعون على هذا النحو إلى التذرع بحجةٍ لإطالة أمد «التطهير» المزعوم وتوسيع نطاقه. ولا ريب أن هذا ليس نبأ، بالمعنى الحقيقي للكلمة، بل رأياً. ولكن، وبما أن المستمعين يصدقونه، ويتصرفون بمقتضاه، فلا يجوز الاستخفاف به وعدم أخذه على محمل الجد. والمشهد التعيس الذي كنت شاهداً عليه على قاب قوسين من بيتي ليس سوى أحد التجليات الكثيرة للغضب التي وقعت منذ البارحة.

أما بخصوص المنطقة البحرية القريبة من الأرخبيل، فالمحطة الإذاعية تؤكد، في المقابل، أنها «عادت إلى مستواها الطبيعي»، وهذا أسلوب لتحسين دقة التصويب من دون الاعتراف بخطأ التقدير. ولكنها تضيف أن حالات كثيرة من «الشلل اللانمطي» قد لوحظت في أوساط

الجنود في شيرون الحصن. وتؤكد هاتان المعلومتان ما قاله لي مورو وأغاممنون على السواء. ولذلك، أستطيع أن أثق بصحتهما.

بيد أنني أظلُّ فريسة الريبة والقلق. فلقد أخبرني الملَّاح أن «حزمة الموجات» التي لجأ إليها أصدقاؤه لتعطيل أذى خصومهم موقتاً لا تخلف عواقب «لا سبيل لإصلاحها». وأشاع ذلك في نفسي الطمأنينة، ولكنني أتساءل الآن إذا كان ذلك الشلل، ومهما «تيسر إصلاحه»، لن يكون مستداماً. وفي المرة المقبلة التي سألتقيه، سأطلب منه أن يكون أكثر دقة، على افتراض أنه سيظل في النواحي، بالرغم مما لحق ببيته من خراب...

أليس أقلّ ما يقال عن تلك المستجدات إنها تقضُّ المضجع؟ فمن أين تأتيني تلك الخفة التي ذكرتها منذ قليل؟ لا شك من الشمبانيا التي احتسيت منها كؤوساً كثيرة هذا المساء، والتي ترتفع فقاقيعها على سطح عباراتي؛ وكذلك من ضحكات نديمتي.

لم تكن إيف بمثل هذا الانشراح من ذي قبل. فجارتي الغريبة الأطوار تعيش بالمقلوب، تفعمها الحماسة حين يتهالك عالمنا ويبدو على شفير الزوال، ولا ريب عندي أنها تعود وتقلُّ في الكلام وتعبس إذا استأنفت الحياة الرغيدة السابقة مسارها. وأحسب أنها الوحيدة التي

لا تلعن مخلصينا المزعومين، والحوادث التي يُتَّهمون بها؟ والجنود البائسين الذين تسبَّبوا لهم بالشلل؟ تهز كتفيها استخفافاً.

وفي الحقيقة، لقد أصابت بشأن «السحابة الإشعاعية» المزعومة. ومن جهتي، أحسستُ، بلحظة هلع، فانزويت في بيتي، وتجرَّعت بعناية أقراص اليود، إلى أن جاء مورو ثم أغاممنون ففتحا عينيَّ على الحقيقة؛ أما جارتي، في المقابل، فقد تعاطت مع «التلوث» المزعوم بازدراء. وتكاد لا تذكر أن «سائق دراجة هوائية متنكراً في زي دركي» قد مرَّ ببيتها منذ بضعة أيام وقرع بابها. ولم تكلف نفسها حتى عناء استقباله. وأقسمت لي ضاحكة أنها اكتفت بالصراخ، من نافذة في الطابق العلوي: «لا أستطيع النزول إلى أسفل، فأنا منهمكة بالكتابة!».

أصدِّقها عن طيب خاطر، فذلك هو النبأ الوحيد الذي يكتسب عندها بعض الأهمية في هذه الأيام الماضية.

«يوم الخميس، استيقظت باكراً، وشرعت في الكتابة. والبارحة، تابعت الكتابة، وهذا الصباح أيضاً. ولقد كتبت حتى الآن خمسين صفحة. منذ اثني عشر عاماً، لم أكتب ثلاث صفحات متتالية. وتطلب الأمر حدوث هذه الصدمة، وهذا اللقاء. لقد وجدت طريقي، واهتديت إلى معالمي، واسترجعت حواسي...».

«أتصور أن روايتك تتحدث عن أصدقاء إمبيدوقليس...».

«استرجعتُ حبي للحياة بفضلهم. كنت حبيسة، وها قد تحرَّرت. أريد أن أقفز! أريد أن أصرخ! أريد أن تترع كأسي بالشمبانيا إلى أن تطفح رغوتها! أريد أن يقبِّلني أحدهم!».

كانت تخاطب «أحدهم»، وهو شخص غير محدد الهوية بشكل واضح. ولكن لم يسعني التجاهل أن «أحدهم» هذا، في الظرف الراهن، ليس سواي.

أية رغبة من رغبات إيف يجب أن ألبي أولاً؟ القبلة؟ الشمبانيا؟ فنهضت بوثبة لتمويه الثواني الخمس التي استغرقها ترددي. وذهبت إلى المطبخ لإحضار زجاجة باردة، طارت سدادتها وراحت تعشش في رماد المدفأة. أخرجت من الخزانة كأسين من الكريستال المزخرف. ملأت كلاً منهما بثلاث صبّات حذقة. كانت جارتي جالسة في أريكتها، وقد ضمّت قدميها تحتها كعادتها. انحنيت من فوق كتفها، وطبعت شفتي على شفتيها، الوقت الذي يستغرقه نفس واحد، قبل أن أعود إلى مكاني في الجهة المقابلة من الحجرة.

انتظرت ريثما أغوص في مقعدي ثم قالت، وقد أغمضت عينيها: «كلا! أفضل من ذلك!».

فنهضت مجدداً، ووضعت كأسي على المنضدة قرب كأسها، وجلست على الذراع العريضة لأريكتها التي تعلوها القطيفة المضلّعة، ثم همست في أذنها: «يا جارتي!» وكأنها عبارة شوق.

كانت مصابيح الإنارة في كل مكان، فقمت بجولة عليها لإطفائها كلها، ولم أترك سوى ضياء المدفأة، الذي كان من دون ألسنة نار، لكنه متوهّج، ويرخي بانعكاساته على بشرة إيف. لم نكن على عجلة من أمرنا لكي يلتحم جسدانا، كنا نريد أولاً أن نتهامس ببطء،

ودفء، بنبرة خفيضة، على مقربة من العيون، وقد تشابكت أصابعنا. كنت أتلذذ بارتشاف صوتها، ونَفَسها، وضحكاتها المتزنة، وذراعيها المسترخيتين. كنت أمسد ثيابها براحة يدي المنبسطة وكأنها خصلات شعر متمردة. كان قلبها يدق في راحة يدي.

وبين الحين والآخر، تمرُّ في ذهني التمنُّعات نفسها، والتساؤلات نفسها حول الاتزان، التهور، الزوال، الدوام، وما سيأتي بعد. ولكنني كنت قد تجاوزت ذلك، لم يعد في وسعي الإصغاء، كان رأسي مضطرماً، ولا رغبة لدي على الإطلاق في مقايضة هذه اللحظة بأفكار متعقلة.

عندما ضاقت بنا الأريكة، نهضتُ وتناولتُ الزجاجة والكأسين من على المنضدة. واكتفت إيف بالسير خلفي، حافية القدمين، ممسكة حزامي بيديها. في الظاهر، كنت أسحبها، ولكنها كانت هي التي تقود العربة. أولاً نحو السلم، ثم نحو غرفتها، حيث تركتني أضع على الخزانة كل الزجاجيات التي أحملها، قبل أن ترمي بي على الفراش.

كان في اندفاعها نزق الرغبة، إنما كذلك احتدام الانتصار. لقد قاومتها في ذلك المساء، وتظاهرت بأنني لا أفهم تلميحاتها؛ وهذا المساء، لم تكن تلميحات، بل طلبا حازماً، فاستسلم الذكر بلباقة. ربما أندم على ذلك غداً، أما اليوم فلست نادماً. لقد اختلست بضع ساعات من العدم، وتشبثت بالجسد العاري للمتواطئة معي مثلما يتشبث المرء بالحياة، ولهثتُ بجسارة.

بعد ذلك، غفت، ورأسها يرقد فوق كتفي. لقد جفاني الكرى، ولم أكن حتى أتودد له. لطالما كانت الشمبانيا وممارسة الحب تفعل فيَّ مفعول الكافيين. فكنت متيقظاً، رأسي يعصف بالأفكار، وتتملكني الرغبة الجامحة في الرسم والكتابة، ولكني حرصت على عدم التحرك قيد أنملة. فلم أكن أرغب على الإطلاق في إيقاظ جارتي، ما ألطف هذه الكلمة وأشدها حميمية حين تهمس من هذه المسافة القريبة؛ وعندما تلفظ بالإنكليزية، تكتسب دلالة إنجيلية، توراتية. أحبَّ جارك! أحب قريبك، جارك، جارتك...

فكنت أقول إنني لم أشأ إيقاظ جارتي، ولا سيما أنها أسرَّت لي بأنها قد بدَّلت إيقاع حياتها منذ أن استأنفت الكتابة. فعاد النهار مجدداً نهاراً عندها، والليل ليلاً. لم أشأ على وجه الخصوص أن تهدد لحظة السعادة التي عشناها معاً تلك السعادة الأخرى، البالغة الأهمية عندها: الكتابة المستعادة. وحتى لو اضطررت إلى البقاء في هذه الوضعية حتى بزوغ الفجر ألوكُ كلمات، وأجترُّ نتفَ أفكار، لن أحرك ساكناً.

تحركت هي قبلي. ولكنها فعلت فقط بعد انقضاء ساعة. استدارت في نومها لاسترجاع راحة وسادتها. فانسللتُ خارج الفراش على الفور، ببطء شديد، من دون إحداث ضجة.

لن أنكر أنه قد خطر ببالي لوهلة وجيزة أن أرتدي ملابسي وأعود إلى النوم في بيتي، في سريري. غير أنه كان سيتراءى لي أنني أخون إيف، وأسرق منها حصة من المتعة التي أدين بها لها... فليلة الغرام،

سواء أكان لها غدٌ أم لا، لا تنقضي ليلاً، مثل عملية سلب مبتذلة. فلم أكلِّف نفسي حتى عناء ارتداء ملابسي. وفي اللحظة التي أخطُّ فيها هذه السطور، لا أزال متدثراً بأحد برانسها، الذي كان فضفاضاً بالقدر الكافي. وتناولتُ من رزمة على الخزانة بعض الأوراق البيضاء، وطويتها أربع مرات لكي يتسنى لي دسَّها لاحقاً في مفكرتي، ومضيت أجلس قرب المدفأة.

كنت قد عاهدت نفسي على عدم تأجيل سرد ما جرى اليوم إلى الغد، خشية تداخل الأحداث وفقدان روح هذه اليومية، فثابرت خلال ساعتين على سرد مجريات هذا السبت الطويل من شهر تشرين الثاني، الذي استهلَّ من أمام بيت الملَّاح، وسط الحشد والزعيق والدخان؛ وانتهى هنا، في ذلك البيت الآخر من بيوت الأرخبيل، وقد سكنت نفسي، واسترخى جسدي، وفي فمي، أجل، مذاق«المرصبان» ذاك...

كُتبتْ صفحاتي. وعندما سألمح في الخارج ضوء النهار يشقُّ سبيله، سأعدُّ القهوة، وأحملها معي إلى الطابق العلوي، وأفتح الستائر، وأشقُّ المصراعين، ثم أعود وأجلس على حافة السرير لإيقاظ إيف بقبلة.

المفكرة الثالثة

سفن راسيات

«يقتفي الحشد أثري يسألني
أن أهدي الناس السبيل،
بعضهم يريد سماع نبوءات
وبعضهم أتى سقيماً عليلاً
يطمع مني بكلمة
تنزل كالبلسم الشافي»

إمبيدوقليس، التطهرات

الأحد ٢١ تشرين الثاني

بما أنه لم يغمض لي جفن قبل السابعة صباحاً، فقد نهضتُ بعد الظهر. ها أنا ذا ألفي نفسي وسط فارق التوقيت، في اللحظة التي تستعيد حبيبتي إيقاع الشمس، وكأنه لا بد، على هذا الكوكب الصغير المدعو أنطاكية، أن يكون أحد ساكنيه مستيقظاً على الدوام.

والمزعج، مع هذا الانقلاب في المواقيت، أن الليل قد أقبل حين استيقظت. فعدم استطاعتي الانغماس بملء جوارحي في الضياء الصباحي الباهر يثير في نفسي هلعاً كئيباً. واعتباراً من الغد، سأسعى جاهداً لاسترجاع معالمي وأنفاسي.

هل الظلمة هي التي تجثم اليوم فوق صدري وتُكدِّر مزاجي إلى هذا الحد، في حين كنت أبحر على أمواج الفرح بالأمس؟ ربما. ولكن

الحق يقال أيضاً إن الأحوال المستجدة للعالم لا تسمح باستشراف مستقبل مشرق. إنني أستمتع بما توفره لي اللحظة الراهنة، غير أنه لا يسعني أن أتعامى عن جوهر المسألة، وهي أننا أصبحنا، أنا وأمثالي، بشرية عفَّى عليها الزمن، محكومة بالفناء الثقافي والمعنوي، أو على الأقل بتهميش بالغ. ولربما سنحصل من أسيادنا على شيء ما بالمقابل؛ ولكن أنى للإنسان أن يعوض كرامته المسلوبة؟

عندما استيقظت، كانت الساعة، كما قلت، قد تجاوزت الثانية بعد الظهر، وأغاممنون في بيتي، ينتظرني. كان يجلس في غرفة معيشتي، وقد ألقى قدميه على منضدتي الواطئة، ووضع مذياعي في حجره. لدى رؤيتي، نهض، ونزع قبعته باستعجال مؤدب، وأحنى رأسه.

بادرني قائلاً: «أتيتُ أطلب ملاذاً».

للتلفظ بهذه الجملة، اضطر للاستعانة، كما تخيلت، بكل مواهبه التمثيلية. وهو يتمتع بهذه المواهب لا ريب، لأنه يؤدي منذ سنتين دور «الملَّاح المتواضع»، وكان بإمكانه أن يواصل تأديته من دون افتضاح أمره لو لم يشهد العالم كل هذه الاضطرابات. غير أنني لم أعد أستطيع، من ناحيتي، أن أعتبره صادقاً. لقد شاهدت، بالتأكيد، بيته يُدمَّر، ويُحرق، والجموع تتأهب للتنكيل به، مما يضفي على طلبه الملاذ موثوقية ومشروعية من الناحية النظرية. وفي الوقت نفسه، هذا الشخص القادر على مواجهة كتيبة بأكملها، والذي يتحكم أبناء قومه بمصير أبناء قومي، ما حاجته إلى حمايتي؟ وإذا ما تعقبته جموع تريد

الاقتصاص والانتقام منه، فكيف أستطيع إنقاذه من غضبها؟ ألن يُنكَّل بي بالأحرى معه؟ طرحت عليه هذه الأسئلة من دون لف أو دوران.

لم يحاول المراوغة.

«ألك، سامحني! كنت أمزح بحديثي عن الملاذ. كان غرضي فقط الاعتذار عن دخولي دارك من دون أن أقرع الباب، وأن أتصرف وكأن الدار داري. ولا بد لي من القول إنني أصبحت هذا الشخص السيِّء السمعة الذي لا يمكن الاختلاط به بمنأى من العقاب. لن أطيل البقاء...».

«تستطيع أن تبقى عندي بقدر ما تشاء، فسكان الأرخبيل لن يأتوا لتدمير بيتي لأنك جئت لزيارتي. إنهم ليسوا أوباشاً، ولكنهم خائفون. ضع نفسك مكانهم! كيف لا يخافون أمام حالات الشلل الغريبة التي أصيب بها الجنود في شيرون الحصن؟».

«كنت أنوي أن أحدثك عنها، بالضبط».

«لم تقل لي إن الأسلحة التي استخدمها قومك لا تُخلِّف آثاراً لا سبيل لإصلاحها؟».

«بلى، قلت لك ذلك، وها أنا أؤكد ما قلته. ثمة اضطرابات في الانسيابات العصبية، تحدث خدراً في الأطراف، ولكن ذلك لا يتلف الأعضاء الحيوية، ثم تعود الأمور إلى حالها بعد فترة».

«بعد كم من الوقت؟ ساعتين؟ ثمان وأربعين ساعة؟ ستة أسابيع؟ عشر سنوات؟».

«هذا يتوقف على الأشخاص، وكذلك على الجرعات. ففي حالة الجنود في شيرون الحصن، يبدو لي أن الأمر سيستغرق أسابيع...».

« وأما من وسيلة للتعجيل بتماثلهم للشفاء؟».

«بلى، ثمة وسيلة، ولذلك جئت لزيارتك».

لزم الصمت. كان يبدو متردداً حول ما يجب أن يقوله لي. فلم أشأ أن أسهِّل له المهمة، وانتظرت من دون أن أنبس ببنت شفة. فمضى يقول:

«يفكر قومي في القيام بمبادرة».

«لإصلاح الأضرار؟».

«أجل، نوعاً ما».

« وماذا سيفعلون؟»

« سأخبرك في غضون أربع وعشرين ساعة».

«لم أعد بمزاج اللهو بالأحاجي يا أغام! لا شيء يمنعك من أن تقول لي الآن ما ستقوله لي بعد أربع وعشرين ساعة».

«تحدثت عن أربع وعشرين ساعة لأن قراراً قد اتخذ: فإما أن ننسحب، وإما أن نبقى لبعض الوقت بينكم».

«وهذا الأمر رهن بماذا؟».

«يدور نقاش الآن بين أبناء قومي. يقول بعضهم إننا قد أصبنا عندما تدخلنا، ولكن آن الأوان للتواري عن الأنظار؛ ويرى بعضهم الآخر، مع الإعراب عن الأسف لأننا تدخلنا، أنه قد فات الأوان كثيراً

للتقهقر؛ ويعتبر آخرون أيضاً أن من واجبنا، مهما كان قرارنا في المدى الطويل، أن نصلح فوراً الأضرار التي تسبب بها تدخلنا...».

«وأنت؟».

«أنا من الذين لم يرغبوا قطعاً في هذا التدخل. ولو رجح رأيي، لكنت بقيت بهدوء في موقع مراقبتي، من دون أن أثير الانتباه، وتماهيت إلى الأبد مع عالم البحارة المسالم. أعتقد أننا أخطأنا بالتدخل في شؤون العالم، وأن من الأجدى لنا الانسحاب في الحال».

«وهل سترحل أنت أيضاً؟».

كان لا بد لي من طرح السؤال، وإن كنت أعرف الجواب سلفاً.

«بعد كل ما جرى، سأكون مجبراً على مغادرة الأرخبيل، للأسف. وإنني أشعر بالمرارة جرّاء ذلك؛ ولكن لا مفر من ذلك...».

منحته ثواني من التعاطف، قبل أن أستنطقه من جديد:

«وماذا سيفعل قومك من أجل «إصلاح الأضرار»، كما تقول؟».

«لا أدري بعد، أنتظر رسالة ستصلني اليوم. أعلم، في جميع الأحوال، أن أمراً ما قد يحصل عما قريب، وأن عليكما، أنت وإيف، أن تظلا يقظين».

أن نظلَّ «يقظين»؟ كيف نظلُّ «يقظين»؟ لا أعلم على الإطلاق.

كان قد غادر بيتي عندما سألته، وأنا أبذل جهداً لكي لا أبالغ في إظهار قلقي.

«ما تحاول أن تقوله لي إن خطراً ما يحدق بنا، أنا وجارتي. أهذا ما في الأمر؟».

«ربما. ولكن لا تبالغ في الجزع، وأنت وهي، ستنعمان، على السواء، بالحماية».

عاد يقرع بابي بعد ساعتين، معتذراً لإقلاق راحتي بهذا الشكل.

«كنت عند إيف. وتبين لي، أثناء حديثي معها، أنني أثرتُ قلقكما، مع أنني جئت بالضبط لكي أطمئنكما».

ابتسمتُ وعقدت ذراعي:

مكتبة
t.me/t_pdf

«عظيم، طمئني، كلي آذان صاغية».

«يتراءى لي أنها تكنُّ لك بالغ المودة».

لم أكن أسعى للحصول على الطمأنينة في هذا الشأن، ولكنني سررتُ بالملاحظة.

«وأنا بدوري أكنُّ لها محبة حقيقية».

لماذا قلت ذلك؟ ليس لدي أي سبب يبرر هذا البوح للملّاح. ولكن الكلمات خرجت من فمي عفوياً، ولست نادماً على أنني تلفظت بها.

فتبدلت سحنة أغاممنون. كان يبدو متأثراً.

«إيف تكتسب أهمية عندنا، كما تعلم، ومنذ سنوات طويلة».

كدت أن أقول له إنها تكتسب أهمية عندي منذ بضعة أيام فحسب. غير أنني نجحت هذه المرة في ضبط نفسي، واكتفيت بالقول:

«أجل، أدركتُ ذلك. ويبدو لي أن نظرتكم إليها، أنت وقومك، قد أحدثت فيها تحوُّلاً».

أومأ برأسه مراراً إعراباً عن موافقته واستحسانه، ثم مضى يقول:

«ويتراءى لي أنه لم يخف عليك أنني قبلت بوظيفة الملَّاح هذه لأجلها، لكي أبقى على مقربة منها وأسهر بتكتم عليها».

أجل، وأنت تتساءل الآن عما سيحصل عندما ستغادر المكان...».

قال لي: «لست قلقاً أكثر من اللازم». ولكن، بالطريقة التي قالها، كان ذلك يعني العكس تماماً.

هل سيكلّفني بالسهر عليها، لأنني كنت جارها الوحيد؟ لم يفعل ذلك، مكتفياً بتكرار ما قاله:

«إنها تكتسب أهمية عندنا...».

ثم تابع يقول، وقد تبين الكمد في وجهه:

«إنها مستوحدة، وهشة، وضعيفة».

كاد حديثنا يأخذ منحى متهدِّجاً، فسارعت إلى تحويل مساره.

«بما أن جارتنا تكتسب عندكم كل هذه الأهمية، لا بد أنك صارحتها بأمور لم تصارحني بها».

كنت أتوقع إنكاراً، ولكن الأمر كان بمنزلة اعتراف مموَّه، مبطَّن بتوبيخ.

«لقد أجبت عن أسئلتها بقدر ما أجبت عن أسئلتك، ولكنكما لم تطرحا الأسئلة نفسها».

«وبرأيك، ما هي الأسئلة التي كان يجدر بي طرحها؟».

ابتسم بأدب أمام حذاقتي الظاهرية، ثم نهض وتوجه نحو الباب الزجاجي، وتأمل من خلاله السماء والأفق البحري مطولاً. وبعد ثوان معدودة، التفت نحوي، وعقد ذراعيه، واستند إلى الحائط. كان يبدو أنه قد قرر إماطة زاوية من اللثام. وتراءى لي أنني ألمح الكلمات تزدحم على عتبة شفتيه المطبقتين، حتى كادت تجعلهما ترتجفان. ومع ذلك، فقد طال صمته. وقررت أن أدعه بنفسه يصوغ الأسئلة والأجوبة على السواء، ولكن كان بإمكاننا البقاء صامتين إلى الأبد. وأخيراً، استسلمت وسألته:

«كيف لم نشك بوجود قومك بيننا طوال كل هذه السنوات، بل وطوال قرون خلت؟».

تظاهر بالتفكير ملياً، ولكن تبين لي بأن سؤالي لم يأخذه على حين غرة، وأن جوابه كان جاهزاً منذ وقت طويل. وأخيراً، قال، على سبيل التوطئة:

«إننا نستخفُّ دائماً لدى البشر برغبتهم في التعامي. إذا لم يرغبوا في أن يعلموا بأنك موجود، باستطاعتهم أن يكونوا بمحاذاتك طوال حياتهم من دون أن يلمحوك أبداً».

ثم أضاف، وقد انتقل إلى موضوع آخر فجأة:

«مع جارتك، نتكلم بالأخص عن إمبيدوقليس العجوز. إنها تهتم به منذ عهد بعيد، بل وتحفظ بعض كتاباته ظهراً عن قلب».

وتوضيحاً لكلامه وسعياً للإجابة عن السؤال الذي طرحته، راح يلقي بالقدر المطلوب من الحيطة في الإلقاء:

«مثل رجل يتأهب للخروج في ليلة عاصفة، ويضيء شمعته بمنأى من الريح، اختبأت النار القديمة في الكهوف...».

وتوقف ثم استطرد، بمزيج من الألم والفخر ،كما تراءى لي:

«غير أن الشعلة المحسنة لم تنل سوى نزر يسير من الأرض».

«أكان يتحدث عن قومك؟»

أومأ زائري برأسه نفياً.

«إمبيدوقليس الأغريجنتي لم يعرف البشر الذين انتسبوا إليه. ولكن قدره كان يوحي بقدرنا. فلقد رمى بنفسه في أتون النار سعياً للانسحاب من العالم، مثلنا».

وصمت الملّاح مرة أخرى، غارقاً على ما يبدو في أفكاره. كان ألف سؤال يدور في رأسي، ولكنني انتظرت هذه المرة أن يتخلى بمفرده عن صمته، وأن يختار كلماته بروية.

«إمبيدوقليس هو أحد الأشخاص، النادرين جداً، الذين يتجاور فيهم العالم الحقيقي وعالم الأساطير. ويحاط اسمه بالإجلال عندنا، وتذكر تضحيته على الدوام. ولكن لا تظننَّ أننا نعتبر كتاباته وحياً منزلاً! كثيراً ما نستشهد بها، ولكن مثلما تستشهد ببيتين من أبيات شكسبير أو جملة لنيتشه أو دعابة لأينشتاين. والحق يقال إن بعض كلامه يبدو أنه ينبئ بالمغامرة التي انخرطنا فيها بل ويشجّع على خوض غمارها».

وعاود الإلقاء، بنبرة لا تخلو من التأثر:

«ستصدُّ الرياح التي تعصف بالأرض بلا كلل، وتهبُّ عاتية فتتلف المحاصيل. ولو شئتَ، ستحضر الرياح المناوئة؛ ومن الأمطار السوداء ستصنع جفافاً مواتياً للبشر؛ ومن القحط الشديد ستصنع الأنساغ المرضعة للأشجار التي تسكن الأثير...».

ثم صمت، على نحو تراءى لي مباغتاً، لا سيما وأن البارقة نفسها ظلت تلمع في عينيه، وكأنه يتابع الإلقاء في سرِّه... كنت منهمكاً في حفظ هذه الكلمات السحيقة عن ظهر قلب، فتفاديت أن أستوضح، وتركته بالأحرى «يحطُّ بهدوء»، وهذا ما فعل بعد ثوان معدودة، مطلقاً تنهيدة قلق مديدة.

«هذا اللقاء بين قومك وقومي، ليس جمع شمل ويا للأسف بل إنه اصطدام. ولن يخرج منه أحد سالماً معافى. كان لتدخلنا علة وجود؛ ولكن، نظراً للحوادث التي وقعت وتلك التي ستقع لا محالة في الأيام والأسابيع القادمة، سيكون من الصواب وضع حدّ له في القريب العاجل. ويبقى أن يجري الانسحاب بأقل قدر ممكن من الألم. وأنا أرغب في أن نرحل دون إبطاء. فكل بادرة جديدة نقوم بها تزيد من غرقنا. وكل وعد جديد يجرُّ علينا بضغائن جديدة. إنها دوامة!».

«لا أفهم جيداً يا أغام. أولاً، تقول لي إن قومك يتباحثون في «تعويض» الإساءات التي تسببوا بها. والآن، تتحدث عن رحيل فوري».

«الرحيل فوراً، هذا ما كنت أرغب فيه شخصياً! ولكن معظم أبناء قومي يخالفونني الرأي. إنهم يعتزمون اتخاذ مبادرات، لكي يخلفوا ذكرى عطرة بعد رحيلهم...».

«بالمناسبة، أخبرني صديقي في واشنطن أن ديموستينس وعد الرئيس ميلتون بشفائه...».

«أجل، علمت ذلك، وكنت أفكر بالضبط بمثل هذه المبادرات، وسيكون ذلك ضرباً من الفظاعة!».

«فظاعة؟ إنقاذ رجل من داء السرطان، فظاعة؟».

«أكثر مما يسعك أن تتخيل! لقد حاولنا تخليص الكرة الأرضية من وسائل الإبادة، وانظر كم يثير ذلك من ردود فعل مناوئة لنا!».

«الأمر يختلف. فالدول لا ترغب في أن تُجرَّد من وسائل قوتها؛ أما شفاء رجل من السرطان، فهذه بادرة من نوع آخر. ولا يمكن لأحد أن يلومكم عليها».

«لا تكن واثقاً بهذا الشكل! سنُلام عليها! وفي البداية، سنُلام على شفاء رجل، وترك الآخرين يموتون. ففي العالم ملايين البشر الذين يموتون بالداء نفسه. فلماذا نشفي الرئيس ميلتون وحده من دون غيره؟».

«وبالمناسبة، لماذا؟»..

وقبل أن يتمكن من الرد على سؤالي، رنَّ هاتفه، فوضعه على أذنه وأشار لي، بحركة من أصابعه، أنه سيتمشى في الخارج. فأشرت عليه

بالجلوس بالأحرى، وأنني أنا سأخرج، فقد كنت أرغب في المشي قليلاً على دروب الجزيرة ما دام فيها بقية ضياء.

فتوجهت إلى الشاطئ القريب، مستعرضاً في ذهني حديثنا. وفي لحظة ما، جلست على حجر لتدوين كل ما قاله الملّاح قبل أن أنساه، بدءاً بأقوال إمبيدوقليس...

يجدر بي أن أقرأ قليلاً عن حياة الفيلسوف القديم، وأن أحاول العثور على كتاباته، لأنها لم تُفقد كلها. تستطيع إيف بالتأكيد أن تنصحني، في هذا المجال... فلربما أفهم على هذا النحو بشكل أفضل قليلاً ذهنية هؤلاء الذين باتوا يحكموننا - أو على الأقل، يشرفون علينا، والذين، على حد قول أغاممنون، وبالرغم من إحساسه بالذنب، لا يبدو أنهم سيختفون في القريب العاجل.

ثم عدتُ إلى البيت. كانت ساعتي تشير إلى السادسة مساء إلا خمس دقائق. فدخلت من دون إحداث ضجة من الباب الذي يفضي إلى غرفة نومي، وفتحت المذياع قرب سريري لأسمع، كعادتي، النشرة الإخبارية المفصلة لمحطة أتلانتك ويف.

هل سنحت لي الفرصة للقول إن جميع الأحداث التي كانت تشكل سابقاً أبرز العناوين قد اختفت؟ فالنزاعات الإقليمية، والمتفرقات، وأخبار الاقتصاد، والرياضة، بل والأحوال الجوية لم تعد تذكر على الإطلاق، كل شيء توقف، كل شيء أصبح معلّقاً. وخلال

نصف ساعة استغرقتها النشرة الإخبارية، كان الخبر الوحيد الذي لم يذكر، بطريقة أو بأخرى، «أبناء وطن» أغاممنون، هو وفاة عضو في الحكومة البريطانية بالسكتة القلبية. وكانت بقية النشرة مجرد جولة حول العالم لاستعراض الاضطرابات التي حصلت في المواقع التي قام أصدقاء الملّاح بتفتيشها؛ سبحة من الحوادث الغريبة، والإشاعات التي تسري، والتوقعات الغامضة.

ومرة، أثناء النشرة، ألقيت نظرة على غرفة المعيشة، وكان زائري لا يزال يتكلم على الهاتف. فأغلقت الباب بهدوء، واستلقيت على السرير، وأخفضت صوت المذياع قليلاً. وأثناء الاستماع إلى صوت مقدِّمة النشرة، لم أستطع الامتناع عن طرح ألف سؤال مجدداً بشأن «أبناء الوطن» المزعومين. مع من كان أغاممنون يتحدث؟ من كان الشخص على الطرف الآخر من الخط، وأين يوجد؟ أفترض أنه في «إمبيدوقليس». ولكن أين يوجد بلد إمبيدوقليس؟ أهو يختبئ في قلب عالمنا، أم يوجد في مكان آخر؟ هل هي «مكالمة محلية» أم «دولية»، كما كان يقال فيما مضى؟ وبأية لغة تدور؟ كم من الأسئلة تظل من دون أجوبة! لن أعدِّدها مرة أخرى، فالقائمة لا نهاية لها بكل معنى الكلمة.

إذا كان الملّاح الغريب ذو الإسم الأتريديسي وهيئة هندي من قبيلة الكومانشي سيرحل عما قريب إلى الأبد، ربما يجدر بي أن أبوح له ببعض الأسرار الأخرى. ففي الحقيقة، إنه لم يبح كثيراً اليوم. لا شك أنني استطعت أن أحمله على الخروج قليلاً عن صمته، ولكنه أتحفني بألغاز فحسب، وبعض الاقتباسات الغامضة. فلدي بعد – أو

بالأحرى، لدينا، أنا والبشر أمثالي- عالم بأسره يجب اكتشافه، عالم قريب من عالمنا، ولكنه لا يمت إليه بشبهٍ. «هؤلاء القوم» لا يجب أن تُكرَّس لهم بضع صفحات شحيحة من يوميتي إنما كتاب بحاله، لا بل موسوعة. ولكن الأفضل هو عدو الخير، وفق المثل المأثور، ويكفي أن أحاول تدوين بعض المعلومات الأساسية على الورق، أثناء حياتي القصيرة، لكي يبقى اسمي محفوراً في الأذهان. «المعلومات الأساسية الأولى بشأن أصدقاء إمبيدو قليس، ندين بها إلى ألك سندر، وهو رسام كاريكاتير كندي الجنسية، كان....».

عندما عدت إلى غرفة المعيشة، بعد دقائق، على رؤوس أصابعي، كان أغاممنون قد غادرها. ومع ذلك، لم أسمعه يخرج. وعلى المنضدة الواطئة، ترك ورقة صفراء، كتب عليها رسالة في منتهى الاقتضاب: «سأعود». فتوجهت على الفور إلى المطبخ حيث أصابني سعار من جوع مفاجئ، فالتهمت كل ما عثرت عليه من طعام.

وبينما كنت أتخم نفسي بسخط، اعتراني فجأة إحساس بالخواء واللاواقعية، كأنني لم أفهم شيئاً من كل ما جرى منذ الأسبوع المنصرم، أو الأسوأ من ذلك، كأن شيئاً لم يحدث. إنه طيف حلم وأشباح تخيلتها وحدتي الشديدة وحيرتي أمام شراسة العالم.

استلقيت على سريري، وتركت نفسي، لشدة حزني، أستسلم لسلطان الكرى. ثم استيقظت حوالي منتصف الليل، مرتدياً ملابسي. لا صوت من حولي ولا حضور، وفي ذهني تبحر أفكار مُرَّة.

الاثنين ٢٢ تشرين الثاني

عندما أدركت، منذ بضعة أيام، أن مستقبلنا مرتبط من الآن فصاعداً، ولفترة طويلة، بمستقبل إمبيدوقليس، مرت بخاطري مروراً عابراً كلمةُ «رسوّ». غير أنني ترددتُ في استعمالها. ثمة كلمات تخطر بالبال ولا تأتي تحت وحي القلم. وهذا يعني أنها غير مقترنة بالصورة. وأنا رجل صور، ورسومات، ورسوم تخطيطية، ومخططات. و«المشرفون» علينا، كنت أتخيلهم بالأحرى في الأجواء، أبعد من السحب، يُشغِّلون عن بعد مكابح أعطالنا.

كنت محقاً في عدم إساءة استعمال هذه الكلمة، واليوم فقط تفرضها الوقائع. فهذه المرة، قضي الأمر، إنه رسوٌ. رسوٌ بهدوء، وتحت طي الكتمان: مجرد مستشفى عائم قد يتماهى من بعيد مع سفينة عادية لصيد سمك التونة. ولكن الخطوة خُطيت من الناحية الرمزية. ويبقى

أن نعرف إذا كانت سفينة إمبيدوقليس قد رست في جزيرتي، أم أن جزيرتي قد رست في مستشفى إمبيدوقليس.

أتحدث عن أنطاكية، ولكن لا ينخدعنَّ أحد، فما يخطر ببالي هو العالم الشاسع.

كل ما جرى في هذه الآونة الأخيرة - الزلات، والإشاعات، والاتهامات، وحالات الشلل، وغير ذلك - ألم يكن سوى تهيئة طويلة وخفية للأذهان؟ لا شيء سوى تراكم شاق من الذرائع؟ من المؤكد أن أغاممنون سينكر ذلك. لم يكف عن القول إن قومه دخلوا في دوامة رغماً عن مشيئتهم، وأنهم سيندمون عما قريب.

دوامة؟ أي دوامة؟ يبدو لي أننا غارقون في الوحول حتى آذاننا! وليس أي أحد آخر!

على شواطئ جزيرتي التي لم تعرف منذ عهود بعيدة متنزهين آخرين غيري وجارتي، ولم تسمع أصواتاً حادة سوى أصواتنا وزعيق النورس، ولم تلمح مراكب سوى مراكب الصيادين المزودة بشباك الصيد، كان وجود السفينة الاستشفائية - بطاقمها، وأجهزتها، وساريتها العارية، ومدخنتها، وجسرها، وإشاراتها الضوئية والصوتية - مشهداً لا يخلو من الغرابة.

مهمتها، حسب الملَّاح هي شفاء المدنيين أو العسكريين الذين «تعرَّضوا للشلل موقتاً»؛ وبصورة عرضية، إذا ما اقتضى الأمر، تطهير كل الذين تعرضوا للإشعاعات. وبثت الإذاعة المحلية، أرخبيل إف إم، بياناً لم يحمل توقيعاً، دُسَّ فجراً تحت باب رئيس البلدية، حوالي

الظهيرة. ودعي فيه السكان الذي قد عانوا عوارض مقلقة، والأشخاص الذين يريدون فحسب الاطمئنان على وضعهم الصحي، للمجيء بعد ظهر يوم الاثنين أو يوم الثلاثاء إلى الموقع المعروف باسم روش - أو - فرا، في جزيرة أنطاكية، لتلقي العلاج.

هل سيأتي سكان الأرخبيل بأعداد غفيرة؟ هل سيتغلبون على ريبتهم ومخاوفهم ويضعون أنفسهم بين أيدي «أولئك القوم»؟ في الساعة الثانية بعد الظهر، ونظراً لعدم وجود أي متطوِّع، جاء أغاممنون، متبطلاً ومحتاراً، يسألني إذا كنت لا أرغب في خوض التجربة. فقبلت دونما تردد. ولم يكن دافعي القلق بشأن صحتي بقدر ما هو الفضول؛ وكذلك - لم الإنكار؟ - الزهو. أفليس مدعاة للزهو أن أكون الأول من بين أبناء قومي الذي يتلقى العلاج على يد أطباء إمبيدوقليس؟

اصطحبني الملَّاح حتى السفينة الاستشفائية ليعهد بي إلى شاب فارع القامة، ناحل القوام، بشوش المحيا، اسمه بوسانياس... إنه اسم آخر مستلهم، ولا عجب في ذلك، من اليونان القديمة، ولكن لون بشرة الرجل لا تمت بصلة هذه المرة إلى الهنود الحمر من السكان الأصليين الأميركيين. إنه رجل طويل القامة نحيل، شعره أشقر كثيف، ونظرته مثل نظرة ابن ضال، لن يلفت الانتباه إطلاقاً في حرم جامعة في شمال أوروبا أو كندا.

طلب مني أن اتناول سائلاً شفافاً حلو المذاق قليلاً، قبل أن يقودني إلى ما يشبه المقصورة التي طلب مني خلع ملابسي فيها. وسأقوم، هذا

المساء، برسم تقريبي لهذا المكان، ولكن ربما يجدر بي كذلك أن أصفه بكلمات: إنه حجرة على شكل شبه منحرف مشدود، جدرانها مغطاة بالفلين أو بمادة تحاكيه، مؤثثة بسرير ضيق، وخزانة، وكرسي، وصندوق صغير للأدوات المعدنية، وتجتازها سكة حديد. وعلى هذه السكة، وُضع ناووس شفاف. أعرف أن الكلمة ليست مناسبة إطلاقاً، ولكنها خطرت ببالي رغماً عني. كنت سأقول «حاضنة» لو تعلق الأمر بمولود جديد. وخلاصة القول إنه يمكن تصور الشيء الذي طُلب مني الاستلقاء فيه. ثم أغلق الغطاء. وعلى الفور، أصبح الناووس المزعوم معتماً، وتحرَّك. انزلق على طول السكة، وغادر الحجرة من خلال فتحة على شكل نصف قمر، للدخول، كما أظن، في نفق مظلم لم أعد أميز فيه شيئاً، لا شيء بتاتاً، لا بصيص ضوء، لا حسَّاً ولا صوتاً. أحسست في جسدي بحماوة اشتدَّت في لحظة من اللحظات، ولكنها ظلت مقبولة بالأحرى. ولم تدم كل العملية أكثر من دقيقتين أو ثلاث دقائق، ثم عدتُ إلى مقصورتي، حيث ارتديت ملابسي على مهل، وكدت أصاب بخيبة أمل لانتهاء مغامرتي بهذه السرعة الفائقة.

وأغلب الظن أن بوسانياس الذي ساعدني على النهوض استشفَّ خيبتي، لأنه صافحني بحرارة وهنأني على ما قد أنجزته.

« ستكتشف فيما بعد أنك عشت أروع يوم في كل حياتك».

لا مانع عندي من التصديق على كلامه. منطقياً، لا بد أن يكون هذا اليوم مهماً. فلا شيء مما اختبرته يمكن أن يوصف بالعادي، لا التجربة ولا الظروف. ومع ذلك، فهذا لا يؤثر فيَّ أبداً أكثر من تصوير معتاد

بالأشعة في مستوصف ريفي! كما أن أغاممنون الذي كان ينتظرني في أسفل الجسر لم يظهر الانبهار الذي أظهره «ابن بلده»؛ سألني بصورة عادية إذا سارت الأمور على ما يرام، من دون أن يلجأ إلى أي صفات تفضيلية أو إلى أي كناية...

ظلَّ الشاطئ خالياً من المتطوعين ما عداي. قال لي الملَّاح، بعد أن رافقني على النحو الواجب إلى بيتي، إنه سيقصد إيف ليدعوها بدورها. وإنني على ثقة بأنها لن ترفض. إنها لا تحب أبداً أن يقلق أحدهم راحتها عندما تكتب، ولكن ألن تكون مستعدة لبذل كل ما في وسعها من أجل «أصدقاء إمبيدوقليس»؟

استرحت بضع دقائق ثم اتصلت بربيبتي أدريان وعشيرها شارل، لأحكي لهما مغامرتي. وكان رد فعلهما الأول إنحاء اللوم عليَّ بسبب تهوري. أن أخضع على هذا النحو إلى «قصف» إشعاعات مجهولة؟ وكيف أعلم إذا كان جسدي سيتحمَّلها؟ وماذا دهاني وكيف قبلتُ أن ألعب دور فأر المختبر، بملء إرادتي؟ ولكن بعد دقائق من الحديث، وربما بسبب خجلهما لتأنيب رجل في مثل سني، وبدافع من الاهتمام بوصفي للمستشفى ولسير عمله، أعلنا أنهما سيأتيان لزيارتي في أنطاكية في القريب العاجل. وأكثر ما أثار فضولهما أن الطبيب من إمبيدوقليس لم يطرح أي سؤال، ولم يسعَ إلى معرفة دائي، ولم يظهر، في الحقيقة، أي اهتمام على الإطلاق بحالتي تحديداً.

لقد أطلعتني أدريان، منذ سنتين أو ثلاث سنوات، على مقال

نشر في مجلة متخصصة مؤداه أن المرحلة النهائية للطب ستكون تلك التي لن نعود بحاجة فيها إلى معاينة أو تشخيص، أو حتى إلى وصف أدوية أو إجراء عمليات جراحية، وحيث يكفي إمرار الجسم في «شافية كونية» لكي تُحدَّد جميع الاختلالات وتُعالج؛ وأظن حتى أنني أذكر الاسم الذي أطلقه كاتب المقال على هذه الآلة المنقذة: «نفق الشفاء». ويتراءى لي أنني قد اجتزت بالضبط مثل هذا النفق.

ما هي الأمراض التي شفيتُ منها؟ لا أدري. لم أكن أعاني أي مرض، على حدٍّ علمي. ولكن ربما كان جسدي مصاباً بداء خفي، أو بداية ورم سرطاني، أو التهاب، أو قرحة. هل أكون قد اكتسبت لبعض الوقت تأميناً ضد المرض؟ أرجو ذلك. وهذا لا يعني أنه ليس من المحتمل أن أهشم عظامي بالسقوط من أعلى الهضبة، أو أن ينهال عليَّ سكان الأرخبيل بالضرب المبرِّح بسبب تعاملي مع العدو. ومن الممكن كذلك، على ذمة شارل، أن عبوري في النفق الشهير، قد أنقذني من بعض الأمراض غير المعلنة، ولكنه ابتلاني بأمراض أخرى، أشد فتكاً، وباختلالات خفية لن يفلح أحد على وجه الأرض في الكشف عنها أو شفائها...

لم أجرؤ على الاعتراف لربيبتي وعشيرها بأنني أشعر منذ مطلع عصر هذا اليوم - إنما فقط على فترات متقطعة وللحظات وجيزة للغاية - بشعور غريب، مثل نشوة خفيفة أو لربما يجدر بي القول إنها بداية دوار بحر...

قرابة الساعة الرابعة بعد الظهر، وصل موكب يتألف من ثلاث سيارات أمام بابي. كانت السيارات تقلُّ أحد عشر شخصاً: أنطونان العجوز الذي يؤدي دور الدليل، وأحد الممرضين يدعى بونوا، وتسعة من سكان الأرخبيل أعرفهم معرفة سطحية، ست نساء وثلاثة رجال، قد ظهرت لديهم جميعاً أعراض «الإشعاعات» المفترضة. وجاء الوفد، بالطبع، بعد مفاوضات محتدمة لم تحسم أصلاً، وستُستأنف في بيتي. فقبل الارتماء بين أيدي الأطباء الغرباء، كان سكان الأرخبيل يريدون جميعاً معرفة رأيي. فما هي الفوائد من ذهابهم، وما هي المخاطر؟ حكيت لهم تجربتي، وأطلعتهم على آرائي، وعلى رأي شارل وأدريان.

وأثناء حديثنا، وصل أغاممنون، يرافقه بوسانياس. وسأقول لحسن الحظ لأن الملَّاح، وعلى الرغم من أنه استطاع أن يقيم، خلال السنوات الأخيرة، صلات لائقة مع سكان الأرخبيل، فريبة هؤلاء من «الغريب» الذي كان، لم تتبدد قطّ، واستحالت، في هذه الأيام الأخيرة، عداءً سافراً. ولا ريب أن بوسانياس غريب مثله؛ ولكن في شخصه، وابتسامته، وهيئته، مسحة من السذاجة، والهشاشة، والعفوية، التي تقرِّبه من الناس.

وعلى هذا النحو، ما كاد يدخل بيتي حتى راح يقبل باندفاع كلاً من السيدات الحاضرات، أربع قبلات، مرتين على كل خد. ولا شك أنه قد قيل له إن تلك هي العادات المحلية. وفي الواقع، كان الحساب صحيحاً بالنسبة إلى عدد «البوسات»، غير أن الناس لا يتبادلونها عادة،

باستثناء الشباب، إلا عن سابق معرفة، وقلما يفعلون في اللقاء الأول. ومع ذلك، ففي هذه الحالة، كان لتبادل القبلات مفعول سحري. فتحطم توجس النساء مثل زجاج مصباح شديد الحماوة.

وعندما ربتت إحدى هؤلاء السيدات، واسمها إرنستين، وهي سيدة مرحة مكتنزة وبائعة ألوان، على عنق بوسانياس بطريقة أمومية، وعلت وجه الفتى الكبير حمرة الخجل، أحرز «حُماتُنا» نصراً لن يستطيع أي استعراض للقوة أن يساعدهم على إحرازه.

فمضينا معاً إلى الشاطئ، سيراً على الأقدام، في صف واحد. وفي نهاية الأمر، خضع جميع زواري، حتى منهم من أقسموا بأنهم أتوا للتضامن مع الآخرين فحسب، لتجربة «نفق الشفاء».

صعدوا الواحد في إثر الآخر، يرافقهم بوسانياس، إلى متن السفينة الاستشفائية. أما أنا فبقيت على الشاطئ أنتظرهم برفقة الملّاح، ورمقني بعضهم، قبل التواري عن الأنظار، بنظرة رهبة أخيرة. وبعد أقل من ساعة، عادوا فخرجوا جميعاً، وقد بدا عليهم الإرهاق قليلاً، وكذلك الذهول، وارتسمت على شفاههم ابتسامات مغتصبة. كان بعضهم لا يزال يسرِّح شعره أو يُزرِّر ثيابه.

وفجأة، سمعت صرخة. كان أنطونان. توقف عند أسفل الجسر ملوحاً بيديه فوق رأسه مثل الغريق. هرولت نحوه. وكان الآخرون قد تحلقوا حوله، وانحنوا يتفحصون يديه. أما هو فراح يحرك أصابعه في كل الاتجاهات، يفردها، ثم يثنيها. إنها معجزة!

ولكي نفهم ما قد جرى تواً، يجدر بي التوضيح بأن سبابة اليد

اليمنى لأنطونان، منذ أن عرفته، معقوفة ومتصلبة. كانت تلك العاهة الطفيفة منتشرة بين بحارة الأرخبيل؛ وكانوا يتكيفون معها عادة، ويتظاهرون أحياناً بأنهم يستمتعون بها، مع العلم أن فقدان المرونة هذه لا سبيل لإصلاحه، وأنه يتفاقم مع التقدم في السن.

ولقد اكتشف أنطونان فجأة، وهو يغادر السفينة الاستشفائية، أن سبابته استعادت، كما بفعل أعجوبة، مرونتها السابقة. وصار بإمكانه أن يثنيها، وأن يفردها، ويُلوِّح بها موبخاً أو يفرك بها عينه.

هل كان حدثاً سخيفاً؟ ثانوياً؟ عادياً؟ تافهاً؟ ليس في هذه الظروف. مما لا شك فيه أن تقويم الإصبع يكتسب أهمية حيوية بقدر أقل لأنطونان من إنقاذه، على سبيل المثال، من تشمع الكبد في مراحله الأولى. غير أن تشمع الكبد الافتراضي ليس ظاهرا بالعين المجردة بالطبع؛ أما الإصبع فتبرز للعيان ويمكن لمسها. قد لا نعلم على الأرجح أبداً ما أصلحه «النفق» المذكور لديَّ ولدى الآخرين. ووحدها إصبع أنطونان تستطيع أن تشهد على ذلك.

وسرعان ما ذاع الخبر في أرجاء الأرخبيل، معزِّزاً سمعة أطباء إمبيدوقليس. ولذلك، يصعب عليَّ فهم الموقف الغريب الذي بدر من أغاممنون. كنت أعرب له عن انبهاري بما أنجزه قومه، فأجابني بحنق أنه لا يجب المبالغة في الحديث عن قصة شفاء تلك الإصبع.

«لو قصد أنطونان طبيباً معالجاً كفؤاً، لحصل على النتيجة نفسها!».

وهذا الكلام ليس صحيحاً على الإطلاق، فالإصبع كانت تعاني الضمور، وما من علاج أرجع إليها مرونتها. غير أنني لم أر فائدة من مجادلة الملَّاح الذي كان يبدو مهموماً، منزعجاً، بل أكاد أقول، مغموماً.

ربما يكمن تبرير موقفه في هذه الكلمات التي سيتلفظ بها لاحقاً خلال الأمسية. «لا يجب أن يتوقع هؤلاء الناس منا ما لن يكون بإمكاننا أن نقدِّمه لهم! فأسوأ المآسي تولد من خيبة التوقعات». فأجابت إيف، بصورة مجازية، أن الخيبة هي رغم ذلك «مطية التاريخ»، وأننا من دونها لن نتقدَّم في أي اتجاه.

كنا نتناول العشاء عند جارتي – أغاممنون، وبوسانياس، وهي، وأنا. ولقد وجهت الدعوة أيضاً، كما قالت لي، إلى بقية أفراد طاقم السفينة، ولكنهم اعتذروا، بعضهم لاضطرارهم إلى متابعة مراقبتهم، ليلاً نهاراً، والآخرون، بدافع الخوف، بلا شك، أو بدافع الحياء.

خلال الأمسية، تبين لي، من بعض الدلائل، أن الملَّاح وجارتي قد التقيا، من دوني، في هذه الأيام الأخيرة، وأنهما خاضا نقاشات مطوَّلة؛ فبين الحين والآخر، ثمة تلميحات إلى أمور تباحثا فيها، ولم أكن، من جهتي، قد سمعت بها على الإطلاق. وأعترف بأن ذلك أثار لديّ بعض «الغيرة».

كلا، هذه الكلمة الأخيرة غير مناسبة. لم أكن قد وضعتها بين هلالين مزدوجين، وها أنا أسارع وأضيفهما. لم أكترث يوماً للغيرة، التي كثيراً ما تسربلها الحكمة المبتذلة بثياب نبيلة. فأنا لا أشعر بالغيرة، بل ببعض الضيق لأن إيف وأغاممنون قد تجاذبا أطراف الحديث وباح كل منهما للآخر بما اعتبر حديثاً لست جديراً بسماعه.

ومن ناحية أخرى، ربما كانا على صواب. ربما لست بمستوى الأحداث التي تجري من حولي، والتي أدعي أنني مؤرخها. ربما رؤيتي للأمور مفرطة في الكسل والضحالة. ولا أقول ذلك لتبكيت النفس، بل لأنه يبدو لي أن من حولي حقائق كثيرة ستظهر للعيان لو كنت أملك القدرة على استبانتها.

إنني أحاذي عالماً لم يكتشف بعد، وأجلس في الصفوف الأمامية، شاهداً يتمتع بالحظوة على حدث لم نشهد له مثيلاً في التاريخ، على صلة مباشرة بلاعبين أساسيين، ولست سوى عابر سبيل. الشجرة بمتناول يدي، وأكتفي بأن أجمع ببلادة الثمار التي سقطت أرضاً.

لدى معاودة قراءة هذه الفقرات الأخيرة، أدرك فجأة السبب الذي دعاني إلى كتابتها. فخلال السهرة التي قد أزفت إلى نهايتها، أحسست غير مرة بهذه الدوخة الوجيزة، «دوار البحر» ذاك الذي ذكرته أعلاه. ومن المؤكد أن الأمر يعزى إلى وجودي في «النفق» أو إلى السائل الذي طُلب مني أن أتجرّعه قبل تلقي العلاج. لم أصارح إيف أو بوسانياس أو أغاممنون، بما يعتريني، وربما لم يلاحظوا شيئاً. لم أظهر

توعكاً، وبقيت صامتاً في ركني، أبذل جهداً للتركيز على أحاديثهم. أرجو من السماء أن تكون وعكة عابرة! ومن الطبيعي، على أي حال، أن يضعضعني مثل هذا العلاج الجديد كل الجدَّة عليّ، وغير المعهود، على هذا النحو ليوم أو يومين. وغداً، عندما أستيقظ، سأتحقق مما إذا كانت معدتي ورأسي قد عادا إلى مكانهما. ما زلت أعتبر الأمر طريفاً، ولكن إذا ما استمر هذا التوعك، فلن يعود بمقدوري استطرافه.

كان شارل وأدريان محقين في انتقاد سلوكي المتهوّر... وأنا سعيد بمجيئهما. فأنا بحاجة إلى شبابهما، وإلى نظرتهما اليقظة ورأيهما السديد.

الثلاثاء ٢٣ تشرين الثاني

إن إصبع أنطونان ليست أنف كليوباترا، ولكنها ستكون قد نالت نصيبها من الشهرة. في الصفحات التي كتبتها البارحة، أحسست بذلك، من دون أن أحسن تقدير الأبعاد التي ستأخذها المسألة. ففي هذا المكان، منذ بزوغ الفجر، يتدفق سيل عرم، سيل جميع الذين يعانون عاهة، ظاهرة أم خفية؛ سيل جميع الذين يطلبون أن يبرأوا من أمراضهم.

لا يظننَّ أحد أن شاطئ أنطاكية قد تحوَّل جراء ذلك إلى ساحة معجزات. فلا مجذومون، ولا مشوَّهون، ولا نتوءات بضخامة الفيلة. كانت جمهرة من المرضى، لا ريب، ولكنهم مرضى مثلي ومثلكم، بعض الأوجاع، بعض الهموم، جرعة من التوهم المرضي والإحساس بالتقدم في السن. يحسب الناظر إليهم أنهم جميعاً على موعد مع

الرجاء، في ذلك الصباح الخريفي الكئيب، في المكان المعروف باسم لا روش - أو- فرا، «صخرة الجنيات» (“La Roche-aux-Fras”) - وكلمة «fras» أو «fradets» في اللهجة المحلية تشير إلى تلك الكائنات التي تسمى في أماكن أخرى بالعفاريت أو الجنيات أو النيران الحمقاء، وهي مخلوقات أسطورية تستهويها الأعاجيب والألاعيب والخدائع البصرية.

لم يسلك سكان بور-أتلانتيك في حياتهم ممرَّ الـ«غواي» بمثل هذه الأعداد الغفيرة. لقد مضوا في موكب متراص منذ الصباح الباكر، على أن يعودوا ساعة الجزر المقبلة التي ستحين في الرابعة والربع بعد الظهر. كان في أنطاكية اليوم نحو ثلاثين سيارة، وبضع عشرات الدراجات النارية، وغابة من الدراجات الهوائية. وفي المجموع، استطاع عدد يناهز مئة وخمسين مريضاً الخضوع لتجربة «نفق الشفاء» الذي أصبح على كل شفة ولسان. وعبثاً انتظر الآخرون دورهم؛ وسيتحتم عليهم العودة في الغد.

ولقد غطت الإذاعة المحلية الحدث من خلال البث المباشر، وجاء فريق من محطة تلفزيونية قبالتنا، من اليابسة. وأجريت معي مقابلة، لكوني مقيماً في الجزيرة، وتذمرت بلطف، لأنه كان يجب أن أتذمر، من هذا الضجيج الذي يقلق سكينة جزيرتي.

في الواقع، كل هذه الأمور لا تضايقني كثيراً. وبالطبع، لو تحوَّل ملاذي بصورة دائمة إلى مهرجان شعبي، فلن أطيق ذلك. ولكنني أتقبل مرة عابرة أن توافيني ضوضاء العالم لبضعة أيام.

ولقد سررتُ اليوم بل كاد يخالجني الشعور بالاعتزاز عندما اتصل بي مورو من واشنطن ليخبرني أن جزيرة أنطاكية قد ذُكرت على المحطات التلفزيونية، وعُرضت صور لها. يا بطن الحوت! كما يقول البحارة المتقاعدون في هذه النواحي، ولقد أصبحت تلك شتيمتي المفضلة.

والسبب الأول لهذا الاهتمام المباغت، هو بالطبع مجيء أطباء إمبيدوقليس. فلقد أصبح «شاطئي» أحد المواقع السبعة والعشرين التي رست فيها مستشفياتهم العائمة. فرسو كل هذه السفن أمر لا يستهان به؛ وفي الوقت نفسه، فإن سبعة وعشرين خليجاً منتشراً على كامل مساحة الكوكب ليس بالعدد الوفير، ومن المذهل أن تكون جزيرة صغيرة بسيطة أولى الوجهات المقصودة.

والسبب الآخر لهذه الشهرة التي تتمتع بها أنطاكية يتمثل في الإشاعات ، التي سرت بسرعة البرق بشأن حالات الشفاء العجائبية. وبالنسبة إلى ذهن محدود، لا يوجد دليل ملموس، إذا ما جاز لي القول، باستثناء إصبع أنطونان، ولكن الناس، من دون انتظار أدلة إثبات أخرى، يقسمون أغلظ الأيمان بأن «النفق» المذكور سيخلصهم إلى الأبد من

النقرس، وتشمُّع الكبد، والفشل الكلوي، والأورام السرطانية، بالطبع، ومن متلازمات مقيتة كثيرة.

وإذا استلزم الأمر كذلك تقديم عرض علني ليقتنع المشكِّكون، فلقد قُدِّم لهم هذا العرض صباحاً على الشاطئ، أمام الجمع الغفير.

جاء بعض الجنود من قاعدة شيرون الحصن، في كراسيهم المتحركة، يدفعهم أصدقاء أو أقارب أو رفاق أصحاء. كانت الساعة تناهز العاشرة عندما وقعت الحادثة: فأحد الجنود الشبان الذين تعرضوا للموجات المسببة للشلل كان يعاني كذلك كسراً في ساقه، وأراد أغاممنون منعه من الدخول، بحجة زائفة، كما قيل لي، وهي أن الجبيرة ستُعطِّل بعض الأدوات. فتدخل بوسانياس، موبخاً ابن بلده توبيخاً شديداً بلغتهما. ولم ينبس أحد ببنت شفة من حولهما، ولكن من الواضح أن الملَّاح لم يكن في وضع يحسد عليه لأنه كان يريد منع الجندي من تلقي العلاج.

وكانت الغلبة لبوسانياس في نهاية المطاف. فقصَّ الجبيرة بنفسه بمنشار كهربائي محمول، ورافق المريض حتى المقصورة. وعندما خرج منها هذا الأخير، بعد دقائق معدودة، كان يمشي منتصباً. وتبين أن الكسر في ساقه اختفى. وعلا التصفيق. كان المشهد يتسم بطابع إنجيلي، والانبهار يرتسم على جميع الحاضرين، ما عدا أغاممنون، فيما أظن...

لم أكن حاضراً لحظة وقوع الحادثة؛ أخبرتني بالتفاصيل

غابريال، حفيدة أنطونان، التي جاءت لزيارتي مع خطيبها إروان، وقد شفي هو بدوره بعد زيارته إلى السفينة الاستشفائية. وشكرني الشابان لمساعدتهما أثناء محنتهما. وفي الواقع، إنني لم أفعل شيئاً يذكر، وإنهما لا يدينان لي بشيء. غير أنني لم أشعر أنهما يرغبان في سماعي أقول ذلك. فما جرى توّاً حدث رائع بالنسبة إليهما، ومن ضرب التشكيك أن أتنصل من أي مسؤولية وكأنني أريد إعلان براءتي. وآثرت أن أقول لهما إنني سعيد بأن الأمور انتهت على خير ما يرام، وإن من دواعي سروري لقاءهما ثانية في يوم من الأيام.

لم تكن غابريال وحبيبها الجندي الوسيم الزائرين الوحيدين اليوم. فلقد كان بيتي، من الصباح إلى المساء، بمنزلة صالة انتظار السفينة الاستشفائية. لم أكفَّ عن تقديم القهوة وشراب التفاح والنبيذ الأحمر، والإدلاء بآراء مطمئنة، والإصغاء إلى حكايات الجميع، وإلى المسارَّات والهموم، وإلى الأحكام المتشائمة الزائفة والجاهزة التي يعشقها السكان في هذا المكان.

بعد اثني عشر عاماً من الإقامة في أرخبيل الشيرون، أصبحت أعرفها جميعاً، ولا تفاجئني أي منها. وعندما يتأهب بحار عجوز للخضوع لعملية قلب مفتوح، فإنه سيقول على أغلب الظن: «سيرمِّموني!». لا بد أنني سمعت هذه الجملة عشرات المرات اليوم، قيلت بالنبرة المعتادة نفسها، ولكن لم تسمعها أذناي بالطريقة عينها. لم تعد استعارة حقاً بعد اليوم. وتشير كل الدلائل إلى أن طب «الأوصياء

علينا «يُرمِّم» بالأحرى ولا يعالج. أليس ذلك، من ناحية أخرى، وفي جميع الأزمنة، حلم البشر الفانين أمثالنا؟

*

وفي هذا الشأن، اتصل بي مورو اليوم أيضاً، وخاض معي حديثاً مطولاً. وأقول «في هذا الشأن» لأن حديثنا دار على وجه التحديد حول هذا التوق لدى معاصرينا بإطالة أمد حياتهم، مهما كان الثمن، والبقاء في شباب أبدي؛ وهو توق لعله كان أقل إلحاحاً، فيما مضى، عندما كان الطب يعدُ البشر بإنجازات أقل؛ وقال لي إن هذا التوق يُهدِّد اليوم بالتحول إلى حاجة ملحة، بل، ومما يدعو للمفارقة، مُدمِّرة.

كانت الساعة تناهز الثانية بعد الظهر، الساعة الثامنة صباحاً في واشنطن، ولكن صديقي لم يخلد إلى النوم بعد. كان يريد أن يعرف إذا كان الجو محموماً في صفوف السكان بسبب حالات الشفاء «العجائبية» التي حدثت في جزيرة أنطاكية. فأجبته أنه يتراءى في الواقع جو محموم إلى حد ما، ولكن لا شيء يستحق الذكر على مستوى «الأعاجيب»، لا شيء سوى إصبع أنطوان العجوز، وساق الجندي، الأعجوبة الأحدث عهداً، إذا جاز القول. ولقد سُرَّ بنزعتي إلى التقليل من أهمية حالات الشفاء هذه، من دون أن تهدأ مخاوفه رغم ذلك. وتراءى لي مغالياً في توجسه، بل كثير الوساوس بعض الشيء. وربما بسبب أرقه، ولكن ربما أيضاً لأنه يتمتع، بشأن الأمور الماضية والمقبلة، ببصر حاد أشبه ببصر الصقر الذي لم أتمتع به قطّ. ومن ناحيتي، أعترف لنفسي بملكة

واحدة، ملكة إدراك اللحظة الراهنة، و«التقاطها» في الحال، وأفضل أن أفعل ذلك بحبري الصيني. أما الأمور المقبلة فتظل عندي معتمة؛ وفي أفضل الأحوال تثير بعض أشكال الحدس المبهمة. أما مورو فيتوقع، ويستبق، ويستقرئ. إنه قادر على أن يستشرف بفكره الأسابيع، والشهور، والسنوات القادمة، لتحليل المواقف المرجحة لمختلف الأطراف.

وفي اتصاله الهاتفي الطويل اليوم، كان يعود باستمرار إلى مسألة حالات الشفاء، تارة ليحملني على التكرار أن المسألة تثير ضجيجاً أكثر مما تستحق؛ وتارة أخرى ليقول لي، على العكس، إن مصير العالم بأسره يتوقف على ذلك. ولكن التناقض كان ظاهرياً فحسب، فصديقي يجادل عن طريق مفارقات متعاقبة، وينفذ على هذا النحو إلى الجوهر المستتر للأمور. وعوضاً عن معارضته، أكتفي عادة باقتفاء أثره خلال تشعبات تحليلاته، وأتعلَّق بعرباته، وأستثيره قليلاً من دون أن ألجم ذهنه، ومن دون أن أسحبه إلى الخلف. ولذلك، أظن أننا نظلُّ مقربين، بالرغم من المسافات التي تفصلنا.

وخلال حديثنا، أخبرني أن الرئيس ميلتون قرَّر أن يحظر على المستشفيات العائمة العمل في الولايات المتحدة أو في مياهها الإقليمية، وهو قرار أثنى عليه مورو. «لا شك أنه كان باستطاعتنا، بفضل مساعدتهم، أن نعجِّل من شفاء الأشخاص الذين أصابهم «شلل لانمطي». ولكن حالة هؤلاء الأشخاص تتحسن في جميع الأحوال.

وسيستغرق ذلك وقتاً أطول بقليل لو عالجناهم بأنفسنا. إنه ضرر ثانوي، بل وتافه، بالنظر إل الضرر الجسيم الذي سيشكله تدخل جديد من جانب «الأوصياء علينا». ولقد خضع هوارد لضغوط هائلة، ولكنه قاوم، وكان على صواب، والرأي العام يؤيده. فالأميركيون يفضلون الاعتماد على قواهم الذاتية، ويحبون أن يُطلب منهم التفاني. ويشهد البلد تعبئة إنسانية ووطنية لغوث المنكوبين».

قلت له بسوء نية: «فكل الأمور تسير على خير ما يرام!»، لأنني استشففت في صوته قلقاً يناقض هذا التحليل المطمئن. ولقد أكد جوابه انطباعي، ولكن التعبير الذي بدر منه أثار استغرابي:

« ستكون كل الأمور على خير ما يرام لولا كل هذه الحالات من الشفاء في جميع أنحاء المعمورة، بما في ذلك عندك، في جزيرتك. فوسائل الإعلام يتزايد اهتمامها بها، وهذا ما يجعلني أخشى الأسوأ. في البداية، كان الحديث عنها مثل الحديث عن تلك «الأعاجيب» المزعومة التي تحصل بين الحين والآخر في إحدى قرى سردينيا أو كريت، وسط الشموع والنساء المتشحات بالسواد. فالناس اعتادوا سماع مثل تلك الحكايات، ويعرفون في أية خانة من ذهنهم يجب أن يضعوها لكي يصرفوا عنها تفكيرهم، إلا في حالات اليأس الشخصي العظيم. ولكن هذه الأقاويل تثير قلقي إلى أبعد حدود في ظل الظروف الراهنة. فإذا ما اقتنع أبناء وطني بوجود آلة يكفي أن يدخلوها للخروج منها من الطرف الآخر، بعد ثلاث دقائق، وقد أبلوا من جميع أمراضهم،

الله وحده أعلم بما قد يحصل. ستكون نهاية العالم، وأنا أزنُ كل كلمة أقولها!».

«مهلاً، مورو، لم أعد أتابعك! إنك تتحدث وتقول«إذا»، بينما هذه الآلة موجودة بالفعل! لقد رأيتها بأمِّ العين! بل لقد اختبرتها!».

ولكن ذلك لم يحمله على تغيير موقفه.

« قلت لي إنهم قد جعلوك تجتاز ما زعم بأنه «نفق شفاء»، ولكنك لم تقل لي من أي مرض شفيت».

«لا أدري».

«بالضبط. ربما تكون قد شفيت من مرض ما، وربما لم تشف من أي شيء، أليس كذلك؟».

«في حالتي، هذا صحيح، لم أكن أعاني أي مرض ظاهر للعيان...».

«أرأيت، يبقى الشك ماثلاً. وربما هذا الشك هو فرصتنا الأخيرة. ويجب أن يظل قائماً لأطول فترة ممكنة! وإلا، فقد خسرنا كل شيء».

لماذا تؤرقه هذه المسألة بشأن حالات الشفاء إلى هذا الحد؟ لم يوضح لي الأمر في الحال. ولكن، في وقت لاحق، أثناء حديثنا – الذي دام ثلاثين دقيقة كاملة، ولم أدوِّن منه في هذه المفكرة سوى نتف– تحدث بمزيد من الوضوح.

«هوارد بحالة سيئة، من سيِّىء إلى أسوأ؛ ولقد أنهكته الأحداث الأخيرة. وأطباؤه الذين توقعوا في أيلول الماضي أنه لن يعيش أكثر من سنتين، يتوقعون الآن أنه سيعيش بضعة أشهر، وربما بضعة أسابيع

فقط. وفي ضوء ما يجري منذ البارحة، عندك، في جزيرتك، وكذلك في بقاع أخرى من الكرة الأرضية، كيف لا نفكر في «قشرة الموز» التي تركها السيد ديموستينس خلفه في اللحظة التي غادر فيها البيت الأبيض».

«تقصد وعده بشفاء الرئيس...».

«لقد فاتح هوارد أولاً في الأمر، بحضوري، ثم ذهب وفاتح السيدة الأولى، سينثيا، التي لم يكن باستطاعتها ألا تتأثر بعرض من هذا القبيل، والتي تمارس الآن على زوجها ضغطاً متزايداً لكي يقبل به. وكل يوم ينقضي، تُطرح المعضلة بمزيد من الإلحاح: هل سيقبل رئيس الولايات المتحدة تلقِّي العلاج «على يدهم»؟ يظهر هوارد، الذي يدرك التبعات الرمزية الهائلة لمثل هذا القرار، الحزم. ولأنه يرفض تلقِّي العلاج، يستطيع السماح لنفسه منع المستشفيات العائمة من الاقتراب من السواحل الأميركية. ولكن كم من الوقت سيستطيع أن يصمد؟».

قرابة الرابعة بعد الظهر، وبعد أن غادر جميع الزوار بيتي، يحثون الخطى لعبور الـ«غواي» قبل ساعة المد، ساورتني الرغبة في زيارة إيف. كان ينتابني الفضول لمعرفة كيف تعيش هذا الاضطراب الذي تشهده جزيرتنا المشتركة، جرّاء «الغزوتين» المتزامنتين، غزوة السفينة الشافية وغزوة الجموع المتقاطرة.

كانت جارتي الساحرة في الصالون، جالسة في أريكتها، تمسك بيدها كأساً من الويسكي - إنها صورة مألوفة. ولكنها لم تكن بمفردها، فأغاممنون كان يجلس قبالتها، في المكان الذي أجلس فيه عادة، إذا جاز لنا التحدث عن عادة. كان يلوح مهموماً، متجهماً، بل يكاد يكون رازحاً تحت وطأة. أما هي فبدت لي على نقيضه أكثر هدوءاً، مشرقة، من دون أن تتقد حماسة. سحنة صبية، ونظرة لعوب. هل استرجاعها لملكة الكتابة ما يجدد نشاطها على هذا النحو؟ هل لأنها استعادت وتيرة نوم متزنة؟ هل هو مفعول دخولها، البارحة، في «النفق» المرمِّم؟ وحدها طريقتها في الجلوس، بساقيها المطويتين تحت جسدها، وهذه الكأس المرفوعة حتى مستوى جبينها، يذكرانني بما كانت عليه منذ عشرة أيام فحسب.

عن أي موضوع كان صديقاي الفريدان يتحدثان، حتى أصبحت إيف على هذا القدر من الحبور، وأغاممنون على هذا القدر من القنوط؟ كنت على يقين أن الأمر يتعلق بالحادث الذي حصل أمام السفينة الاستشفائية.

بادرت الملّاح قائلاً: «حكى لي بعض الأشخاص أنه قد نشب شجار هذا الصباح. فقد جاء جندي شاب مجبَّر الساق، ويقال إنك حاولت منعه من تلقي العلاج».

«أجل، هذا ما حصل عملياً. لقد نقلوا لك ما جرى بدقة».

انتظرت سماع بقية ما جرى، ولكن لم يحصل ذلك؛ فألححت:

«أغام، موقفك يُحيِّرني. البارحة، كان قومك يعتبرون هنا بمنزلة أعداء، وكان يبدو عليك أنك تتألم بسبب ذلك. كانت كل مآسي العالم تنسب إليكم، وكدت تتعرض للتنكيل، وأحرق البيت الذي تقطنه. واليوم، بدأ سكان الأرخبيل ينظرون إليك وإلى قومك كأبطال، وقديسين، ومخلِّصين. يجدر بك أن تشعر بالسكينة والعزاء بل والفخر. ولكن لا، إنك تلوح أكثر إحباطاً من ذي قبل. ما الذي يقضُّ مضجعك إلى هذا الحد؟».

كانت نبرتي تنمُّ عن أكثر مشاعر الصداقة عمقاً، ولكن أغاممنون ظل متردداً في البوح. وتراءى لي أن نظرته تريد أن تتقاطع مع نظرة جارتي. وحين لم يحصل ذلك، استقام في مقعده، وبدرت منه إيماءة استسلام.

«ألا ترى ما يجري؟ حول سفينتنا مئات الأشخاص الذين ينتظرون. وإذا ما حصلت حالة شفاء أو حالتان مثل الحالة التي حصلت اليوم أو البارحة، سيأتي جميع السكان ويقفون في الطابور أمام أبوابنا. لا يساورني القلق كثيراً على الوضع هنا، فنحن في جزيرة صغيرة، مرتبطة بالأرخبيل بواسطة ممر الـ«غواي»، ومن دون اتصالات منتظمة مع اليابسة، نستطيع بعد أن نتحكم بتدفق الناس؛ وحتى لو طلب كل سكان الجزر الحصول على العلاج، سيكون بمقدورنا إنجاز مهمتنا في ثلاثة أو أربعة أسابيع، ثم المغادرة. ولكن، في سائر أنحاء العالم، ماذا سنفعل؟ لقد أوفدت عدة مستشفيات عائمة إلى مختلف بقاع الأرض، لعلاج أشخاص أصيبوا بالشلل أو ظنوا أنهم تعرضوا

للإشعاعات. وإذا كان في جميع أرجاء المعمورة أشخاص حالمون مثل بوسانياس، يقومون بشفاء الناس بأعداد هائلة، ويدعون الإشاعات حول «الأعاجيب» تنتشر...».

هكذا إذن، كان الملّاح، مثل مورو، يخشى هذه الإشاعات! كانت نفسي تسوِّل لي أن أحدِّثه عن تقارب الهواجس ذاك، غير أنني أحجمت في اللحظة الأخيرة، وتركته يوضح موقفه بأسلوبه الخاص.

«أتعلم كم لدينا من المرضى على نطاق العالم؟ إنهم يُعدُّون بالمليارات! جميع الناس يعتلُّون، جميع الناس يهرمون، جميع الناس يدنون من أجلهم، لن نشفي البشرية جمعاء!».

«ولم لا، إذا استطعتم إلى ذلك سبيلاً؟».

«لنفترض أن لدينا المعارف اللازمة لشفاء جميع الأمراض، كم من الوقت سنستغرق لعلاج جميع المرضى الواحد تلو الآخر؟ إذا ما قمنا بتعبئة مستشفياتنا كافة، وجميع طواقمنا، فسيكون بمقدورنا معالجة عشرة آلاف مريض يومياً، ربما عشرين ألفاً، وبالتأكيد ليس أكثر من هذا العدد، ولم نتوقع قطّ الاعتناء على هذا النحو بكل هذه الجموع. سيتطلب الأمر قروناً بحالها! أهذا ما تقترحه عليّ؟ أن نبقى بين ظهرانيكم إلى أبد الدهر؟».

«إلا إذا قمتم بتأهيل أطبائنا، لكي يتمكنوا من إنجاز هذه المهمة بأنفسهم...».

«أبتزويدهم بالمعدات؟ أم بتعليمهم أيضاً طريقة تصنيعها؟

ثم بإنشاء كليات جديدة للطب لفائدتكم في جميع القارات، حيث سنؤمن التعليم، أهذا ما تريد؟ أفلا ترى إلى أين سينتهي بنا المطاف على هذا المنوال ؟ أولاً، سيحلُّ الطب عندنا محل الطب عندكم؛ ثم ستكتشفون أن العلم والتكنولوجيا عندكم قد عفَّى عليهما الزمن، فنرسل لكم عندئذ كل علمائنا، وأساتذتنا، وستصبح جامعاتكم شيئاً فشيئاً فروعاً لجامعاتنا، وكذلك مدارسكم. إنها دوامة! وهذه المرة، إلى الأبد! ستتمازج شعوبنا، وسيتداخل عالمنا وعالمكم، إلى غير رجعة، وستضمحل حضارتكم، وستصبح حضارتنا ممسوخة...».

أشرق محيا إيف، وكأن هذه الفكرة التي طرحها الملّاح على أنها كارثية، تفعم قلبها بالفرح والسرور.

وقالت :«لوددت لو أعيش طويلاً، فقط لأشهد هذا. الاضمحلال النهائي لحضارتنا!».

كانت هذه الكلمات، في فمها، تتخذ نبرة رقيقة مغرية. ورأيت أنه لا فائدة من الرد عليها. رمقتها لبضع لحظات، وهززت كتفي خفية، ثم التفت مجدداً نحو أغاممنون.

«كل هذه الانقلابات ستحدث لأنكم شفيتم السبابة المتصلبة لأحد البحارة، والساق المكسورة لأحد الجنود؟».

«كل هذه الانقلابات، لأن في صفوفنا نفوساً رحيمة مثل بوسانياس، لا تعرف أن تصدَّ أحداً!».

«وكيف يصدُّهم؟ الطبيب، إذا رأى مرضى، وفي استطاعته أن يشفيهم، أليس من واجبه أن يفعل ذلك؟ إنه ميثاق شرفه. لا يستطيع أن

يقول لنفسه: إن أعدادهم أكثر مما ينبغي، وسأختار فقط أكبرهم سناً، أو أصغرهم سناً، أو أكثرهم اعتلالاً. ولا يستطيع بالأخص أن يقول: أنا لا أعالج إلا أبناء قومي!».

«جئنا فقط لمعالجة الأشخاص الذين أصابهم الشلل أو لوَّثتهم الإشعاعات، وكان لا بد من الاكتفاء بهذه المهمة».

«على أي حال، لقد فات الأوان الآن، وبدأ الناس يدركون ما في وسع الطب عندكم أن يبذله من أجلهم. لن يدعوكم تفلتون من بين أيديهم».

«لا يفوت الأوان أبداً. يكفي أن نأخذ قراراً بالرحيل. في غضون ساعة، نتوارى عن الأنظار...».

«أتتركون الناس على الشاطئ، وتختفون، من دون توضيح؟».

«أجل، نختفي، وفي الحال، متحججين بأي ذريعة كانت! وسيكون ذلك أهون الشرَّين! في الفترة الأولى، سيتوسل إلينا الناس أن نقبل بالعودة، ثم سيسأمون...».

«وسيصبُّون عليكم اللعنات!».

«لا يهم! فليصبُّوا علينا اللعنات، إذا اقتضى الأمر، لا أهمية لذلك على الإطلاق! والأمر الوحيد الذي يكتسب أهمية هو أن نستطيع الخروج من هذا المأزق هنا، وعلى جناح السرعة! ويا للأسف، سيأبى الكثيرون من أبناء قومي الإقدام على ذلك. فأمثال بوسانياس، يوجد منهم الكثيرون! إنني أحبُّ هذا الشاب مثل أخي، ولكنه يثير غيظي

بشدة. إنه سعيدٌ بما قُدِّر له أن يصنع من أفعال خير، وإذا ما أفضى الخير إلى الشر، كما يحصل في أغلب الأحيان، لا يتصور أن ذلك قد يكون بسببه. إن الإنسان المتعقل يعتبر نفسه مسؤولاً عن أفعاله وعواقبها؛ أما الإنسان المجرد من التعقل فلا يشعر بنفسه مسؤولاً إلا عن نيّاته».

تدخلت إيف، بنبرة من اللوم الأنثوي: «فإذا كان الأمر في يدك، فسوف ترحل غداً»...

«كلا، ليس غداً، بل اليوم قبل الغد. لا ترمقاني بهذه النظرة! قريباً، ستريان، ستنحيان علينا باللوم لأننا لم نرحل في وقت مبكر. لقد تدخلنا للحيلولة دون وقوع الإبادة، لا لأي سبب آخر؛ وأي بادرة إضافية ستُسمِّم حياتكم وحياتنا. وإلى الأبد! أجل إلى أبد الدهر!».

لدى عودتي إلى بيتي، كانت ربيبتي وعشيرها ينتظران على أحرِّ من الجمر أمام بابي الذي أقفلته للمرة الأولى منذ سنوات طويلة. تعذر عليهما سلوك الـ«غواي» بسبب زحمة السير. فجميع السيارات التي جاءت إلى أنطاكية هذا الصباح كانت تغادر معاً، الواحدة وراء الأخرى، خوفاً من مواجهة ساعة المد. ولو شاء أدريان وشارل المجيء بسيارة تاكسي، لبقيا محتجزين في الطرف الآخر. وقد آثرا استئجار دراجتين هوائيتين في الميناء، ولكن العبور كان محفوفاً بالمخاطر، واضطرا للسير على الأقدام مسافة لا بأس بها من الطريق حتى لا تصدمهما سيارة.

وأعلنت ربيبتي، بنبرة شبه مازحة: «إذا كان ممرُّ الـ«غواي» في أنطاكية يشهد زحمة سير، فهذا يعني أن أحوال الأرض ليست بالفعل على ما يرام».

مكتبة
t.me/t_pdf

الأربعاء ٢٤ تشرين الثاني

لا أدري كم من مرة اعتراني الشعور، منذ الأسبوع الماضي، بأن العالم يتداعى، حتى أصبح ممسوخاً. وهذا ما أشعر به هذا المساء، بسبب حادث كان في أوقات أخرى سيثير اضطراب من يقتفون الدموع ويميطون اللثام عن الشدائد، مأساة عائلية دافعها الوحيد هو الخوف من فقدان شخص عزيز، ولكنها تهدِّد بتغيير وجه الكرة الأرضية.

لا يكفُّ مورو عن صبِّ اللعنات على «جهل النساء». كنت أعرفه أكثر تسامحاً نحوهن. إنه يعتقد اليوم أن حضارتنا توشك أن تلفظ أنفاسها بسببهن، على أقل تقدير!

وإيف، بالطبع، ما زال فؤادها يطير فرحاً.

ومع ذلك، كان يوم الأربعاء هذا قد استهلَّ بوعد باستعادة زمام

الأمور بصرامة. فوفقاً لإشاعات مستشرية تناقلتها مختلف وسائل الإعلام، ومن الواضح أن مصدرها هو البيت الأبيض، كان الرئيس ميلتون يستعدُّ لشنٍّ هجوم دبلوماسي من أجل حث كل الحكومات في جميع أنحاء العالم على أن تحذو حذوه رافضة استقبال المستشفيات العائمة؛ ومع الحد قدر الإمكان، في الأماكن التي رست فيها هذه المستشفيات بالفعل، من الاتصالات بين أطباء إمبيدوقليس والسكان المحليين.

وفي داخل الإدارة الأميركية، ولا سيما في القوات المسلحة ووكالات الأمن القومي، يرجى، بعد أن تلوح غزوة «الأوصياء علينا» قريباً مثل حدث عرضي، أن تطوى هذه الصفحة الغريبة، وأن يعود العالم إلى سابق عهده، حيث كانت الولايات المتحدة تتبوأ موقع الصدارة. وقد تبدو هذه الرغبة بالعودة إلى الوراء واهية، ولكنها ليست مجافية للمعقول كلياً، نظراً إلى أن «أصدقاء إمبيدوقليس» لم يكفوا عن القول إن تدخلهم في شؤوننا محدد، وإنهم لا يعتزمون بتاتاً البقاء إلى الأبد. وأنا الذي حالفني الحظ فكنت على اتصال مباشر بهم بواسطة الملَّاح، على اقتناع بأن مبادرة ميلتون كانت لن تقابل عندهم بامتعاض، لأنها كانت ستتيح لهم «التملص» من شؤوننا من دون أن يتهموا بعدم مساعدة الضحايا.

أقول «كانت ستتيح» لأن الحملة الدبلوماسية للرئيس فشلت قبل نهاية هذا اليوم، وبأغرب السبل. والحق يقال إن صديقي مورو كان يتوقع ذلك منذ بضعة أيام، ويخشاه. ولكن الأمر شكل مفاجأة

كبرى للأغلبية الساحقة من الناس، بل وصدمة مزلزلة. إنها المكافئ المعنوي لقنبلة حرارية-نووية – وعذراً للجوئي إلى مقارنة بهذا القدر من الابتذال، فإنها ويا للأسف الوحيدة التي تخطر ببالي في هذه الساعة المتأخرة.

اتخذت «القنبلة» المذكورة شكل مقابلة صباحية مع سينثيا ميلتون، بثَّتها محطة تلفزيونية أميركية كبرى.

قالت السيدة الأولى: «هوارد يحتضر، وأطباؤه لا يتوقعون أن يعيش أكثر من أسابيع معدودة. لا أريد أن أفقده، وأرى أنه سيكون تصرفاً غير مسؤول من جانبه ألا يبذل كل ما في وسعه لكي يهزم المرض. إنني مقتنعة بأنه يضحي بنفسه بدافع الإحساس بالواجب أو الشرف، لأنه لا يريد أن تدفعه معاناته الشخصية إلى اتخاذ قرارات لن تصبَّ في مصلحة الشعب الأميركي والسلام العالمي. ولكنني أرفض أن أدعه يضحي بنفسه، فذلك سيكون موقفاً قاسياً نحوي، ونحو أولادنا وأحفادنا، ونحو جميع الذين يحبونه ويحتاجون إلى حضوره. إن موقفه بمنزلة انتحار، وديننا يحرم الانتحار، لأنه جريمة بحق الخالق. وإنني أناشد جميع الزوجات، وجميع الأمهات الأميركيات، أن يدعمنني ويساعدنني على إقناع هوارد».

سمع النداء، في الحال. وفي الساعة التي تلت البث الأول للمقابلة، بدأ الآلاف والآلاف من الأشخاص، ومعظمهم من النساء،

ينزلون إلى الشوارع في جميع المدن الأميركية للتجمع حول المباني الحكومية، حاملين لافتات كُتبت عليها شعارات على عجل تطالب الرئيس بأن يقبل تلقي العلاج، وأن يسعى لكي يتيسر أيضاً شفاء جميع الأشخاص الذين يعانون أمراضاً مستعصية على يد أطباء إمبيدوقليس.

وعلى مرِّ الساعات، اتسعت رقعة التحرك، وساد الشعور بأن أميركا بأسرها تعيش حالة عصيان. كانت الإدارة مذهولة. وقبل آخر النهار، اضطر البيت الأبيض إلى إصدار بيان يشير فيه إلى أن الرئيس ميلتون «إذ تأثر بالرأي الذي أعربت عنه زوجته المحبة وأعداد كبيرة جداً من المواطنين» قد ارتضى تلقي العلاج «إنما فقط إذا تلقى جميع الأميركيين الذين هم، مثله، في المراحل النهائية للمرض، العلاج بالطريقة نفسها»، و«بعد أن أوضح تماماً لموفدي البلد المتدخل بأن شفاءه المحتمل لن يؤثر إطلاقاً في قراراته السياسية».

يظهر مورو الذي اتصلت به قبل كتابة هذه الصفحات بقليل تشاؤماً.

«في اللحظة التي انتهى فيها الناطق باسم البيت الأبيض من تلاوة البيان، أخطرنا ديموستينس بأن مستشفى عائماً قد وصل إلى الرصيف، هنا بالضبط، في جنوب غرب العاصمة، في قناة صغيرة تشرف على نهر بوتوماك، وتعرف باسم «قناة واشنطن». في ذلك المكان، يوجد مرسى لليخوت... لا أدري متى وكيف وصلت هذه السفينة إلى هذا المكان، ولماذا لم يكتشف أمرها خفر السواحل لدينا. لا ريب لسبب بسيط وهو أنها لا تشبه، في هيئتها الخارجية، أي سفينة سياحية أخرى...

وعلى أي حال، توجَّه إليها هوارد في الحال، على متن طائرة مروحية، ترافقه سينثيا. وفي اللحظة التي أكلمك فيها، رئيس الولايات المتحدة الأميركية بين أيدي هؤلاء القوم، مستلقياً عارياً، كما كنت أنت، في ناووس من زجاج، تُصوَّب إليه ذرات غريبة بلا شك...».

هل قلت إن صديقي متشائم؟ كان يجدر بي الأحرى أن أكتب أنه كان متهالكاً! وتراءى لي أن موقفه لا يخلو من الغلو.

«لماذا ستكون نهاية العالم إذا قبل رئيس الولايات المتحدة بأن يستأصل ورمه السرطاني بفضل تقنيات طبية أكثر تقدماً من تقنياتنا؟ أهي مسألة كبرياء فحسب؟».

«صدِّقني، ليس هذا ما في الأمر، وإن كان يجب عدم إهمال مسائل الكبرياء في العلاقات بين الدول. غير أن ما أخشاه يتجاوز هذه المسألة. فإذا كان البشر مقتنعين بأن أحدهم – سواء أكان رجلاً أم شعباً أم حزباً أم جماعة – بمقدوره أن يشفيهم من جميع أمراضهم، وجميع اعتلالاتهم، وإطالة أعمارهم، سيكونون على استعداد لكي يصبحوا، في الحال، عَبَدَته وعبيده. فمن يتحكم بعمرك، ويمكنه إطالة أمده أو تقصيره، هو الله بكل بساطة. وهذه «الأمة» الغريبة التي لم نكن نفطن حتى لوجودها منذ أسبوعين في طور التحول إلى قوة إلهية بالنسبة إلينا، لا قوة إلهية نائية، وافتراضية، تبخل بتجلياتها وتدع الشك يحوم، بل قوة إلهية حاضرة مادياً بيننا».

«لقد عبتُ عليك غلوا، وها أنت تسترسل في غلو آخر، أشد جنوناً».

«غلواً؟ فاحفظ إذن كل كلمة سأقولها لك. غداً، سيجثو جميع أبناء قومنا تقريباً عند أقدام هؤلاء القوم، وسيفرحون لمخاطبتهم باسم «الأسياد»! حضارتنا على شفير الموت، وبإمكانك بالفعل نقشَ شاهدة قبرها!».

هنا، في أنطاكية، كان اليوم مشابهاً للأمس، فقد وصلت جحافل سكان الأرخبيل منذ فتح ممرِّ الـ«غواي»، أمام سياراتهم للوقوف في الطابور من دون تدافع أمام المستشفيات العائمة. وعندما يصل شخص مصاب بأحد الأمراض المستعصية، يفسح له الناس المجال للدخول، وينتظرون خروجه لمشاهدته وقد تبدلت هيئته. وبما أن أكثر حالات الشفاء عجائبية لم تكن بالضرورة أكثرها استعراضية، ظل التصفيق يسمع لاختفاء الكسور البسيطة في حين أن المحتضرين، لأنهم يخرجون وما زالوا على المحفات التي تحملهم، لا يثيرون سوى نسمة خفيفة من الهمسات، بالرغم من أنه قد كتبت لهم ربما حياة ثانية.

ذهب أدريان وشارل منذ بزوغ الفجر إلى لاروش – أو – فرا لمراقبة هذه الظاهرة، ورجعا بخيبة عارمة. كان الشاطئ لا يزال مهجوراً، وقد تناثرت هنا وهناك أوراق مشبعة بالدهون وعبوات معدنية فارغة مثل نهاية يوم صيفي عادي. كما أن المستشفى العائم كان قد ابتعد عن الضفة في الليل، منتظراً عودة المرضى للرسو مجدداً. من

بعيد، لم تكن في هيئة تلك السفينة الشبيهة بسفن صيد سمك التونة ما أثار انبهارهما حقاً.

لقد تحولت الخيبة إلى مرارة عندما رست السفينة أخيراً، ومضى صديقاي الشابان يعرضان مساعدتهما بصفتهما طبيبين. فقيل لهما بجفاء أن لا مكان لهما على متن السفينة، إلا كمريضين.

وحاولت أدريان جاهدة أن تأخذ المسألة بمرح:

«تراءى لنا أننا مداويان من السكان الأصليين يعرضان خدماتهما على الطبيب الأبيض العظيم».

ولكن شارل كان يستطير غضباً.

«يأتون لإذلالنا في عقر دارنا! سيندمون على ذلك!».

سعيتُ جاهداً لتهدئة أعصابه.

«لا بد من القول إن بعضهم يشعرون بأنهم وقعوا في مصيدة بسبب كل ما يجري. إنهم يريدون التواري عن الأنظار بأسرع ما يمكن».

خطر ببالي ما قاله لي أغاممنون، وتساءلت إذا لم يكن هو الشخص الذي التقاه الشابان.

«كيف كانت هيئة الشخص الذي طردكما؟».

رد شارل بنزق: «هيئة؟ أية هيئة؟ إنني أرى أنهم كلهم نسخة طبق الأصل!».

لم ألحّ في السؤال.

الخميس ٢٥ تشرين الثاني

عندما شرعت في كتابة هذه اليومية، كانت الأحداث التي من المقرر أن أسردها على مستواي. يصلني الحدث تلو الآخر، فأستطيع أن أراقبها، وأن أزنها وأشرحها، مع تحليل مشاعري بصبر وأناة. أما في الوقت الراهن، فمئات المعلومات تجتاحني في كل لحظة، تتعلق جميعها مباشرة بالحدث الذي دفعني إلى الكتابة، وأشعر بأنني مرغم على تحويل هذه اليومية إلى تأريخ مستفيض ومعلَّل للاضطرابات التي تعصف بالكوكب. وبما أنني أعجز عن أداء هذه المهمة، تساورني الرغبة في الاستسلام واستعادة ريشتي وحبري الصيني بهدوء.

غير أنني حدَّدت لنفسي قاعدة منذ طفولتي وهي ألا أتخلى عن مشروع أو عن قطّ بدأت في إطعامه. وتلك هي الحيلة الوحيدة التي توصلت إليها لمواجهة كسلي الفطري والتغلب على جبني.

ما دمت قادراً على المثابرة، فسأصغي، وأدوِّن، وأسجل، وأتحقق. ولكن من الآن فصاعداً، حين أهمُّ بالكتابة، سأقوم بفرز صارم. ستلوح فقراتي أحياناً مفككة غير مترابطة، ولكن الصلة قائمة، بالطبع. فكل الأحداث التي يشهدها الكوكب ليست سوى حدث واحد.

*

منذ هذا الصباح، يخالجني الشعور بأن العالم بأسره سيشبه عما قريب شاطئ جزيرتي أنطاكية. لقد خرجت مئات المستشفيات العائمة من حيث لا ندري، وهي تعمل في الوقت الحاضر على ضفاف القارات الخمس. أجهل عددها بالضبط، ولم يعد أحد يكرس الوقت لعدِّها، ولا لحصر عدد النساء والرجال الذين يقفون في الطابور عند أسفل الجسور بانتظار تلقي العلاج. إنهم يقفون أحياناً بانتظام، ولكن أحياناً وسط البلبلة والفوضى. ولقد نقلت وسائل الإعلام عدة حالات نشبت فيها مشاجرات، فأرغمت أطباء إمبيدوقليس على تعليق العلاجات التي يوفِّرونها موقتاً، والابتعاد عن الشاطئ إلى أن يستتبَّ الهدوء.

وبمشاجرات أم من دونها، طوابير الانتظار تطول بلا انقطاع. وبالطبع، لا شيء يسمح بالاعتقاد، مع تكاثر عدد «الأعاجيب»، أن الجاذبية التي يمارسها «نفق الشفاء» ستتضاءل قبل انقضاء وقت طويل، بل طويل جداً، لو صدق مورو الذي اتصلت به بعد الظهر للسؤال عن صديقه هوارد.

«لا يسعنا الجزم بعد. لقد عالجوه ثم أفرجوا عنه. ونقل على

الفور إلى مستشفى بيثيسدا، حيث خضع لشتى الفحوص من أجل تقييم تأثير العلاجات التي تلقاها. لم نحصل بعد على النتائج. وأرجو لأجله أن يكون قد نجا، ولكن ذلك لن يهدئ روعي. فإذا أعلن البيت الأبيض غداً أن الرئيس قد أبلَّ من مرضه، ستهرع البشرية جمعاء إلى المستشفيات العائمة. والآن بالفعل...».

«أوافقك الرأي، ستستشري الحمى، لبعض الوقت. ولكن الأمور ستهدأ في نهاية المطاف، أليس كذلك؟».

«كلا، ألك، لا تكن واثقاً بهذا الشكل، لن تهدأ الأمور بعد اليوم. فحتى إذا استطاع «جابرو عثراتنا» معالجة ستمئة ألف مريض يومياً، ستظل الحشود وطوابير الانتظار موجودة هنا بعد أربعين عاماً! والمشهد الذي نراه أمام أعيننا، سيتحتم علينا أن نشهده حتى يحين أجلنا!».

ومرة أخرى، كان يتكلم مثل أغاممنون ويردد كلامه حرفياً تقريباً. بالحنق نفسه، وبالخشية عينها، فارتأيت أن أردَّ عليه بنبرة أكثر مرحاً.

«حتى يحين أجلنا، أهذا ما تقول؟ بعد أربعين عاماً! لا أيها الشاب! مع الطب المتقدِّم الذي أحضره لنا هؤلاء القوم، سنعيش على أقل تقدير مئة وخمسين عاماً بعد، أنت وأنا!».

فرقعت دعابتي في وطيس النقاش، فقط للتلطيف بواسطة ابتسامة من أثر المحاجة الصارمة التي قدَّمها صديقي. ولكن، لدى سماع كلماتي، بقيت مدهوشاً، لاهث الأنفاس، وتطلب مني الأمر ثواني مديدة لكي أستعيد رباطة جأشي.

«وبرأيك يا مورو، بكم سنة سيكون باستطاعتهم أن يمدُّوا أعمارنا؟».

فجاء رده ساخطاً:

«ماذا يفيدنا أن نعيش مئة وخمسين عاماً أكثر إذا لم يعد العالم ملك أيدينا؟».

كنت أتفهم تماماً توجسه، غير أنني لم أستبن بعد كل أسبابه. فقد كان أحدها، بالأخص، يؤرقه بشدة، وكنت أجهله تماماً. ولئن قرر على الفور أن يصارحني بالأمر، فذلك بحكم الصداقة، بالتأكيد، وكذلك للاعتذار بعض الشيء عن صرامة تحليلاته، وخلوِّ كلامه من الدعابة.

ما زالت المسألة طي الكتمان، ولكنها لن تبقى كذلك طويلاً. ولقد عرضها عليَّ بنبرة مرهقة:

«لا أحد يجب أن يلوم هوارد على أنه تلقى العلاج. ولكنه يقترف اليوم خطأ لا يغتفر، خطأ غبياً ولا يغتفر. حاولت ثنيه عن اقترافه، ولكنه عنيد كالبغل، ولا يريد الإصغاء إلى أي أحد، ولا حتى إلى سينثيا».

خيَّم صمتٌ حرصت على عدم اختراقه. كان عليَّ أن أتيح لصديقي فرصة تغيير رأيه والعدول عن هذا البوح، ولكنه اختار متابعة الكلام.

«عادة، عندما يضطر رئيس الولايات المتحدة للخضوع إلى عملية جراحية تحت التخدير العام، يوجه رسالة خطية إلى رئيس مجلس

الكونغرس ورئيس مجلس الشيوخ يبلغهما فيها بعجزه الموقت عن أداء مهام منصبه، وبنقل صلاحياته موقتاً إلى نائب الرئيس».

«وفي حالة هوارد، لم يكن هذا الأمر ضرورياً على الإطلاق، لأنه لن يفقد الوعي في أي وقت من الأوقات. ولكنه حرص على اتباع هذا الإجراء، معتبراً أن العلاجات التي سيتلقاها تنطوي على عنصر من انعدام اليقين، وأن في تصرفه على هذا النحو احتراماً لروح الدستور».

«وبموجب النص الدستوري نفسه، التعديل الخامس والعشرين، يجدر بالرئيس، لدى استعادة وعيه، أن يرسل إلى هاتين الجهتين رسالة ثانية يعلن فيها أنه قد أصبح قادراً على استئناف أنشطته. ولقد حصلت هذه الحالة ثلاث مرات خلال السنوات الخمسين الأخيرة، وفي كل مرة، استأنف الرئيس مهامه في اليوم نفسه. ولم تتجاوز أطول فترة توقف فيها عن أداء مهامه ثماني ساعات.

«وكان يجدر بصديقنا أن يوجِّه الرسالة الثانية البارحة مساء، ولكنه لم يفعل. وأحجم كذلك اليوم. ولم يُذيِّلها بتوقيعه حتى الساعة. ولذلك، فمن الناحية القانونية، وفي اللحظة التي أكلمك فيها، نائب الرئيس بولدر هو «الرئيس بالوكالة»، في حين أن هوارد ما زال، بدقيق العبارة، «في حالة عجز». وعندما يُنبَّه إلى ذلك، يجيب بأن لا شيء يدعو للعجلة، وأنه يحتاج إلى الوقت للتفكير، ولكنني أخشى الأسوأ».

«أتظنُّ أنه يفكر بالاستقالة؟».

«أجل، أخشى ذلك».

«وما السبب؟»

«السبب الحقيقي هو إحساسه بالذنب. لقد ارتضى تلقّي العلاج لأنه لم يقوَ على مقاومة ضغوط الأقربين، ولكنه اعتبر ما جرى نكثاً لليمين التي أداها لدى تسلم مقاليد الحكم، على أقل تقدير. وينتابه الشعور بأنه قد تلقى من ديموستينس «رشوة معنوية»، وأنه قد أخلَّ على هذا النحو بقدرته على تقدير الأمور من منظور مصلحة الأمة فحسب. وفي الحقيقة، كان الموقف ينطوي على معضلة رهيبة، بالنسبة إليه في المقام الأول، وكذلك بالنسبة إلى جميع أصدقائه، وأنا من ضمنهم. فكيف أنصحه بأن يستسلم للموت؟ هذا لا يعقل! ولكن لا بد من الإقرار بأنه، بقبوله تلقي العلاج على أيدي أطباء قوة غريمة للولايات المتحدة - ولن أذهب إلى حدّ القول «قائمة بالاحتلال»، إنما على الأقل حاضرة على التراب الوطني من دون أن تكون قد وُجِّهت إليها الدعوة -، قد وضع مشروعيته لاتخاذ القرارات الواجبة على المحك بعض الشيء».

وتنهد صديقي تنهيدة مديدة.

«وهذا ما نحن عليه. لا أدري كيف سنخرج من هذا المأزق. ليت هوارد كان انتهازياً، ومجرداً كلياً من المبادئ. ولكنه ليس كذلك...».

كان اضطراب مورو شديداً لا سيما وأنه لا يحترم نائب الرئيس بولدر. فكلما تدهورت صحة ميلتون، كان يظهر، إلى جانب حزنه على احتمال خسارة صديق، جزعاً لرؤية الولايات المتحدة تقع بين يدي شخص «عديم الضمير».

والمفارقة في هذه الحالة أن وصول هذا الشخص إلى سدة الرئاسة لن يكون بسبب وفاة ميلتون بل بسبب شفائه المرجح.

*

بعد الإفادة عن المخاوف السياسية للغاية التي أعرب عنها مورو، أيكون من غير اللائق التذكير بأن وصول المستشفيات العائمة لا يثير اضطرابات في واشنطن فحسب، وبأن وجودها، هنا بالذات، في أنطاكية، يحمل في جعبته المآسي؟

لمحت ذلك مجدداً اليوم في عيون ربيبتي وعشيرها اللذين يتزايد قنوطهما بل وإحساسهما بالمهانة. فبعد أن صرفهما أطباء إمبيدوقليس، قررا عرض خدماتهما على مستوصف بور-أتلانتيك، فوجداه مهجوراً. لا مرضى ولا طاقم طبي. الطب عندنا الذي كان فيما مضى مصدر فخرنا، قد أهمل فجأة مثل القراقير القروسطية لدى حلول عصر السفن البخارية.

دعوت صديقي الشابين للاستفادة من بطالتهما القسرية للاستراحة بعد سنة مرهقة، والتأمل بهدوء في الاضطرابات الجارية، ولكنهما كانا يفكران في العودة إلى باريس، وربما يتخيلان أن حضارتنا المحتضرة سيكتب لها البقاء لمدة أطول هناك.

إيف وحدها لم تفقد البوصلة. أما الآخرون - أولئك، على الأقل، الذين يُسرُّون لي بخواطرهم أو بمشاعرهم: مورو، أغاممنون،

بوسانياس، أدريان، شارل، وكذلك سكان الأرخبيل الذين صادفتهم في هذه الأيام الأخيرة–، جميعهم، بلا استثناء، فهم مذهولون لما يجري. جميعهم، إلا إيف. إنها تصون حالة الغبطة التي دخلت فيها عندما أخبرها الملّاح بوجود «أصدقاء إمبيدوقليس». وفي الحال، آمنت بهم، وأخلصت لهم، ولم تحد عن موقفها قيد أنملة، وردّدت ذلك على مسمعي عندما ذهبت لرؤيتها في المساء.

«فلننظر إلى الأمور من دون لف أو دوران: حضاراتنا لم يُقضَ عليها بجبن، لقد أفلست بكل بساطة. وبما أنه قد تبين لنا عجزنا عن الإمساك بزمام العربة، وبما أننا نمضي مباشرة في طريقنا نحو الاصطدام بالحائط، أليست هدية من العناية الإلهية أن تمسك أياد أخرى بالزمام؟».

لست مؤمناً مثلها بأن قوم إمبيدوقليس «هدية أرسلتها السماء»، غير أنني لا أخالفها في تحليلها. فمن الواضح أن العالم في جنوح، وأن «قومنا» يظهرون عجزاً عن تفادي النوائب القادمة. ولا شك أنها تعبر عن الأمور بفجاجة، ولكنها ليست مخطئة.

وعلاوة على ذلك، لقد أصابها تحول حقيقي، جسدياً ومعنوياً، حتى أصبحت تجسيداً حياً لما تؤكده. عرفتها ذابلة، وها هي مشرقة! عرفتها يائسةً، وبمقدوها الآن أن تنفح الأمل للبشرية جمعاء.

فكيف أقاوم الرغبة في تصديق كلامها؟ وكيف أقاوم الرغبة في عشقها؟

الجمعة ٢٦ تشرين الثاني

شهدت البشرية اليوم تصاعداً في الرجاء؛ ولكنه رجاء منحرف. وتقارب المصطلحين يترجم بالضبط مفارقة الأزمنة الراهنة. لقد أصبحت رغبتنا في الخلود سبيلنا إلى العبودية.

ها أنا ذا أتكلم مثل مورو الذي لمست في كلامه شططاً البارحة! وفي الحقيقة، أثبتت الأحداث صحة توقعاته. فالبشرية تنزلق، ولا أرى أبداً بماذا ستتشبث لكي تؤخر لحظة تهاويها.

والمشهد المشؤوم الذي يدفعني للتكلم على هذا النحو حصل في جزيرة غرينادا، في بحر الكاريبي، وكان يمكن أن يحصل في عشرات الأماكن الأخرى. مستشفى عائم في ميناء استجمام، بمعزل عن المراكب الأخرى قليلاً. على الرصيف، طابور طويل. نساء يحملن

أطفالاً، مرضى اتكأوا على غيرهم، بعض الكراسي المتحركة، وكذلك صبية يتزاعقون يتعاملون مع المناسبة مثل حفلة أضيفت مؤخراً إلى التقويم. كان الجمع غير منضبط، ويبدو مشتت الانتباه، إلا مباشرة بمحاذاة الجسر الذي يقود إلى السفينة الطبية. وكان فريق من محطة التلفزيون الرسمية يصوِّر المشهد بلا مبالاة.

وفجأة، قرابة الظهيرة، سُمع ضجيج. فقد أراد أحد الوجهاء المحليين، أو أحد زعماء الأحياء، أن يمرَّ بالقوة مع مرافقيه أمام زمرة من المراهقين. علت الصرخات، وحصل تدافع، وحصل هرج ومرج. ثم أطلقت بعض العيارات النارية، أعقبها رشق ناري من رشاش. وسمع عويل، ورشق ناري آخر. وهرع الناس يحتمون خلف السيارات المركونة. وعلى الرصيف المهجور، كان ثلاثة صبية وامرأة أكبر منهم سناً بقليل مطروحين أرضاً. أربعتهم جرحى بشكل مروع، هامدون، قتلى على الأرجح.

اقترب رجال شرطة، وضربوا طوقاً حول الضحايا. ثم جاءت أمٌّ وانهارت فوق جثة أحد الصبية، وسرعان ما حذا حذوها أفراد آخرون من العائلات. وتعالى النحيب والأنين. وفي غضون ثلاث دقائق، تبدل مزاج الرصيف كلياً.

وأفادت إذاعتي المفضلة، أتلانتك ويف، نقلاً عن صحفيين محليين وشهود عيان، أن أطباء إمبيدوقليس قد شهدوا الحادث من دون أن يتدخلوا، على الأقل، في البداية. ويقال إنهم بادروا بالانكفاء

إلى داخل سفينتهم، وتأهبوا للابتعاد عن الشاطئ إذا ما شعروا بالتهديد. غير أن الناس سرعان ما لمحوهم مجدداً، مرتدين سترات بيضاء وحاملين محفات. كانوا ثمانية مضوا مباشرة نحو الجثث. سمحت لهم الشرطة بالمرور، وأفسحت العائلات لهم الطريق. همد آخر أنين، وأطبق الصمت على الرصيف. وراحت بعض الشفاه الورعة تتمتم تمتمة محمومة. كان الناس يتصرفون بالفعل وكأن أعجوبة تحدث.

حمُلت الجثث الأربع على المحفات من دون عجلة. ونقلت عبر الجسر إلى متن المستشفى العائم، وغابت عن أنظار الناس المتجمهرين. وانقضت ساعة وجيزة، لا أكثر، ثم ظهر مجدداً الأليعازرات الأربعة، واقفين، ملوِّحين بأيديهم وباحثين عن وجوه على الرصيف وكأنهم عادوا من رحلة إلى ترينيداد أو إلى جامايكا. نزلوا الجسر، وذهب كل منهم لموافاة عائلته على اليابسة.

انقضت ثوان معدودة قبل أن يستوعب الناس ما جرى. سرى في البداية همس، وسُمع لغطٌ مخنوق ومكتوم، وشوهد بعض الأشخاص يحتمون مرتجفين بين ذراعي أقرب شخص إليهم، ثم علا التصفيق، ولكنه كان يصدر بالأخص عن الأكثر شباباً. أما الأكبر سناً فكانوا يلوحون منوَّمين مغناطيسياً، وركع الكثيرون وهم يبكون فرحاً وخوفاً على السواء.

وبالطبع، انتشر الخبر في كل أنحاء المعمورة، وأصبح الناس يترقبون أحداثاً من هذا القبيل؛ فمنذ بضعة أيام، يدور الحديث بلا

انقطاع عن حالات شفاء عجائبية، لم تعد حتى تثير الدهشة، ولا أظن أنني سمعت معلِّقاً واحداً يُشكِّك بصحة الرواية، بل ويخالجني الشعور بأن المنطق السليم الكوني - إذا كان له وجود - قد بدَّل موقعه، ويبدو أن عدم الإيمان بالأعاجيب يحيد الآن عن جادة الصواب، وأعترف بأن هذا الأمر يزعجني.

يجدر بي أن أضع كلمة «أعجوبة» بين هلالين مزدوجين، فلا شيء مما سردته يبدو عجائبياً حقاً، لا شيء يبدو باطنياً أو خارقاً للطبيعة، مجرد آثار علم فائق التطور، ولكنه يحوِّلنا جميعاً إلى سكان أصليين منبهرين.

كدتُ أتصل بمورو للتحدث معه عن هذه الحادثة، ولكنني عدلتُ عن القيام بذلك. كنت أعلم علم اليقين ما سيقوله لي.

فاكتفيت بتبادل الآراء مع أدريـان، وأشرت لها أن مصطلح «انبعاث» الذي استعمله الصحفيون يبدو لي ضرباً من الشطط لوصف شفاء حصل بعد الوفاة بوقت وجيز للغاية. أليس مصطلح «إنعاش» أنسب؟ وقد وافقتني الرأي، إنما ليس تماماً، لأن زملاءها، كما قالت لي، يستمتعون بالحديث عن «انبعاث» بعد أقلِّ سكتة قلبية. وعلى أي حال، أياً تكن المصطلحات المستخدمة، لا شك على الإطلاق في أن الشفاء التام والفوري للضحايا الأربع الجرحى بعيارات نارية، والذين اعتبروا في عداد الموتى يدلُّ على وجود طب يتفوَّق على طبنا بما لا يقبل المقارنة.

وتسنى لي خوض هذا الحديث مع ربيبتي لأنها بقيت أخيراً بقربي عوضاً عن العودة إلى باريس مع عشيرها، كما كانت تزمع. فهذا الصباح، تلاسنا. وربما كان بينهما شجار حاد تجلَّى في هذه المناسبة. ولكن من المحتمل جداً أن يكون لاستيائهما علاقة بالأحداث الجارية. فمنذ وصولهما إلى بيتي، لاحظت عندهما حساسيات متباينة نحو قوم إمبيدوقليس. فشارل لا ينظر إليهم إلا بغضب، أما ربيبتي فتظهر نحوهم فضولاً شديداً، وتتملكها الرغبة في معرفة المزيد عن مسارهم الغامض وتقدُّم علومهم، أما عشيرها فهمُّه الوحيد هو أن يرحلوا على وجه السرعة – أو باستعادة التعبير المبتذل الذي سمعته يتفوَّه به ثلاث مرات – أن «يغربوا عن وجهنا».

في جميع الأحوال، إنني مبتهج لأن أدريان بقيت معي، وأننا استطعنا أن نسمع الأنباء معاً، ثم أن نعلِّق عليها بهدوء، أثناء تناول العشاء.

*

إذا ما ظلَّت ذرة شك في أذهاننا بشأن التفوق الساحق لطب «الآخرين»، فستتبدَّد خلال الأمسية، بأشدِّ الأساليب بلاغة ودوياً بواسطة بيان صادر عن الدكتور أبيل، اختصاصي الأورام السرطانية المعالج للرئيس الأميركي. فبعد فقرات تتخلَّلها مصطلحات تقنية ومقارنات بالإحصاءات والأرقام لفائدة الاختصاصيين، اختتم بهذه

العبارات التي تنم عن التواضع النبيل للعالم وجزعه العارم على السواء:

«بقدر ما يسعني التقدير، لم يعد الرئيس هوارد ميلتون مصاباً بأعراض الداء الخطير الذي شُخِّص به سابقاً. ولقد تحسَّن وضعه العام تحسناً ملحوظاً، ولم تعد حياته مهدَّدة».

«والمعارف التي اكتسبتها خلال سنوات دراستي للطب وممارسته لا تتيح لي أن أفهم الآلية التي حصل بها هذا الشفاء التام. ولهذا السبب، قررت الكفّ عن مزاولة أي نشاط مهني في مجال اختصاصي. ولقد قدَّمتُ استقالتي إلى مجلس مستشفى بيثيسدا، بمفعول فوري. ورجوتُ كذلك الرئيس والسيدة ميلتون ألا يعوِّلا عليَّ بعد اليوم كطبيب معالج. وسأحتفظ بأجمل ذكرى عن شجاعتهما التي تفوق الوصف خلال هذه السنوات من المحن. غير أنني أعتبر، في قرارة نفسي وضميري، أنه لم يعد يجوز لي أخلاقياً أن أواصل معالجة مرضاي استناداً إلى علم قد تقادم بين عشية وضحاها».

بسبب هذا البيان الصادر عن الدكتور أبيل، أدرجت في تدويني لأحداث هذا اليوم توطئة متشائمة. فالرأي الذي يدلي به هذا العالم المرموق بشأن فرع اختصاصه، أخشى أن في وسعنا توسيع نطاقه ليشمل حضارتنا برمتها: «لقد تقادمت بين عشية وضحاها».

وبالطبع، إذا ما نظرنا إلى الحدث مع بعض المسافة، يمكننا أن نقيِّمه من منظور نسبي. ففي أغلب الأحيان، أحسَّت شعوب، عبر

التاريخ، بأن حضارتها قد تقادمت. وكلما اتصل مجتمع تقليدي بمجتمع آخر أشد بأساً، وأكثر تقدُّماً، شهد جزء من البشرية ظاهرة أشبه بنهاية العالم. والمثال الذي يخطر ببالي دائماً هو وصول الأوروبيين إلى الأميركيتين، اعتباراً من عام ١٤٩٢. ولكن ثمة أمثلة أخرى، بل يمكننا القول إن معظم المجتمعات غير الغربية – في الهند، والصين، واليابان، والمشرق الإسلامي أو إفريقيا السوداء –، قد رأت الطب عندها، خلال القرون المنصرمة، بل وكل ما كانت تطلق عليه اسم «معرفة»، يتهافت وسط الازدراء ويطويه النسيان. ولكن، حتى الآن، كان ما تخسره إحدى «حضاراتنا» من عظمة وإبداع وإشعاع ومكانة وجلال، تسترده حضارة أخرى من «حضاراتنا». ولم يسبق قطّ، قبل هذا اليوم، أن واجهت «بشريتنا» بأسرها مثل هذا الانحطاط في المكانة.

ولم يسبق قطّ، على حد علمي، حتى في حالة شعب الأزتيك، أن كانت الصدمة صاعقة بهذا الشكل.

راجعت نفسي بعد أن أعدت قراءة هاتين الفقرتين الأخيرتين. فتساءلت أولاً إذا كنت لم أنتقل أسرع مما ينبغي إلى الاستنتاجات مؤكداً أن تبخيس معارفنا في مجال الطب يعادل هزيمة حضارتنا بأكملها. فإحساسي الغريزي أن هذا هو واقع الحال بالفعل، ولكن في اللحظة التي أخطُّ فيها هذه السطور، أنهكت قواي ولم أعد قادراً على تقييم الأمور بدقة وسكينة...

لا شك أن هذه الأفكار الليلية التي تجاذبتني هي بقايا دراستي

للقانون؛ فأنا أمتنع عن التوصل إلى استنتاجات عوجاء يستطيع زميل آخر أكثر دقة أن يهدمها بسهولة.

يثير البيان الصادر عن الطبيب أبيل في ذهني تساؤلاً آخر: فإذا اعتبر أحد جهابذة الطب الأميركي والغربي نفسه مهاناً بسبب التفوق الساحق لعلم «الأمة المتدخلة»، هل سيشعر بالقدر نفسه من المهانة أحد ممارسي الاختصاصات الطبية «الهامشية»، مثل مختص في تقنية الوخز بالإبر الصينية أو معالج بالأعشاب الطبيعية أو ساحر أو شامان؟ وأظن أنه تساؤل يستحق أن يُصاغ على نحو أوسع نطاقاً: فإذا ما أفلت مصير الكوكب فجأة من أيدي أكثر البلدان ثراء وبأساً، هل سيثير الإحساس بالأذى في مكسيكو أو لاباس أو كالكوتا أو كوالا لامبور أو داكار القدر نفسه من الارتياع الذي يثيره الإحساس به في واشنطن؟

السؤال الذي أطرحه في الحقيقة هو ما إذا كان مهزومو التاريخ، والمنسيون من الثروة والتقدم، وكل الذين أفلت منهم مصير العالم منذ عهد بعيد، لن تراودهم الرغبة في أن يتحركوا... مثلما تتحرك إيف، المقتنعة، منذ وقت طويل، بأن مائدة العالم قد أسيء ترتيبها، والتي تعرب الآن عن انشراحها لرؤية هذه المائدة قد أطيحت بقسوة، وأمسى أكثر الضيوف دعةً حولها في حيرة وبلبلة.

في بعض الأمسيات، يحدث لي أن أشرب معها نخب فناء حضارتنا المتكرِّشة والصفيقة، التي يتضح أنها ضلَّت السبيل ولكنها

مقتنعة بأنها دائماً على حق... غير أن النزاهة تقتضي مني الإقرار بأنني أرافقها على سبيل اللباقة والمحبة أكثر من الاقتناع. إنني أحبُّ الحياة التي أسستها لنفسي، أحبُّ جزيرتي الصغيرة، أحبُّ الرسم، أحبُّ الكتابة، وهذه التحوُّلات تخيفني.

ملاحظة أخيرة لا بد لي من تدوينها في هذه اليومية قبل أن أغلقها لهذه الليلة: لاحظت في وسائل الإعلام عدداً من التلميحات إلى أن هوارد ميلتون قد أغفل حتى الساعة استئناف مهامه رسمياً، وأن غاري بولدر ما زال «رئيساً بالوكالة». ولقد أعرب بعض المعلِّقين عن الدهشة، والحيرة؛ غير أنني لم ألاحظ أي تكهن بشأن استقالة محتملة لرئيس الدولة.

ونظراً إلى المخاوف التي صارحني بها مورو، وهي مبرَّرة تماماً بكل تأكيد، من المتوقع أن تتضخَّم هذه القضية في الأيام القادمة. ولدى التفكير ملياً، من المستغرب حتى، أنها أسالت القليل جداً من الحبر في الساعات الأربع والعشرين الأخيرة.

السبت ٢٧ تشرين الثاني

بدأت أعرف أموراً عن إمبيدوقليس وعن المتبجحين بأنهم «أصدقاؤه». وهذا ليس بالكثير، بالنظر إلى كل ما أجهله عنهم. ولكن إذا أظهرت صبراً وعناداً، إذا استقيت وجمعت كل معلومة تمرُّ بمتناول يدي، سيتسنى لي أن أعيد تركيب هذا الجانب الخفي من تاريخنا.

هل أنا مصيب بقولي «تاريخنا»؟ هل ينتمي هؤلاء القوم إلى عالمنا، وهل ننتمي إلى عالمهم؟ ليس بإمكاني أن أجزم بعد إذا كانت لحضارتنا وحضارتهم مصادر مشتركة، من ناحية اليونان القديمة، أو إذا ما كان الأمر مجرد أسطورة. ولا أدري كذلك إذا كان «الأوصياء علينا»، على مر القرون، قد تدخلوا في تاريخنا بغير علم منا. ومع ذلك، يسعني القول، من دون أن أجازف كثيراً وأن أخطئ، إن استمرار تاريخنا

لن يحصل من دونهم. سيسكنون فيه، إما بحضورهم العظيم الشأن وإما بغيابهم الشديد الوطأة.

فنهرُهم ونهرُنا، بعد أن شقَّ كل منهما مجراه، قد صبَّ في القاع نفسه. وبطريقة أو بأخرى، ستظلُّ مياههما ممتزجة.

*

استيقظتُ هذا الصباح وفي ذهني فكرة واحدة: التحدث مع بوسانياس، وحمله على إفادتي بما أحجم «ابن بلده» أغاممنون عن اطلاعي عليه حتى الساعة؛ وسؤاله، بالأخص، عن الطب عندهم: أي مرحلة بلغ في المعركة الأزلية ضد المرض؛ وحتى أي عمر يسمح لهم بالعيش؛ وهل صحيح أنه قد انتصر على الموت.

قصدت الشاطئ، وعلى الرغم من الزحمة، استطعت أن ألتقيه وأن أنتزع منه وعداً بالمجيء لتناول العشاء في بيتي. ولقد وفى بوعده، وإنني أشعر، بعد هذه الأمسية، أنني أقل جهلاً مما كنت عندما استيقظت.

ولكن قبل أن أنقل ما قاله لي الطبيب الوافد من بعيد، أريد أن أكرس بعض الوقت للإشارة إلى بعض المستجدات التي تسنى لي معاينتها خلال اليومين الأخيرين.

على شاطئ أنطاكية، لم تعد سفينة إمبيدوقليس الوحيدة التي رست. ففي الوقت الحاضر، يوجد نحو ثلاثين مركباً غيرها من جميع

الأحجام، لا بل توجد باخرة لم تستطع الرسو بسبب ضخامتها فألقت مرساتها على بعد ميل من الضفة، وكان ركابها يأتون، زرافات متعاقبة، للانضمام إلى طوابير انتظار المرضى بركوب زوارق النجاة، وهو تعبير، يكتسب فجأة، دلالة غير مألوفة. وهذا التدفق البشري، الذي يضاف إلى ذاك الذي يصل بالفعل سالكاً ممرَّ الـ«غواي»، بدأ يحدث بعض الفوضى. إنه إزعاج يمكن تحمّله حتى الآن؛ ولكن إذا ما اتسعت هذه الحركة، وإذا ما استمرت بالأخص لسنوات طويلة كما يتنبأ مورو، فهذا يعني أن سكينتنا الثمينة قد ولَّت إلى غير رجعة.

لا احتمال عندي أكثر مدعاة للقلق. فبالرغم من كل ما جرى حتى الساعة، أشعر بأنني ما زلت قادراً على العيش على طريقتي، بل والتعليق بتبصر على غرق الحضارات. ومن البديهي أنني سأفقد سكينتي إذا ما غمرت المياه سفينتي الصغيرة بدورها. هل هذا بفعل الأنانية؟ من دون شك. ولكن أنانيتي مشروعةٌ لأن بقائي على قيد الحياة رهنٌ بها.

في جميع أنحاء العالم، بات الكثيرون يرجون، بدورهم، دخول «النفق» الخلاصي. وتصاعدت حماسة البشر قليلاً تحت الوقع المتضافر للشفاء المذهل للرئيس ميلتون وحالات «الانبعاث» في جزيرة غرينادا. ففي الوقت الحاضر، في جميع البلدان، الغنية منها والفقيرة، في كل المدن والقرى، إلا ربما في بعض المجتمعات القليلة التي تعيش بمعزل تماماً عن حضارتنا المتهالكة، لا يوجد شخص عاقل واحد لم يعلم بعجائب «طبّهم»، ولا يحلم بالاستفادة منها، وكذلك جميع أقاربه، على وجه السرعة. وكلما أُعلن عن وصول سفينة

استشفائية على ضفة ما، انتظمت قوافل لا تنتهي من المركبات على طول الطرق.

وكما سنحت لي فرصة الإشارة من قبل - ولكن المسألة تستحق التكرار والتأكيد-، أصبحت كل حياة طبيعية من الآن فصاعداً معلَّقة، في جميع أنحاء الكرة الأرضية. توقف العمال عن العمل، وانقطع الطلاب عن الدراسة، وكفَّ الحكام عن تولي شؤون الحكم، وأصبح المستهلكون لا يستهلكون سوى الحاجات الضرورية فقط، بل وتضاءل عدد الجرائم.

في الأيام التالية، لا شك أنني سأجد فرصة سانحة لذكر بعض الأمثلة المعبِّرة على هذا الاضطراب الكوني. أما في الوقت الراهن، فلقد أردت فقط الإشارة إلى «ارتفاع منسوب المياه» المحتوم، وتدوين هواجسي... قبل العودة إلى بوسانياس.

*

وصل إلى بيتي قرابة الثامنة مساء. وعملاً بنصيحة أدريان، أعددتُ عشاء خالياً من اللحوم أو الأسماك. فهي تعتقد أن حضارة متقدِّمة مثل حضارة أصدقاء إمبيدوقليس ستكون قد تخلَّت منذ وقت طويل عن قتل الحيوانات للتقوُّت بلحمها. وحين سُئل زائرنا في هذا الشأن خلال العشاء، أكد هذا الامتناع من دون توضيح أسبابه. وتراءى لي أنه قد حدَّد لنفسه قاعدة تقضي بعدم انتقاد ممارساتنا ومعتقداتنا كسكان أصليين.

كان من المفترض أن نكون أربعة، ولكن إيف اعتذرت بعد الظهر وقالت لي إن بعض الزوار حلوا في بيتها من دون سابق موعد، وربما ستوافينا في نهاية السهرة، ولكنها لم تأت.

كانت أدريان من «فتح النار» حالما انتقلنا إلى المائدة. بأبسط الأسئلة، مع أنها، في هذه الظروف، الأكثر دلالة:

«كم تبلغ من العمر؟».

تردَّد ضيفنا ثواني معدودة قبل الإجابة. وفي تلك اللحظة، بدا لي أن ذلك يعزى إلى رغبته في ذكر الأرقام بالشكل الصحيح في لغتنا. ولكن ربما كان يعتريه بعض الخوف. وعلى أي حال، أجاب، إنما متلعثماً:

«اثنان وتسعون عاماً».

كان يبدو محرجاً، بل لقد ظننتُ أنه سيعتذر. ممَّ يعتذر؟ من شبابه الوقح؟ لكنت أعطيته بالأحرى أربعين عاماً، لا أكثر.

«كنت أعلم أنكما ستحملقان إليَّ بدهشة، فلستما معتادين الربط بين هذا العمر وهيئة مثل هيئتي. ولكن ذلك مردُّه إلى تطوُّر لا يتسم بطابع عجائبي البتة، ويعرفه مجتمعكما تمام المعرفة. انظرا على سبيل المثال إلى الشخوص في بعض لوحات القرن السابع عشر! ذلك الشخص الذي لم يبلغ الخمسين بعد، تدلُّ هيئته بالأحرى، بنظركم اليوم، على هيئة رجل في الخامسة والسبعين. وأستحضر بعض البورتريهات الذاتية لرمبرانت...العمر الظاهري مفهوم يتطوَّر مع تطور الطب».

واستأنفت ربيبتي: «وبالنسبة إلى شخص في مثل سنك، ما هو متوسط العمر المتوقع؟».

«أعجز عن الإجابة على سؤالك بدقة. إننا نعرف اليوم كيف نؤخر الشيخوخة، وبالتالي إطالة أمد الحياة؛ ولكننا لا نعرف كم ستطول أعمارنا. ما زلنا نفتقد إلى الإدراك المتأخر اللازم».

فسألتُهُ: «أتريد القول إن الناس عندكم لا يموتون؟».

«كقاعدة عامة، الأشخاص الذين يقبلون الخضوع لمراقبة طبية منتظمة لا يشيخون. وهذا لا يعني أنهم لن يموتوا يوماً بسبب عامل لم يُكتشف، وسنكون غير قادرين على مواجهته».

«إذا فهمت كلامك، بعضكم لا يقبل بإطالة عمره».

«حصل ذلك أحياناً، في البداية، لأن ثمة حالات أخفقت. يتعلق الأمر بأشخاص أُبقي لديهم على شرايين فتية من دون التمكن من وقف تلف دماغهم... ولقد أصبحنا اليوم أكثر تمرساً بهذه العملية».

«ولم يعد أحد يموت؟».

«بلى، تحدث حالات موت أحياناً، ولكنها حالات نادرة، والناس يعيشونها مثل مأساة مطلقة، أكثر مما يعيشها الناس عندكم، أكثر بكثير. إنكم تتفجعون، بالتأكيد، عندما يحين أجل أحدهم قبل أوانه بكثير، أو ترافقه آلام مبرِّحة، ولكنكم تقنعون في نهاية المطاف لعلمكم بأنه أمر محتوم؛ ومع مرور الوقت، يفقد عمر الميت دلالته، ويطوي النسيان معاناته. ثم يموت المفجوعون بدورهم، ويدفن حزنهم. وعندما يتسنى

تجنب الموت مثلما يحصل عندنا، تتبدَّل كل السلوكيات. فالمخاطرة بالحياة لا يعود لها الدلالة نفسها؛ ولا تعود المسألة تكمن في معرفة ما إذا كان المرء سيموت عاجلاً بقليل أم آجلاً بقليل، بل في معرفة ما إذا كان سيموت أم لا. والمخاطرة هي بالتالي أعظم على نحو لا يقبل المقارنة، وسيكون خوضها ضرباً من الجنون.

«غير أن تطوراً مماثلاً قد حدث عندكم أيضاً. فعندما لم يعد أمراً معهوداً، بفضل تقدَّم العلم، أن يموت الناس في الأربعين من العمر أو أن تموت النساء أثناء الولادة، تبدَّلت السلوكيات، وتعاظمت قيمة الحياة البشرية، أنتم تريدون الآن الحفاظ عليها بأي ثمن. ولوددتم، حتى في النزاعات العسكرية، ألا يلقى أي من جنودكم حتفه».

علَّقتُ قائلاً: «من المحزن ألا يرغب الناس بعد اليوم في المخاطرِة بحياتهم». ويجدر بي الاعتراف، بشيء من الصفاقة، أنني حرصت دائماً على عدم المخاطرة بحياتي، أنا الذي لم أمارس الغطس يوماً، ولم أقفز بالمظلة قطّ، ولم أتسلق هضبة في حياتي.

ومع ذلك، فقد وافقني بوسانياس الرأي، قبل أن يضيف قائلاً:

«لحسن الحظ، هذا التطوُّر عند قومي، الذي كان بالإمكان أن يحوِّلنا جميعاً إلى جبناء خائفين، يُعوَّض بنتيجة أخرى لأوجه تقدُّمنا في مجال الطب، ألا وهي قدرتنا على الترميم. فإذا شلَّ أحدهم الخوف من الموت وافتقر إلى الجرأة على الإطلالة من نافذته، باستطاعته استرجاع بعض الجسارة لدى التفكير في أنه إذا وقع، سنفلح على الأغلب في إنقاذه، وأنه سيستيقظ سليماً معافى».

«وعلى أي حال، إنني أرى، بالرغم من ذلك، أن أوجه التقدُّم في مجال الطب قد جعلت قومنا حذرين على نحو مريع، وحياتهم تفتقر إلى التشويق أحياناً. فمن دون المبارزة مع الموت، تفقد الحياة بعدها المأسوي، ولا يعود لديها الطعم نفسه. فالإحساس بالفناء هو أساس التوق إلى الحرية، وعلة وجود الفلسفة والفن على السواء. ولذلك، إنني أكنُّ لقومكم مودة خاصة، بمخاوفهم، وأفراحهم الزائلة، وثوراتهم التي لا غد لها».

ثم مضى يقول بعجلة، وكأنه يريد أن يبدِّد سوء تفاهم يُحتمل حدوثه:

«كل أبناء قومي يكنون المودة نفسها، وهذا ما يبرر أننا رأينا بأنه لا غنى عن التدخل اليوم، مهما كانت العواقب».

سألت أدريان: «وهل كان الخطر جدياً إلى هذا الحد؟».

أجاب بوسانياس برصانة لم يظهرها حتى الحين، وأضفت على سحنته فجأة هيئة أكثر شباباً، وأقل بشاشة، بل وربما أقل براءة: «أجل، جدياً للغاية. تخيلي على سبيل المثال أن ينتشر فيروس قاتل بسرعة فائقة، ولا يدلُّ عليه أي عارض قبل انقضاء عدة أسابيع. في اليوم الذي يُكتشف وجوده، سيكون قد فات الأوان، ولن يستطيع أحد أن يوقف انتشاره، لا الطب عندكم ولا الطب عندنا. وسيُحكم على شعوب بأكملها من دون أمل بالشفاء».

فسألته متخوفاً: «وهل مثل هذا الفيروس موجود فعلاً؟».

«أرجو ألا يكون كذلك. ولكن بعضهم يعتزم «تصنيعه». وإن لم نتوخ الحذر...».

كان على وشك إخبارنا بالمزيد، ولكنه نهض فجأة، وهو ينظر إلى ساعته.

«يجب أن أعود إلى المكتب. إننا نعمل الآن ليلاً نهاراً، بلا انقطاع، لمواجهة الزحمة. لقد انتهت استراحتي، وكانت ممتعة».

نهضتُ بدوري، وأخرجتُ من جيبي ورقة مقوّاة كتبت عليها أقوال الفيلسوف الذي ينسب الأوصياء علينا أنفسهم إليه، إمبيدوقليس الأغريجنتي. ذكرها لي الملّاح، وانتابتني الرغبة فجأة في إلقائها أمام ابن بلده. لأي سبب؟ لا شك لاستبقائه قليلاً، ولاستثارة رد فعله... ولكن المسألة لم تكن مدروسة، وكنت أتصرف تحت وقع اندفاع عفوي. فقرأتُ الأبيات، متوقفاً عند انتهاء كل شطر، حسب تقديري:

«ستصدُّ الرياح التي تعصف بالأرض بلا كلل،
وتهبُّ عاتية فتتلف المحاصيل.
ولو شئتَ، ستحضر النسائم المناوئة؛ ومن الأمطار السوداء
ستصنع جفافاً مواتياً للبشر؛ ومن القحط الشديد ستصنع
الأنساغ المرضعة للأشجار التي تسكن الأثير...».

راح بوسانياس يصفق تصفيقاً مرحاً، قبل أن يقول لي، بنبرة تعمَّد أن تكون غامضة:

«القول صحيح، ولكنه ناقص. أهكذا لقَّنك إياه أغاممنون؟».

تملكني الفضول.

«أعتقد أنني كتبته حرفياً...».

فراح بوسانياس يلقي بدوره:

«وللداء ستصف الدواء، ولمن أهْرَمَه الدهر سبل الشفاء.

سأعلِّمك أنت وحدك دون سواك، وسأمنحك هذه القدرة أنت وحدك دون سواك.

ستصدُّ الرياح التي تعصف بالأرض بلا كلل،

وتهبُّ عاتية فتتلف المحاصيل.

ولو شئتَ، ستوقظ الزوابع الهوجاء؛

ومن الأمطار السوداء ستصنع جفافاً مواتياً للبشر؛

ومن القحط الشديد ستصنع الأنساغ المرضعة للأشجار التي تسكن الأثير؛

ومن أعماق الجحيم ستعيد روح الميت...».

إذا كانت الفقرة التي ألقيتها لا تتضمن سوى اختلافات طفيفة تعزى بلا شك إلى الترجمة، وإذا كان التشطير فيها لا يختلف اختلافاً شديداً عن ذاك الذي افترضته، فقصيدة إمبيدوقليس قد اختزلها الملّاح في بدايتها ونهايتها، بل وأمعن فيها مقص الرقيب على النحو الواجب.

وأدرك بوسانياس ما يجول في خاطري.

«لا يجب أن تلوم صديقك، إنه مرتاع بسبب المنحى الذي تأخذه الأحداث. فالتصور بأن بلايين البشر قد يطرقون بابنا، ويتجمهرون

حول سفننا، ويسألوننا الشفاء، وتجنيبهم الموت، فهذا يروِّعه لأنه يرى فيه نهاية حضارتنا، وكذلك سكينتنا. وأنا أنتمي إلى مدرسة فكرية أخرى، لطالما انكبَّت على تاريخكم بقدر من...».

كان يبحث عن كلماته.

«.... بقدر من الحماسة أكثر من الريبة. أما اليوم، ومع كل ما جرى، فلا بد لي من الاعتراف بأنني لم أعد واثقاً من أي شيء».

كان يلوح مضطرباً بالفعل، ونظر إلى ساعته بصورة آلية.

«يجب أن أنصرف حقاً!».

قالت له أدريان، وهي تتناول معطفها: «سأتمشى معك قليلاً».

في الخارج، كان البرد قارساً على غير عادته، ولوددت لو تمشيتُ قليلاً بدوري، غير أنني أحسست بأنه من الأفضل أن أدع «الشابين» يمضيان لوحدهما ويتحدَّثان عن الطب. كما أنه لا بد لي من تدوين ملاحظات قبل أن أنسى ما سمعته، وأن أهتمَّ فيما بعد بالكتابة...

المفكرة الرابعة

استتارات

«فليكن ماثلاً أبداً أمام بابنا
ذاك الفجر الشاسع المدعو بحراً»

سانت-جون برس، معالم

الأحد ٢٨ تشرين الثاني

لم أكن قد انتهيت من الكتابة، الليلة الماضية، عندما انطفأت المصابيح، واضطررت إلى إنهاء إفادتي على ضوء شمعة. عاد التيار الكهربائي هذا الصباح، ولكن الموجات بدت مكمَّمة مجدداً. فلا هاتف ولا إنترنت؛ والمذياع يصدر مجدداً طنينه الرتيب. أما المستشفى العائم الذي كان راسياً في جزيرة أنطاكية، فقد أوقفَ نشاطه ليغادر على عجل متجهاً نحو أعالي البحار ليتوارى عن الأنظار. غير أن معالجينا النبلاء وعدوا بالعودة، إذا ما صدق المرضى الكثيرون الذين كانوا واقفين في الطابور البارحة مساء على الشاطئ.

في هذه اللحظة، أرى نفسي عاجزاً عن القول إذا كانوا سيفون بوعدهم أو إذا أرادوا فقط أن يهدئوا روع الجموع خوفاً من أن يسبب رحيلهم مشاهد من اليأس. هل انسحبوا فقط للتشاور؟ أم أنهم تبخَّروا، مثل إمبيدوقليس العجوز، واكتفوا بأن تركوا لنا، على سبيل الإرث،

صندلاً من رصاص على فوهة بركان؟ هل شهدنا الآن هذه القطيعة الحاسمة التي كان يتمنَّاها أغاممنون بملء جوارحه؟ أجهل ذلك. فالملَّاح اختفى كذلك، مثل جميع أبناء قومه، من دون كلمة وداع. ولم يبقَ منه سوى أطلال بيت محروق.

لدى كتابة هذه السطور الخائبة، يتراءى لي بأنني بلغت خاتمة حكايتي. لقد أتوا، وسادوا، ونفحوا في الكون رياح القلق ورياح الأمل، ثم رحلوا.

كانت ربيبتي أكثر دهشة مني. فالبارحة مساء، رافقت بوسانياس حتى جسر الصعود إلى السفينة، وصارحته برغبتها في تقديم المساعدة له، بصفتها طبيبة؛ لا شك أنها لا تستطيع أن تأمل بمصاف «الزميلة»، كما أقرَّت بتواضع، بما أنها لا تأتي إلا بعلم أصبح «متقادماً»؛ ولكنها تود أن تكون مفيدة، وأن تتعلَّم ما يتيسر لها أن تتعلَّمه. قال الشيخ الشاب إنه على استعداد لاستقبالها على متن سفينته، اعتباراً من الغد. أولاً، سيدخلها بنفسه في «نفق الشفاء» خاصتهم؛ ومن ثم، ستساعده على التواصل مع المرضى؛ ووعدها أن يشركها لاحقاً في أنشطة تتسم بمنحاها الطبي تحديداً.

لم يُلمّح بوسانياس، في أية لحظة، إلى أن سفينته تتأهب للمغادرة. وأدريان مقتنعة بأنه لم يكن على علم بأي شيء، وبأنه لا بد قد تلقى أوامر أثناء الليل. ولم تفقد الأمل بأن يعود المستشفى، وأن تتمكن من العمل على متنه للتآلف شيئاً فشيئاً مع «طبّهم».

كانت إيف تشاطرها هذا الأمل، بل وتذهب أبعد من ذلك. إنها تتصرَّف كأن «أصدقاء إمبيدوقليس» لم يرحلوا حقاً. وفي جميع الأحوال، إنها تثق بهم، ثقة عمياء. ولقد قالت لي: «لئن استتروا عن أنظار الجموع، فلأن لديهم أسباباً وجيهة للاستتار؛ وإذا ما قرروا أن يتسبّبوا لنا بالمعاناة، فلأننا نستحق ذلك». ألم يكن مورو يقول إن «مخلِّصينا» سيرتقون عندنا إلى مصاف الآلهة؟ وهذا ما جرى، وأصبحت للعبادة الجديدة كاهنتها الأولى!

ويجدر بي الإقرار، ها هنا، بأنها كاهنة مشرقة. وعندما أتذكر المرأة الذابلة، المريرة، الخامدة التي كانت جارتي منذ أسبوعين فقط، أكاد لا أصدق أنها الشخص نفسه؛ وهذه ليست المرة الأولى التي أذكر فيها هذا الأمر، ولكنني أنبهر به على الدوام. «هم» حوَّلوها بكل ما للكلمة من معنى. فاجتيازها النفق المرمِّم أعاد إليها بشرة الصبية، وما يرافق ذلك من هيئة ومشية ونبرة؛ والأكثر من ذلك أن هذه المتمردة تعيش هوان أبناء قومنا وحضاراتهم مثل الانتقام أو الثأر الشخصي.

إنها تتماهى الآن مع قوم إمبيدوقليس، وتبدو فخورة بهم كما لم تفخر قطّ بمعشر قومها. ويشهد على ذلك ما قالته لي هذا المساء، بنبرة لا تخلو من المبالغة، تراءت لي مزعجة بعض الشيء:

«أوضح لي أغاممنون لماذا لا يجب أن يتماهى سبيلهم مع سبيلنا».

«ولماذا؟ أنيري لي سبيلي!».

«لأنه مع نزعاتنا الجامحة، ومخاوفنا المتكررة، وعداواتنا الأزلية، وتقادماتنا المستمرة، لو توافرت لنا المعرفة التي اكتسبوها، فسنستعملها لكي نهدم بعضنا بعضاً، وفي نهاية المطاف، سنقوم بإفناء كل حضارة على وجه البسيطة. ولذلك، تردد قومه طويلاً قبل أن يظهروا للعيان».

«وإلى متى كان علينا أن نجهل وجودهم؟ إلى أبد الدهر؟».

«إلى أن يأتي اليوم الذي لا يعود فيه اللقاء بيننا وبينهم محفوفاً بالمخاطر. فلقد ظلت معضلتهم، على مر القرون، هي نفسها: إذا ما أقاموا علاقة معنا، ما هي الصلات التي ستنشأ بينهم وبيننا؟ هل يتعاملون معنا كأنداد؟ كإخوة؟ هل يتقاسمون معنا جميع معارفهم؟ لكننا أسأنا استعمالها، وحوَّلنا كل اكتشاف من اكتشافاتهم إلى وسيلة للتدمير أو الاستعباد. فما العمل؟ هل يتعاملون معنا كبشر أدنى مرتبة؟ كقُصَّر أبديين؟ هل يحصروننا في مرتبة الإخضاع والتبعية؟ لو فعلوا، سيخونون مبادئهم السامية!».

«إيف، حباً بالله، اعفيني من هذا الخطاب المازوشي. هل تدركين ماذا تلقين على مسمعي؟ أن هؤلاء البشر يحتقروننا منذ الأزل، وعن حق؛ وأنهم لا يتصورون حتى أنهم قادرون على معاملتنا كأنداد؛ وأن ليس أمامهم من خيار سوى إخضاعنا أو مفارقتنا. وحتى لو قلت لي ذلك بأرقِّ نبرة، لن أقتنع! إنك توجهين إليّ إهانة وتوجهينها أيضاً إلى نفسك!».

«ولكن الأمر لا يتعلق بك وبي، بل يتعلق بالجموع!».

«إيف، عودي إلى رشدك! إننا ننتمي إلى هذه الجموع!».

«كلا، أنا لا أنتمي إليها! لطالما بقيت بمعزل منها، ولطالما كانت لي تطلعات أخرى. لقد تمنيتُ على الدوام أن يأتي يوم يخلّصني من هذا اللقاء الفظيع على انفراد مع البشر. ولقد تحقَّقت الأعجوبة. وجاء المنقذون الذين لطالما انتظرتهم. لن أرفض متعتي. ألم تلاحظ كم أشعر بالسعادة منذ أن قدموا إلينا؟».

«نعم، لقد لاحظت ذلك بالفعل».

«بفضلهم، استرجعت حبي للحياة. لا يجدر بك أن تلومني على ذلك!».

«ولكنني لا ألومك على ذلك!».

«هذا أفضل بكثير!».

بعد قولها هذا، ارتمت بين ذراعي. كنت جالساً على أريكتي المعتادة، وكانت هي واقفة بقربي، تتباهى بحكمة الأوصياء علينا، عندما رمت بنفسها، من دون إنذار، وكأن مقعدي فارغ، فاحتضنتها، وطبعتُ قبلة على جبينها، ثم قبلة أخرى على شفتيها، متمتماً:

«أيتها الطفلة!».

ويبدو أن التسمية راقتها، فازدادت التصاقاً بي، وقد خبأت وجهها، كما كانت تلوذ في طفولتها بأحضان والدها. بقينا للحظة في هذه الوضعية، لحظة مديدة استمتعت فيها بتنشق رائحة قميصها بقدر ما أشاء.

لم أحس بثقلها على صدري. وعندما نهضت، وأنا أحملها، لم أحس بوزنها بين ذراعي، فأدركت، بفعل إلهام مفاجئ، أن دخولي إلى

«نفق الشفاء» منحني بدوري، بعض الآثار الترميمية. وهذا لا يعني أنني اكتسبت قوة هرقل، ولكن يبدو لي أنني استرجعت العضلات والأنفاس التي كنت أتمتع بها منذ ثلاثين عاماً، وهذه بمنزلة أعجوبة تكفيني.

من الغريب أنني لم أدرك ما أصابني من تغيير إلا بعد انقضاء أسبوع! كان لا بد لي، من دون شك، أن أبذل جهداً غير اعتيادي لكي تتجلى فوائد العلاج. ومن ناحية أخرى، اختفت حالات الدوخة التي تصيبني، اختفى «دوار البحر»، وتبين أن كل هذه الآثار المزعجة أصبحت خلفنا.

كنت قادراً تماماً على الصعود إلى الطابق العلوي حاملاً إيف بين ذراعي مثل العروس. غير أنني أنزلتها على قدميها، وارتقينا درجات السلم معاً، ويدها في يدي. كنا في بداية فترة العصر، والغرفة في الطابق العلوي يغمرها ضياء شتوي، وكانت ملاءات السرير بلون الكتان، والوسادات برائحة القمح المحصود.

لدى الذهاب إلى بيت جارتي، لم أكن أعتقد أن حديثنا سيأخذ هذا المنحى؛ إذ من الواضح أننا كنا بحاجة، الواحد منا والآخر، إلى هذا العناق. ولقد تعانقنا كما قرعنا كأسينا في السابق، لتبديد مخاوفنا المكتومة متظاهرين بأننا نحتفل بانتصارات. وفي هذا المجال، كنا، أنا وهي، نتحلى بسوء نية لا سبيل لإنكارها؛ ولكنه سوء نية مشروع، وجدير بكل التقدير، لأنه يهدف فحسب إلى أن يعفينا من بعض الأسباب الوجيهة للموت.

وكالعادة مع إيف، كان الوصال مبهجاً، شقياً، لطيفاً، ساخراً، مرهفاً، وملتهباً. فالذكاء عندها لا يغفو عندما تستيقظ الحواس...

ولكن كفى إطراءات ملتبسة، يكفيني القول بأنني كنت سأبقى إلى ما لا نهاية قربها لو لم تكن ربيبتي تنتظرني وحدها في البيت. واضطررت أخيراً إلى النهوض، وارتداء ملابسي، والانصراف، وكأنني بذلك أنسلخ عنها انسلاخاً.

عندما رجعت إلى البيت، كانت أدريان لا تزال مستيقظة، وتحدثنا حتى طلوع الفجر عن قوم إمبيدوقليس، وعن المغامرة الغريبة التي قُدِّر لنا أن نعيشها منذ ظهورهم في حياتنا.

حكمي عليهم، كان متقلِّباً، وقد بدا واضحاً وجلياً من خلال هذه اليومية التي، بحكم طبيعتها، تؤثر العفوية على الاتساق. فتارة أتحسر على الزمن الماضي، عندما كان يتراءى قومي أرقى الخليقة؛ وتارة أخرى، أبتهج لأنني عرفت ذلك الزلزال الذي قد يكون خلاصياً.

شدَّدت على هذا الجانب الأخير في حديثي مع ربيبتي التي لم أشأ لها أن تنقم على هؤلاء القوم، وهي تتأهب للعمل معهم - إذا ما رجعوا إلينا - وبالرغم من أنهم لم يعودوا حتى الساعة، لكن كان عليّ توضيح ذلك، والتأكيد أن الموجات الأثيرية استمرت على بكمها، بما يدعو لليأس، لحظة كتابة هذه السطور الأخيرة لأحداث هذا اليوم.

الاثنين ٢٩ تشرين الثاني

تواروا عن الأنظار منذ ست وثلاثين ساعة. ويخطر ببالي أحياناً أنهم لن يرجعوا، وأنه يجدر بي تقويم حصيلة لقائنا المقتضب معهم، غير أنني تريثت على الفور، بسبب الأعطال، بالضبط. الهاتف، والمذياع، وشاشات الأجهزة، وإلى ما هنالك. وقلت لنفسي إنهم مستمرون في معاقبتنا على هذا النحو، لأنهم لم يحسموا أمرهم ويتخلوا عنا.

في الصباح، عند ساعة الجزر، سلك العشرات من سكان الجزيرة ممرَّ الـ«غواي» وراحوا يذرعون شاطئ أنطاكية رواحاً ومجيئاً. تحسَّروا، وطمأن بعضهم بعضاً، وسرحوا النظر في خط الأفق. ثم رجعوا خائبين عند مغيب الشمس، والغصة تملأ حلوقهم. إنني أجهل ما يجري في سائر العالم، ولكنني كنت أتخيل أن آلاف الرجال والنساء، في كل

مكان، على جميع الضفاف حيث ألقت سفن إمبيدوقليس مراسيها، ينتظرون منتحبين كاليتامى.

وهنا، في الأرخبيل، كانت تتجلى مخاوف من نوع آخر. فلقد تاه مركب صيد في عرض البحر. اتجه فجراً نحو موقع اسمه روشبيل، يعرف بمياهه الغنية بالأسماك؛ وكان من المرتقب أن يعود إلى الميناء في آخر النهار، ولكنه اختفى. وفي ظل الأوضاع الراهنة والسائدة، لا سبيل على الإطلاق للاتصال به، وطاقمه مؤلف من ثلاثة إخوة وابن لواحد منهم، وجميعهم بحارة متمرسون ولا يعاقرون الخمرة عادة، ولم يرسل أي إشارة للنجدة. وبما أن البحر كان هادئاً طوال اليوم، اقتنع سكان الجزيرة بأن «أبناء وطن» الملّاح قد أخضعوا المركب للتفتيش.

ومن الملاحظ أن هؤلاء أصبحوا يلوحون، في عيون قومنا، تارة مخلِّصين، وتارة أخرى مفترسين. فلقد استوطنوا في مخيلتنا وجسدوا مخاوفنا السحيقة وكذلك آمالنا. وسنحت لي بنفسي الفرصة لأغدق عليهم البركات وأصبُّ عليهم اللعنات على السواء، ويبدو لي أنني سأترجّح إلى ما لا نهاية بين هذا الحكم وذاك.

من ناحية البركات، إنني أعترف لهم بالفضل لأنهم جنبونا حرباً ضروساً، ورموا لنا بشبكة نجاة لالتقاط لوثات جنوننا السابقة أو التالية. ولست بناكر أيضاً لما قدّموه لي من علاج؛ وإذا ما عادوا إلينا يوماً، سألجأ في الأغلب إلى معارفهم العلمية. ولهذا السبب فحسب، لا بد لي من الشعور، ناحيتهم، بالتقدير والامتنان.

أما من ناحية اللعنات، فالملفُّ أقل وفرة بالتفاصيل، والمرافعة فيه

أصعب. إنني ألوم «مخلِّصينا» بالأخص لأنهم حوَّلوا تاريخنا، بكوكبته المجيدة من الأبطال والغزاة والقديسين والمكتشفين، إلى فصل ثانوي من المغامرة الكونية، ولأنهم - وبرمشة عين! - اختزلوا معشر البشر، بجميع شعوبهم، إلى مرتبة سكان أصليين. غير أن حضاراتنا، والحق يقال، لم تتردد في التصرف على هذه الشاكلة الواحدة منها تجاه الأخرى. ولذلك، لن أجازف وأدعي أننا كنا لا نستحق المهانة التي جرَّعنا إياها الأوصياء علينا.

وها أنا أدلي مرة أخرى بآراء لن تدحضها إيف! أظن أنني أكثر اعتدالاً منها، وأقل استفزازاً، ولست معادياً للبشر على الإطلاق؛ غير أنه يتضح لي، بعد أن استفدت من هذه الساعات الأخيرة للتأمل، أن «بشريتنا» قد مُنيَت توّاً بمعاناةٍ لم تكفَّ عن ممارستها، اليوم كما بالأمس.

فمنذ أن فتحت عيني على العالم، تسنى لي أن أشهد ظاهرتين تتجليان لي، في يوم الاستراحة هذا، بمزيد من الوضوح. أولاً، الانتصار الحاسم لأمة أصبحت، على مدى عقود قليلة، القوة العظمى الوحيدة، بل، وبطريقة ما، الحضارة الوحيدة؛ وإنني أقصد بالطبع الولايات المتحدة الأميركية. والآن، هذا النصر الذي أحرزته «أمة» إمبيدوقليس، الذي حصل بطريقة أكثر مباغتة، ومن دون أن يكون أحد مستعداً له.

هنا، أستحضر فجأة في ذهني جملة نقلها إليّ مورو منذ بضعة أيام، ولم تسنح لي الفرصة لتدوينها. ويبدو أنها قد أحدثت دوياً، لأنني

عثرت عليها بصورة متزامنة على مواقع كثيرة في أميركا اللاتينية. ونص هذه الجملة هو التالي: «*Ahora los yanquis tienen sus propios yanquis*»، وسوف أترجمه بتصرف كما يلي: «أصبح اليانكيز يواجهون بدورهم يانكيز من العيار نفسه».

عادة، تشهد الحضارات التي تفقد مرتبتها سلفاً فترة طويلة من الانحطاط، غالباً ما تمتد على مدى قرون عديدة؛ ولذلك يكون لديها الوقت الكافي لتعتاد تهميش موقعها، والإذعـان لانتفاء أهميتها. والانهيار الفوري، كما حصل في زمن الفاتحين الإسبان، يبقى هو الاستثناء للقاعدة. ولئن أشرت إليه أحياناً، فلأن الاضطرابات الراهنة تُذكِّرني، بالضبط، بتلك الحقبة التاريخية. فما شهدته شعوب الأزتيك أو الإينكا حينذاك يتجلى أمام أنظارنا بالنسبة إلى مجمل المجتمعات البشرية: تبخيس مفاجئ لمعارفنا، ورؤيتنا للعالم، وهويتنا، ومكانتنا.

لقد اختلطت جميع أوراق التاريخ الكوني، وسيُعاد بالضرورة توزيعها. ولكن الأوراق لن تُوزَّع بالطريقة نفسها، تبعاً لما سيختاره الأوصياء علينا، إما أن يبقوا بيننا وإما أن يتواروا عن الأنظار.

هذا المساء، دعوتُ إيف إلى العشاء، إيف التي لم تكن ربيبتي قد التقتها بعد. أعددتُ حساء بالأسماك المتبقيّة التي كنت لا أزال أحتفظ بها في ثلاجتي. وأرجو أن يُستأنف الصيد قريباً وإلا فسيحتاج سكان الأرخبيل عما قريب إلى كل شيء - ونحن، «سكان أنطاكية»، في المقام الأول. فلم تعد تصل أي سلعة من القارة، والتربة لا تعطي أي

محصول في هذا الموسم، وعجائز من سكان الجزر بدأوا يتذكَّرون فترات المجاعة الماضية. ولكنني أحصيتُ اليوم في القبو العائد لي مئة وست زجاجات؛ فلن ينقصني النبيذ، على أي حال، قبل وقت طويل!

لدى تقديم جارتي إلى أدريان، سمعت نفسي أقول عنها: «إنها حبيبتي!». انفجرنا ضاحكين نحن الثلاثة؛ فأضفتُ بالنبرة نفسها: «إننا نتشاطر هذه الجزيرة، أملاكها في الشمال، وأملاكي في الجنوب. إنها تكتب، وأنا أرسم، ونحن نتشاجر أحياناً، ثم نشرب نخب أصدقاء إمبيدوقليس».

ومضت إيف تقول: «إنه أسلوب في الكلام، فمن ناحية الصحة، إنهم لا يحتاجون إلى تمنياتنا. إنني أشرب عادة نخب هوان البشر، ويشرب معي جاري من باب اللباقة، ثم ننام معاً لكي نتصالح مع أحوال البشرية!».

احمرَّ وجهي خجلاً، وسخرت مني المرأتان الشابتان بحنان. أظن أنني لن أعتاد البراءة التي يدور فيها الحديث في أيامنا عن بعض الأمور... ولكن، فيما بعد، وبمساعدة النبيذ، خلع كل منا قليلاً رداء الروح، من دون إخراجٍ مسرحي، ومن دون تصنُّع ولا خفر، وكأنه لقاؤنا الأخير قبل نهاية الأزمنة.

لا أذكر أنني عشت، في أي فترة أخرى من حياتي، أمسية بهذا القدر من الدفء والشفافية والاحتدام. وفي الواقع، راحت رغبتي تتضاءل وأنا أتحدث عنها على هذه الصفحات، فيتملّكني الشعور بأنني أبدِّد سحرها.

الثلاثاء ٣٠ تشرين الثاني

عندما استيقظت، ذهبت لتفقد شاطئ لا روش-أو-فرا، شاخصاً بصبر إلى البحر. كنت أعلم أنني لن ألمح سفن إمبيدوقليس، وبالفعل، لم ألمحها.

البارحة، كنت أتشبث بفكرة عجيبة مفادها أن العقاب الذي ينزلونه بنا يعني أنهم ما زالوا يكترثون لأمرنا. أما الآن، فأنا أبتسم لسذاجتي وقلة بصيرتي. فكل الدلائل تشير إلى أن العطل مجرد ذريعة لحماية هروبهم، حتى يتسنى لهم، من دون أن يتعرَّضوا للتعقب، العودة إلى البقاع التي أتوا منها.

تقول إيف وأدريان إنهما مقتنعتان بأن الأوصياء علينا لن يطول غيابهم. ولا تدخران وسعاً لإقناعي بذلك، وكأنني سأعزز، بتأييدي

لرأيهما، فرص الحدث الذي ترجوانه. واستسلمت في النهاية، فوافقتهما الرأي.

إنهما متأثرتان الواحدة منهما والأخرى بما قد حدث تواً، ولكن ليس للأسباب نفسها.

توحي لي إيف بأنها قد استيقظت فزعة وسط أجمل أحلامها. وإنها تعترف بذلك بالفعل. «ما يحدث منذ ثلاثة أسابيع كنت أتمنى حدوثه من كل قلبي منذ الطفولة من دون أن أجرؤ على تصديقه. فأن تعلن قوة، انبثقت من العدم، أن البشر لا يتمتعون بالكفاءة وتضعهم تحت وصايتها؛ وأن تصادر قنابلهم، وصواريخهم، وقواعدهم العسكرية، وقصورهم، وسجونهم، ومصانعهم للغاز، ومختبراتهم، ومسالخهم... وفجأة، وبينما كنت في أسوأ حال، أصبح حلمي حقيقة!». ما زالت في انشراح؛ غير أنني أشعر بأنها ستعود إلى اليأس والإحباط إذا ما استمر اختفاء «مخلِّصينا».

أما ربيبتي فإيمانها بعودتهم هو بدافع مختلف تماماً ألا وهو الفضول العلمي. فلطالما انبهرت بالإنجازات في مجال الطب. وهي ترى أن «أصدقاء إمبيدوقليس»، في المقام الأول، هم علماء أفذاذ استطاعوا تحقيق إنجازات باهرة أكثر من إنجازاتنا. كانت تريد الانخراط بتواضع في مدرستهم، سعياً لفهم الطريقة التي ارتقوا بها إلى هذه المرتبة السامية.

«وعدني بوسانياس أن يدرِّسني الطب عندهم. وأنا أعرف على

وجه اليقين بأنه سيفعل، إذا ما سنحت له الفرصة، وآمل أن أكون عند حسن الظن. وفي جميع الأحوال، سأجتهد في الدراسة، وإن اضطررت لتكريس حياتي بأكملها لأجل ذلك».

كنا جالسين نحن الثلاثة في صالون بيتي، نشرب الشاي الأخضر الياباني. الشمس تميل إلى المغيب، ولكن الضوء كان لا يزال كافياً لكي لا نحتاج إلى إضاءة شموع. على صفحة البحر انعكاسات تميل إلى اللون الوردي. كان البحر مرتعشاً ومهجوراً تماماً. ولا وجود لأي مركب يلوح للعيان.

سألت إيف إذا كانت أدريان قد اختبرت «نفق الشفاء».

«كنت أعتزم اختباره، ولكن يوجد على الدوام مرضى حقيقيون ينتظرون دورهم. أما أنا فأتمتع بصحة جيدة...».

«ألم يعرض عليك ذلك طبيبك الشاب والوسيم الخارج من لجَّة البحر؟».

ابتسمت ربيبتي.

«بلى، بل أصرَّ على أن أختبره في تلك الليلة. ولكن الوقت كان متأخراً، وكنت قد شربت قليلاً، وعشرات الأشخاص ينتظرون دورهم. فوعدته بأن آتي لاختباره حتماً في اليوم التالي...».

«وهل قبَّلك؟».

انتفضتُ مبغوتاً، بعكس ربيبتي التي كان السؤال يبدو لها مشروعاً.

«كلا، لم يقبِّلني، اكتفينا بالكلام. سألته سؤالاً كان يحيِّرني: لماذا

تقدَّم علمهم أسرع من علمنا؟ وكان جوابه خارج الموضوع قليلاً. ولكنه ساعدني على الفهم».

«أوضح لي أننا اعتدنا ربط الاكتشافات العلمية أكثر من اللازم بحقبة معينة. وعلى هذا النحو، اكتشفت جاذبية الكون في القرن السابع عشر، ولكنها لم تظهر في عصر نيوتن، بل \اكتشفت فقط في فترة معينة، لأن أوجه التقدم التي أحرزها العلماء في فهم الظاهرة كانت قد بلغت مرحلة النضج. وقوانين الطبيعة هي نفسها بالطبع منذ فجر الخليقة؛ وقواعد الجاذبية، كان بالإمكان اكتشافها قبل ألف أو ألفي عام. ويتأكد هذا الأمر في جميع المباحث العلمية...».

«وبالتالي، عندما يفلح بعض البشر في المضي قدماً، من دون أن يكون ذهنهم مقيداً بمحظورات أو أحكام مسبقة، ومن دون أن يكون لديهم شاغل آخر سوى دحر الجهل، يمكنهم أن يتقدموا بوتيرة أسرع بكثير من غيرهم، وأن يجدوا أنفسهم في مرحلة متقدمة جداً. ويرى بوسانياس أن هذا ما يفسر «المعجزة الأثينية»، وهذا ما يفسر أيضاً تقدم بني قومه».

سألتها: «وكيف استطاعوا البقاء على قيد الحياة طوال قرون؟ وأن يظلوا بمأمن من الأنظار، وأن يحتموا من بطش الطغاة، وأن يتمكنوا من شق سبيلهم؟».

أجابت إيف، وهي تحدق بعيداً عبر الواجهة الزجاجية: «البحر. منذ أن حكى لنا أغاممنون مسار أسلافه، لا أكف عن طرح الأسئلة

نفسها التي تطرحها: كيف استطاعوا المحافظة على أنفسهم؟ كيف أبقوا على شعلة المعجزة القديمة حية ومتوهجة؟ بالاستمرار في الهروب؟ باللجوء إلى الكهوف؟ كلا. الجواب أكثر بساطة وأكثر منطقية، ولقد تجلَّى لي يوماً بديهياً: البحر، بالطبع. أليس البحر أرحب البلدان، وأقلَّها عرضة للغزو، وأقلَّها محاصرةً، وأقلَّها خضوعاً للسيطرة على مر القرون؟ ألم تكن هناك، على الدوام، مناطق ساحلية استطاعت أن تعيش فيها مجتمعات خفيةً، من دون أن تخضع لأي سلطة أو لأي امبراطورية؟».

وعدتها ضاحكاً: «إذا عادوا، سأخضع الملَّاح للتعذيب إلى أن يعترف لنا بكل الحقيقة».

أصدرت جارتي حكمها بثقة: «سيعودون. ليس لدي أدنى شك على الإطلاق».

فرددت أدريان معها: «الله يسمع منك!».

لم أضف شيئاً. فحتى الآن، كل التساؤلات مشروعة، والصلوات أيضاً. ومن ثم، سأكتفي بالإفادة عنها، من دون السعي لتقديم أجوبة أو الإعراب عن تفضيلات.

كلمة أخرى أضيفها، قبل أن أغلق هذه اليومية، للإشارة إلى أن مركب الصيد الذي انقطعت أخباره منذ البارحة قد عاد هذا المساء إلى بور-أتلانتيك، إنما بنصف طاقمه. أبحروا أربعة، ثلاثة إخوة وابن أحدهم. ولقد غرق اثنان من الإخوة، ولم تكتب النجاة إلا للأب

والابن. ماذا جرى؟ حادث؟ شجار؟ تصفية حسابات؟ يقسم الناجيان أن رفيقيهما راحا ضحية كتلة مائية غمرت المركب.

لا أدري إذا كان يجب أن نصدِّقهما... اليقين الوحيد أن أصدقاء إمبيدوقليس لم يكن لهم أي دور في هذه الفاجعة. لا هم مغرقون ولا هم منقذون، مما يعزز لدي الشعور بأن القوس الاعتراضي الذي فتحوه في حياتنا سيُغلق عما قريب، وأنه ربما يجدر بنا أن نتخلى عن عادتنا في اعتبارهم سبب أفراحنا وأتراحنا على السواء.

غير أنني قد أكون مخطئاً تماماً. وهذا ما ستقوله لي إيف وأدريان لو كانت لدي الجرأة وصارحتهما بما يجول في خاطري.

الأربعاء ١ كانون الأول

أعرف أخيراً لماذا «ابتعدوا» عن السواحل، ولماذا «تعرَّضنا» للعقاب.

بسبب الهجوم. وقد حصل السبت الماضي عند الساعة الخامسة والدقيقة الأربعين بعد الظهر، بتوقيت واشنطن. وكانت الساعة هنا تشير إلى الدقيقة العشرين قبل منتصف الليل. وقد انتهينا من تناول عشائنا مع بوسانياس، ورجعت أدريان بعد أن رافقته...

ونظراً لصمت الموجات الأثيرية، اليوم سمعنا الخبر.

وقع الحادث في المكان نفسه الذي تلقى فيه الرئيس ميلتون العلاج، في قناة تقع جنوب غرب العاصمة الاتحادية. دمَّر انفجار ضخم السفينة الاستشفائية، ما أدى إلى مقتل أطباء، ومرضى كانوا

يتلقون العلاج، وأشخاص ينتظرون دورهم، وبعض ضباط الشرطة الذي كانوا يحرسون المكان، وغيرهم من الأشخاص الذين كانوا موجودين في الجوار لسوء حظهم. والحصيلة الأخيرة التي اطلعت عليها تشير إلى ثمانية وثمانين قتيلاً، في عدادهم تسعة من «رعايا» أمبيدوقليس، وأكثر من مئتين وخمسين جريحاً.

وأفيد أن العبوة الناسفة وضعت تحت مركب قيل إنه اقترب من المستشفى العائم بحجة ما. ولكن مختلف النظريات تنتشر هذا الصباح على الإنترنت، وتتحدث عن صواريخ، وطائرات قاتلة مُسيَّرة بلا طيار، وانتحاريين.

وتشير كل الدلائل إلى أن «الأوصياء علينا» قد بوغتوا بالاعتداء الذي استهدفهم. ولم يسعوا لاسترجاع حطام السفينة، ولا حتى جثث أشقائهم - ولكن يبدو أنه لم يبق من شيء يسترجع. فبادروا إلى قطع جميع الاتصالات فوراً، والتواري عن الأنظار. وفي اللحظات التي تلت الانفجار، كانت سفنهم قد غادرت جميع المراسي، في أنحاء العالم كافة، بحثاً عن ملاذ في أعالي البحار.

ونظراً إلى «العطل» المفروض، لم يعلم بما جرى إلا القلائل. فخبر الانفجار لم ينتشر سوى في واشنطن، ومن شخص إلى آخر أساساً. غير أن منشورات وُزِّعت اعتباراً من مساء السبت على مشارف مبنى الكابيتول والبيت الأبيض، وأعلنت منظمة تطلق على نفسها اسماً بالغ التبجح، «الآباء المؤسسون الجدد»، بالإشارة إلى أبطال الاستقلال الأميركي، مسؤوليتها عن الانفجار. وهذا هو نص المنشور:

«منذ ثمانية عشر يوماً، تتعرض أراضي الولايات المتحدة لاعتداء غير مسبوق، يُهدِّد استقلالنا، وسيادتنا، وكذلك حرية أبناء وطننا وكرامتهم.

تمارس زمرة من القراصنة وبائعي الأوهام ابتزازاً حقيراً على قادتنا الذين لا يتحلون بالجرأة لمواجهتها، ولقد بلغ بهم الأمر أن أوعزوا إلى قواتنا بالرضوخ بإذعان لشروطها.

إن أعظم قوات مسلحة على وجه الأرض قاطبة لن تقبل بأن تُجرّد من أسلحتها!

وأشد الأمم بأساً وازدهاراً خلقها الله على وجه الأرض لن تقبل الذل والهوان!

إننا نقسم بأن نقاتل، بكل قوانا، وبجميع الوسائل، ومهما كانت التضحيات، لكي نستحق الحرية التي تركها لنا أسلافنا إرثاً.

فليبارك الله في الولايات المتحدة الأميركية!»

لم يذكر نص البيان صراحة المسؤولية عن الهجوم، ولكن التوقيع يعوِّض هذا النقص، بأسلوب ذكي، وغير معهود بالأحرى، لأنه مكتوب كما يلي:

الآباء المؤسسون الجدد

قناة واشنطن

الخميس ٥:٤٠ ب.ظ.

والبيان شديد اللهجة ضد قوم إمبيدوقليس، ويتحدث عنهم بلا احترام، ولا يصفهم باعتبارهم «أمة» أو «قوة متدخلة»، بل باعتبارهم «زمرة» تمارس الابتزاز وبيع الأوهام، ولا يعفي كذلك المسؤولين الأميركيين، بدءاً بالرئيس. وحتى ولو أغفل ذكر اسمه، فلمجرد أن الهجوم حصل في هذا الموقع، وأنه قد استهدف مباشرة أولئك أنفسهم الذين قدَّموا له العلاج، يشكل رسالة عظيمة الوقع.

حتى هذه اللحظة، لم يُدلِ ميلتون بأي تصريح، على حدِّ علمي. واقتصر الموقف الرسمي على بيان أعرب فيه عن الأسف للخسائر في الأرواح وأُدين استخدام العنف الأعمى؛ وقد صدر عن البيت الأبيض فحسب، من دون ذكر رئيس البلاد- وهو أمر غير معهود أبداً، لا سيما إزاء فاجعة بهذا الحجم. وقد يرغب المرء في طرح السؤال التالي: من في البيت الأبيض؟ الرئيس الأصيل أم الرئيس بالوكالة؟ «فالالتباس يظلُّ قائماً حول هذه المسألة، ووسائل الإعلام ما زالت تشير إلى بولدر على أنه «الرئيس بالوكالة». ومن الواضح أن ميلتون لم يطلب حتى الساعة استعادة صلاحياته، ولم يقدِّم استقالته كذلك. وأتوقع أن دسائس تحاك في الكواليس... ومورو هو الوحيد الذي يستطيع أن يوضح لي ما جرى. غير أنني لم أنجح في الاتصال به، وهذا من دواعي حيرتي وقلقي. ولقد سجَّلت له رسالتين على مجيبه الآلي، وأخرى بالبريد الإلكتروني، من دون تلقي أي جواب.

وبالطبع، لا بد أنه كثير المشاغل، لا سيما إذا كانت المعركة حامية

الوطيس في أعلى مناصب الدولة. ولكن هذا الصمت ليس من عادته. ففي العادة، إنه يكرِّس وقتاً، حتى إذا كان منهمكاً في عمله، لتوجيه رسالة مقتضبة إلى أصدقائه المقرَّبين. «سأتصل بك» أو عبارة من هذا القبيل.

أرجو ألا يكون قد خطر بباله الذهاب لتلقي العلاج في اللحظة غير المناسبة على متن المستشفى العائم!

كلا، هذا ليس تصرفاً قد يبدر منه في الحقيقة.

الخميس ٢ كانون الأول

كنت محقاً في انشغالي على صديقي. فقد اعتقل بصورة غير مشروعة طوال خمسة أيام وخمس ليال، ولم يطلق سراحه سوى اليوم.

ما جرى له يمثّل فصلاً من فصول المعركة الشرسة على السلطة التي تدور في واشنطن، في جزء منها علناً، وفي جزء آخر خفيةً، ونتيجتها، حتى هذه اللحظة، لا تزال غير محسومة على الإطلاق.

بدأت متاعب مورو يوم السبت الماضي، صباحاً، قبيل وقوع الهجوم بساعات قليلة، حيث كان قد تلقى اتصالاً متوجساً من سينثيا، السيدة الأولى، التي أخبرته أن زوجها اعتزم تقديم استقالته خلال النهار، وأنها تأمل بأن يلجأ مستشاره وصديقه إلى نفوذه لحمله على العدول عن قراره.

لم يكن مورو بالطبع مندهشاً للمنحى الذي اتخذته الأحداث. ولقد ردَّد ذلك على مسمعي اليوم خلال مكالمة هاتفية طويلة.

«لقد صمَّم هوارد على التنحي لحظة قبوله بتلقي العلاج على يد أطباء إمبيدوقليس. وفي البداية، كما تعلم، قرر أن يعلن عجزه عن ممارسة مهامه بصورة موقتة، مع أنه ليس ملزماً بذلك وفقاً لأحكام الدستور؛ ثم أغفل أن يستأنف ممارسة مهامه. وعندما كان أحد المقرَّبين إليه يذكره بالأمر، أجاب إنه يحتاج إلى الوقت للتفكير، وللتحقق مما إذا كانت العلاجات التي تلقَّاها لن تسبِّب له اضطرابات بدنية أو ذهنية».

«وبالطبع، كانت كل تلك الحجج بدافع إحساسه بالذنب، نظراً لأنه قد «تعامل مع المحتلين» نوعاً ما بعد الوعد الذي قطعوه له بشفائه. ولكن تدخل معه دائماً في الاعتبار الحسابات السياسية الخفية إلى جانب الهاجس الأخلاقي. وفي هذا الصدد، كان يرغب في أن يظهر ذهابه إلى السفينة الاستشفائية مثل مشروع محفوف بالمجازفة، تطلَّب منه قدراً من الجسارة والتفاني، عوضاً عن امتيازٍ منحه إياه «هؤلاء القوم». كان يعتبر أن مثل هذا المنظور، إذا ما اقتنع به المواطنون، سيحفظ مصداقيته المعنوية ومشروعيته. وكان لا يكف عن القول من حوله إنه يشعر بالألم، وإنه مصاب بنوبات من الدوار، وإنه يعاني اضطراباً بصريّاً. ومن ناحيتي، كنت أتفهم موقفه. وبالطبع، لم أنصحه قطّ بأن يعلن عجزه عن ممارسة مهام منصبه، ثم رجوته أن يستأنف مهامه في الحال. غير أنني كنت أقول في سرِّي إن هذه اللعبة الصغيرة ليست عديمة الجدوى إذا كانت تمنحه راحة الضمير وتثنيه عن الاستقالة».

«ومما أدى إلى تفاقم الأمور إلى أبعد حد هو البيان الصادر عن الدكتور أبيل. فالطبيب، إذ أعلن بهذا الشكل الاستعراضي أن الرئيس قد تماثل للشفاء، حشره في الزاوية، من دون أن يقصد ذلك بالطبع. ولو خطر ببال أبيل أن ما قاله ستكون له تبعات سياسية خطرة، لكان تشاور مع مريضه قبل أن يدلي ببيانه. ولكنه كان مشغول البال، وأنا أتفهمه، في الجانب العلمي للمسألة. فلقد اكتشف أن العلم الذي كرَّس له حياته لم يعد ذا قيمة تذكر. وبقية الأمور لا قيمة لها عنده...».

«وخلاصة القول، شعر هوارد بنفسه مرغماً على التصرف إزاء الإعلان العام لشفائه. فجميع السكان سيطلبون عما قريب تلقي العلاج بفضل طب الآخرين، ولم يكن يشعر بنفسه قادراً على مواجهة هذا المطلب. فكيف بإمكانه حرمان مواطنيه المرضى من العلاجات المنقذة للحياة التي استفاد منها شخصياً؟ سيكون الأمر، بالنسبة إلى قائد البلاد، أعظم خطأ لا يغتفر. ألم يسفح الإسكندر الأكبر أرضاً، الماء الذي أحضره له أحد الجنود لأنه لم يشأ أن يكون الوحيد في جيشه الذي يروي ظمأه؟ ولكن ميلتون، من جهة أخرى، لا يستطيع كذلك القبول بأن يطول بقاء قوم إمبيدوقليس لدينا إلى أجل غير مسمى من دون أن يظهر بمظهر الخائن، والعميل. ولقد أنهكه هذا الصراع الداخلي، وكان مقتنعاً، ولا يزال، بأن الحل المشرِّف الوحيد عنده سيكون في تخليه عن السلطة».

«فاتصلت بي سينثيا السبت الماضي، وأمرَّت لي هوارد. توسلتُ

إليه أن يؤخر استقالته ساعة، لكي آتي وأتكلم معه وجهاً لوجه. فقبل مراعاةً لصداقتنا التي تربو على ثلاثين عاماً. نزلتُ لاستقلّ سيارتي. وكان ثلاثة رجال ينتظرونني في أسفل عمارتي. أبرزوا بطاقات وطلبوا مني بحزم مرافقتهم. صادروا هاتفي الذي كنت أحمله بيدي. قادوني إلى طابق تحت الأرض حيث تظاهروا باستجوابي. وفي الحقيقة، كانوا يريدون فقط استبقائي. ولعلهم ظنوا أن الرئيس، حين يرى أنني لم أحضر، سيوقِّع على استقالته من دون أن ينتظر حضوري. ولكنه لم يتصرف على هذا النحو. فلما رأى أنني لن أحضر، وأنني لا أرد على اتصاله بي عبر الهاتف، ارتاب، ووضع الرسالة في أحد الجوارير ريثما تتضح له الأمور».

مكتبة
t.me/t_pdf

«من كان هؤلاء الأشخاص؟».

«وطنيون».

«حقاً! أهكذا تصفهم؟ أنت بالفعل لست حقوداً».

«لا أرغب في أن أتعامى بسبب مغامراتي العاثرة، فلا أرى الصورة بأكملها. إن ما يحدث منذ ثلاثة أسابيع يراه الكثير من الأميركيين بمنزلة تهديد لبلدهم، ولسيادته، ولموقعه كقوة عظمى. ويعتبرون أن هوارد أظهر تهاوناً شديداً في الدفاع عن مصالح الأمة، وأنه لا بد من تنحيته. وبما أنني كنت ذاهباً إليه بالضبط لإقناعه بالبقاء في منصبه، فقد اعتبرتُ عقبة، ولقد شلُّوا حركتي، نوعاً ما».

«أرى أنك تأخذ الأمور برحابة صدر...».

«أجـل، ولكن ذلك لأنني استرجعت حريتي فحسب. أثناء اعتقالي، كان صدري أقل رحابة. ولقد أمطرتهم بوابل من الشتائم».

«وأتظن أنهم هم الذين نفَّذوا الهجوم؟».

«لا أدري إذا كانوا ينتمون إلى التنظيم نفسه، ولكنهم يشاطرونه الأفكار والذهنية نفسها. فمن وجهة نظرهم، كان لا بد من أن يخضع قوم إمبيدوقليس لصدمة، وأن يتوجعوا بشدة، وأن يسقط في صفوفهم بعض القتلى، لكي يقرِّروا الرحيل. فالموت الذي يتسبب بتقطيع الأوصال بعبوة ناسفة لا يطاق بالنسبة إلى حضارة تتباهى بأنها قادرة على إطالة أمد الحياة إلى الأبد. ولقد تبين أن الأسلوب المتبع ناجعٌ بشكل مخيف. فحالما وقع قتلى في صفوفهم، تواروا عن الأنظار».

«بالطبع، وقعت أيضاً ضحايا في صفوف الأميركيين. ولكننا قد اعتدنا ذلك، للأسف، وبمقدورنا التسليم بخسارتنا لهم. أما هم، فلا يستطيعون على ما يبدو. هذا موطن ضعفهم، وخصومهم يدركون ذلك».

وبينما كان صديقي يتكلَّم، تبادر إلى ذهني أن هذا الاختلاف في القدرة على «تحمل» الخسائر يمثل عادةً ضعفاً وهشاشةً بالنسبة إلى الغربيين في علاقاتهم بمجتمعات أقل تقدُّماً. وفي مواجهة قوم إمبيدوقليس، «المرآة معكوسة» نوعاً ما. ومورو يدرك ذلك، فلقد تطرَّقنا من قبل إلى هذه المسألة. غير أنني لم أذكِّره بذلك، فلم أشأ أن

أقوده إلى خوض هذا الحديث. وكل ما أريده اليوم هو أن يحكي لي المحنة التي عاشها.

«شرحت لي لماذا اعتقلوك، وهذا يبدو لي منطقياً. ولكن لماذا احتجزوك خمسة أيام؟».

«أرى عدة تبريرات مقنعة، أولها أن الأشخاص الذين اختطفوني خافوا من التعرُّض للملاحقة، فتصرَّفوا بعجلة. ولا بد أن أحدهم قد تنصت على حديثي مع سينثيا وهوارد، وأوعز إلى رجاله بمنعي من الذهاب إلى البيت الأبيض. لم يكونوا ملثَّمين، والمبنى الذي اقتادوني إليه، أعرف تماماً أين موقعه. وعندما وقع الهجوم، لا بد أنهم اعتبروا، بعد مرور عدة ساعات، أنه إذا أطلق سراحي، فلن يواجه المحقِّقون أي صعوبة في تعقب أثرهم. وبما أنهم لا يعتزمون تصفيتي، فلقد احتفظوا بي حتى إشعار آخر».

«ولماذا أطلقوا سراحك اليوم؟».

«لأنه لن يحصل تحقيقٌ بشأن الهجوم. بالطبع، سيتم التظاهر بإجراء التحقيق، ويقال إنه قد عثر على المتهمين ونالوا عقابهم، ولكن ستبذل كل الجهود للتمويه والتضليل».

استغربتُ أن يطلعني بهذه الصراحة على مسألة تتسم بهذا القدر من الخطورة، لا سيما وأنه يعلم الآن بأن اتصالاته تخضع لمراقبة لصيقة. ثم اقتنعت أن صديقي يعلم حق العلم ما يقوم به. ولو تنصَّت

«الوطنيون» المزعومون على كلامه، سيتلقون ببالغ الدقة الرسالة التي يريد أن ينقلها إليهم، ومفادها أنهم لن يتعرَّضوا للمضايقة، وأن بقاء ميلتون في منصبه لا يجب أن يثير خشيتهم.

ويُستشفُّ من كلام مورو، وإن لم يقلْ ذلك صراحة، أن الهجوم على المستشفى العائم لم يكن صنيعة حفنة من المتطرفين، بل عملية قادها أولئك أنفسهم الذين يتولون حماية البلاد: القوات المسلحة، أو أحد الأجهزة الأمنية، أو ائتلاف يضمُّ عدة أجهزة. والانطباع الذي ساد في هذه الآونة الأخيرة على جميع مستويات السلطة الاتحادية أنه لا بد من التحرك، بأي وسيلة كانت، لطرد «المتطفلين»؛ في إحدى محادثاتنا السابقة، أشار إليهم صديقي، على سبيل التلطيف، باسم «الضيوف غير المدعوين».

هل سيكون الانفجار القاتل الذي وقع السبت الماضي كافياً لتحقيق هذا الهدف؟ لا يسع المرء استبعاد ذلك، ولكن من المبكر للغاية تأكيده. فلا شيء يسمح بالجزم، عند هذا الحد، إذا كانوا سيتقبلون هزيمتهم، ويلملمون كبرياءهم، ويعدلون عن مشاريعهم، ويكفون عن الاهتمام نهائياً بما يجري من أحداث في الكوكب.

سنتحلى بفطنة النعامة إذا ما تخيلنا بأن الأوصياء علينا ليس بمقدورهم رؤيتنا، إذا كنا لا نراهم، أو مراقبتنا عن كثب، أو الاستعداد في الخفاء للتدخل مجدداً إذا ما تراءى لهم أن هذا ما يقتضيه الحال.

السبت ٤ كانون الأول

البارحة، لم أضفْ صفحة واحدة إلى هذه اليومية. اكتفيت بترتيبها قليلاً، فصحَّحتُ بعض الأخطاء الإملائية، وتحقَّقتُ من مصدر الجمل المذكورة في الهامش، ثم رتَّبتُ المفكرات الثلاث الأولى في ملف رمادي اخترت له موقتاً عنوان «شهادة»؛ أما المفكرة الرابعة التي أخطُّ فيها هذه السطور والتي لم أنجز سوى ثلثها، فلقد خطر ببالي أن أنهيها في الأيام القادمة ببعض الفقرات على سبيل الخاتمة، قبل أن أضعها جانباً بدورها ولا أعود إليها.

هذا لا يعني أن هذه القصة انتهت، فستتواصل طويلاً، برأيي، بشتى الأشكال، ولن تصل إلى خواتيمها تماماً؛ ولكن كان يبدو لي أن دور شاهد العيان الذي حاولت أن ألعبه خلال الأسابيع الماضية قد انتفت الحاجة إليه منذ الرحيل المباغت «لأولئك غير المدعوين».

وإذا كنت قد بدَّلت موقفي بهذا القدر من السرعة، فلأن البلبلة التي لاحظتها طوال يوم السبت هذا تدفعني إلى الاعتقاد بأن الأحداث التي أسرد وقائعها في هذه الصفحات ما زالت تنتمي إلى المجريات الساخنة، لا إلى مسار التاريخ فحسب، وأن الشهادة اليومية التي أقدِّمها تحتفظ، في الوقت الحاضر، بمبرِّر لها.

وأنا ألمح بالأخص إلى المبارزة المتواصلة في واشنطن، التي من المرجح أن يكون لها عواقب على البشرية جمعاء، والتي راحت تتخذ هيئة مأساة إغريقية.

هذا الصباح، عندما استيقظت، كانت كل وسائل الإعلام في الكرة الأرضية تنقل بعض التصريحات التي صدرت مساء البارحة عن غاري بولدر، رئيس الولايات المتحدة بالوكالة، والتي لم أسمعها في بث مباشر بسبب فارق التوقيت.

لم تكن كلمة ألقاها من مكتبه في البيت الأبيض. فسيكون تصرفاً أخرق من جانبه أن يعتمد وضعية رئاسية بالغة الوضوح. ولقد آثر المصارحة بموقفه في مقابلة تلفزيونية مطوَّلة، ولكن خطابه كان يوحي، بالرغم من ذلك باستعراض القوة.

وعلى هذا النحو، عندما سألته الصحافية كيت ستورمفيلد عن رأيه في قبول الرئيس هوارد بتلقي العلاج على يد أطباء إمبيدوقليس، أجاب بعبارات قاتلة، من الواضح أنها مهيأة مسبقاً، ومصحوبة بتكشيرة تألم زائف:

«قلت لنفسي إن هوارد، وهو لطالما كان رجلاً مستقيماً ومحترماً، قد عاش لحظة ضعف وضياع. ولقد رضخ، كما تعلمين، لضغط الأقربين، وإنني على يقين بأنه قد ندم على ذلك فوراً، وتألم جراء ذلك. إنني أكنُّ له الاحترام والمودة، غير أنني أعتقد بأنه لم يحسن تقدير الأمور في هذه القضية. لقد ترك الاعتبارات الشخصية تتقدَّم على المصالح العليا للأمة».

سألته الصحافية: «أليس طبيعياً، مع ذلك، اللجوء إلى الوسائل كافة للشفاء من مرض السرطان في مراحله النهائية؟».

«بلى، بالتأكيد، من الطبيعي أن يرغب المرء في الشفاء. أما ما ليس طبيعياً، بالمقابل، فهو أن يتخيل بأن الإنسان سيتمكن من الانتصار على الموت. واسمحي لي أن أقول بأن هذا وهم انتشر كثيراً في السنوات الأخيرة. إنه وهم جنوني وأثيم. فالله هو وحده سيد الحياة والموت، وعندما يتخيل الإنسان الفاني، سواء أكان فقيراً أم غنياً، ضعيفاً أم قوياً، أنه يستطيع سحبَ هذا القرار من بين أيدي خالقه ليتولاه بصفاقة، فإنه يقترف إثماً سيُعاقب عليه لا محالة».

«لدى سماع كلامك، نفهم أنك لم تحزن حين ابتعدت مستشفيات إمبيدوقليس العائمة عن شواطئنا...».

«حدسك في محلِّه يا كيت. فلقد تراءت لي كل الترتيبات مع هؤلاء القوم، منذ الوهلة الأولى، أشبه بحلف مع الشيطان. ولحسن الحظ، استعادت أمتنا العظيمة رباطة جأشها بسرعة فائقة. وكان يمكنها

أن تختار بين الرضوخ، والإذعان، والوعود الكاذبة؛ ولكنها فضلت المقاومة، ورفضت الخيار الأثيم، ويمكنها أن تفخر بذلك».

وعندما سئل بولدر عن الانفجار الذي وقع السبت الماضي، حرص بعناية على تفادي إدانة الفاعلين، مكتفياً بالإعراب عن أسفه «لأن هذا العدد من الأميركيين الأبرياء سقطوا ضحايا»، وبالتمني «ألا يكونوا قد ماتوا سدى».

كان مورو الذي اتصلت به على الفور للاطلاع على رد فعله مستهجناً بصدق. «هذا كلام شائن! قائد لا يدين حتى الهجوم، ويؤيد أهدافه، ويبتهج لنتائجه، أهذا يعقل بربك؟ ثمة حد أدنى من اللياقة التي يجب أن يحافظ عليها المسؤول الرفيع المستوى، أياً كان تحليله السياسي، أو طموحه، أو تململه!».

ولكن صديقي لم يكن يصبُّ جام غضبه على بولدر فحسب.

«ما كان ليحدث كل ما حدث لو لم يتصرف هوارد بحماقة. ما كان يجدر به إطلاقاً أن يعلن عجزه عن أداء مهام منصبه، ولا بالأخص أن يدع غاري ينام ويصحو رئيساً للولايات المتحدة!».

«ولكن إذا فهمتك جيداً، يكفي أن يوجه ميلتون رسالة إلى رئيس مجلس الكونغرس ورئيس مجلس الشيوخ لكي يستأنف مهامه ويضع حداً لهذه الحالة الشاذة، أليس كذلك؟».

«أجل، من الناحية المبدئية. ولقد أرسل هوارد هذه الرسالة اللعينة البارحة مساء أخيراً. ولكن غاري ردَّ في الحال وأرسل بدوره رسالة إليهما للاعتراض على قرار الرئيس».

«باسم ماذا؟».

«إنه يدعي أن الأسباب التي أدت إلى «عجز» هوارد ما زالت قائمة، وأنه لا يجب أن يسمح له باستئناف مهامه».

«أهذا قانوني؟».

«مهلاً، ثمة أسوأ من ذلك: اعتباراً من اللحظة التي يطعن فيها بقرار الرئيس، يحتفظ نائبه بالرئاسة».

«وهل هذا ممكن؟».

«هذا يجافي الصواب، أجل، ولكنني قرأت التعديل الخامس والعشرين وأعدتُ قراءته، النص مبهم بعض الشيء، ولكن يبدو أنه يشير إلى أن قرار الرئيس حين يطعن به نائبه، فإن هذا الأخير يستمر في تولي مقاليد الحكم».

«إلى متى؟».

«إلى أن يبتَّ الكونغرس في المسألة، وقد يستغرق ذلك ثلاثة أسابيع. لا أدري ماذا كان المشرِّعون يقصدون عندما صاغوا هذا التعديل. أفترض أن شغلهم الشاغل كان الحيلولة دون شغور الكرسي الرئاسي. وعلى أي حال، إنهم لم يضعوا في حسبانهم وضعاً مثل الوضع الذي نشهده».

«وما العمل الآن؟».

ردَّ مورو عليَّ بإبهام، وفهمت بأنه لا يرغب في أن يتطرَّق على الهاتف إلى مختلف الخيارات التي يفكر فيها، خوفاً من أن يكشف

استراتيجيته للأعداء. وأفترض أن سبلاً قانونية شتى تتوافر، وأن لعبة شطرنج يشتدُّ فيها التنافس تجري على هذا المستوى.

غير أن المبارزة تخاض كذلك في وسائل الإعلام، والنهج الذي اختاره اليوم أنصار ميلتون يقوم على مواجهة المقابلة التلفزيونية لنائب الرئيس بمقابلة تلفزيونية أخرى، للسيدة الأولى، التي هي اليوم، بلا منازع، أكثر الشخصيات شعبية في الولايات المتحدة.

وفي هذا البرنامج الذي استغرق ساعة، وحطَّم، كما يبدو، جميع نسب المشاهدة، سعت سينثيا ميلتون، طوال الوقت، ومنذ الوهلة الأولى، إلى تدمير غاري بولدر، والتشكيك في مصداقيته، من دون أن تذكر اسمه أو مهامه مرة واحدة:

«سمعت البارحة تصريحات حمقاء ومستهجنة لا تليق بأمتنا العظيمة. يبدو أن المرء يُتَّهم بارتكاب إثم إذا تمنى الشفاء لشخص قريب مصاب بالسرطان أو بمرض ألزهايمر. يبدو أن المرء يتحدى الخالق إذا ما سعى إلى إنقاذ والديه أو زوجه أو أطفاله الذين يعانون مرضاً شديداً أو الذين تعرَّضوا لحادث».

«إن هذه التصريحات المتهورة تتنافى مع المنطق السليم، وتتنافى مع اللياقة الإنسانية، وتنتهك القوانين الإلهية. دعوني أقولها لكم بكل ثقة وبكل يقين: إن أسوأ أشكال الإثم هي أن نعتبر الله مجرد واهب للعلل وحارساً للموت، وأننا نخالف مشيئته ونغضبه إذا ما اخترنا الحياة.

«إن أسوأ الآثام أن نعتبر بأن الله يبتهج لآلامنا الجسدية والمعنوية، وأنه يشعر بالإهانة إذا ما نجا أحباؤنا من الموت».

«في الأزمنة الغابرة، كان نصف الأمهات يقضين أثناء الولادة، ونصف المواليد الجدد يموتون في سن مبكرة. فمن المسؤول عن موتهم؟ الله أم جهل البشر؟ أنا أقول إن الجهل يقتل والتقدم ينقذ. وأولئك الذين يحوِّلون الله إلى عدو للتقدُّم وحليف للجهل هم بنظري أثمة. ولا علاقة لهم بالله، وبالدين، ولا بالروح الرائدة لأمتنا العظيمة».

«سمعت أيضاً اتهامات بالصفاقة. ولكن أية صفاقة أسوأ من صفاقة الإنسان الذي يزعم أن يقرِّر عنا إذا كان علينا أن نحفظ من المرض والموت أحباءنا؟ إن الأشخاص الذين يتفوَّهون بمثل هذه الادعاءات هم من عصر آخر لا يجدر بهم، بالتأكيد، أن يكونوا على رأس بلد متقدِّم وحر مثل بلدنا».

«القرار لنا إذا كنا نريد أن يشفى أحباؤنا أم لا. وجوابي نعم، نريد ذلك، بكل قوانا، وسنقولها بالفم الملآن. سنقولها بجميع الوسائل، على شاشات التلفزيون، وفي الإذاعة، وفي مواقع التواصل الاجتماعي، وفي الساحات العامة. لا أحد سيمنعنا من علاج أزواجنا وأطفالنا وأهلنا وإنقاذهم. سنبذل كل ما في وسعنا للحفاظ على صحتهم الجسدية والمعنوية أطول ما يمكن. وما من هدف أكثر أهمية بنظرنا، وما من مقصد أنبل. وبما أن العناية الإلهية قد شاءت أن نلتقي أشخاصاً استطاعوا اكتساب معارف طبية خارقة، سنلجأ إلى علمهم، بلا تردُّد، وبلا خجل. فأهلاً وسهلاً بهم بيننا!».

«لا تحتاج أمتنا اليوم إلى معركة من أجل السلطة، ولا حتى إلى سجال إيديولوجي. إننا بحاجة إلى صحوة لإنقاذ أحبائنا. لقد كافحتُ من أجل شفاء الرجل الذي أحب، وبفضلكم، استطعت أن أجعله يتلقى العلاج ويشفى. وإنني فخورة بذلك، بل إن ذلك أجمل ما فعلت منذ أن أبصرت النور. لقد أغدقتم عليَّ المساعدة بسخاء لكي أنتصر في هذه المعركة، ولقد انتصرت. وكان هو وارد على شفير الموت، وها هو اليوم بصحة وعافية. والآن، عليكم أنتم أن تنتصروا في معركتكم! أجل، عليكم، رجالاً أو نساء، شباباً أو شيباً، أن تنتصروا في معركتكم، معركة الحفاظ على صحتكم وصحة أقاربكم، للقضاء على الأمراض وإبعاد شبح الموت».

«إنها أجمل المعارك وأنبلها وأنصفها، وسأخوضها بكل قواي. فلينضم إليَّ بثقة كل الذين يسمعونني وكل الذين يرغبون في الحفاظ على أحبائهم، وإنني واثقة من أن صلواتنا ستستجاب».

كان كلام السيدة الأولى لا يخلو من الشعبوية. ولكن إذا كان قصدها التأثير في جمهور مستمعيها أشدَّ التأثير، فلقد نجحت في ذلك نجاحاً باهراً.

وعندما أذكر ردود الفعل الملتهبة حماسةً التي أثارتها مبادرتها السابقة، منذ عشرة أيام، فإنني مقتنع بأن الأميركيين، وبالأخص الأميركيات، سيتجاوبون مع ندائها الجديد، وسيرغبون في تقديم الدعم لها.

الأحد ٥ كانون الأول

خانتني بصيرتي البارحة مساء.

لقد فهمت، بالطبع، أن التصريحات العاطفية والهجومية التي أدلت بها سينثيا سيكون لها دويّ. غير أنني غفلت عن الأهم: ذلك الغضب الذي كان يعتمل تحت جمر الكرة الأرضية، والذي أُطلق له العنان اليوم.

من يستهدف هذا الجموح؟ هل يستهدف سياسياً أميركياً مغتصباً بالقدر الكافي، وقد تفوَّه بكلام شائن؟ هل يستهدف الهجوم القاتل الذي دمَّر المستشفى العائم، ودفع بأطباء إمبيدوقليس إلى التخلي عنا؟ هل يستهدف أولئك الذين يستحوذون على حق اتخاذ القرارات عنا، في هذه الحياة وفي الآخرة؟ قالت لي إيف إن الأمر لا يقتصر على

ذلك. إنها تدلي بآراء تثير اضطرابي، وتضايقني قليلاً. غير أنني أسلِّم بها كلما فكرت فيها ملياً.

في مطلع هذا النهار، تراءى لي أنني أحضر استعادة لسيناريو الأسبوع الفائت، عندما خرج المواطنون من منازلهم، على الفور بعد النداء الذي أطلقته السيدة الأولى، ليظهروا لها الدعم في الساحات العامة. وهذه المرة أيضاً، احتشد المتظاهرون، في بعض الأماكن الرمزية أولاً، مثل ساحة تايمز سكوير في نيويورك، حيث تجمع الكثيرون لمتابعة المقابلة على شاشات عملاقة؛ ثم في مدن أخرى: بوسطن، واشنطن، شيكاغو، ميامي، سان فرانسيسكو أو بالتمور. وبالتالي، كان التاريخ يعيد نفسه في الظاهر، بفاصل عشرة أيام.

ولكن ذلك لم يكن سوى ظاهر الأمور. فقد تغير شيء ما جوهري في هذه الأثناء. لم يكن من السهل التنبه لذلك ما دامت الأحداث لم تكشف ذلك؛ ومن جهتي، على أي حال، لم أتنبه لذلك سوى هذا المساء، وسأحتاج إلى الكثير من الوقت لتقييم العواقب كافة.

إن ما أدركته بصورة متأخرة للغاية أن ظهور «أصدقاء إمبيدوقليس»، بطبهم المتقدِّم، ومستشفياتهم العائمة، قد أدى، في جميع أنحاء العالم، إلى انقلاب في الأولويات وسلَّم القيم. وبما أنه قد أصبح من الممكن هزيمة المرض، والتغلب على الشيخوخة، وإبعاد شبح الموت - وكل ذلك من دون إنفاق درهم واحد، بفضل ما يجب أن يُعدَّ هدية من السماء ... أو من البحر!-، فلا شيء في حياة البشر

يحظى بالأهمية نفسها التي كان يحظى بها من ذي قبل، لا المال، ولا الوقت، ولا العمل، ولا التراتبيات الاجتماعية، ولا موازين القوى. فكل ما كان يسود المجتمعات البشرية حتى اليوم يتهمَّش، وينطوي على مفارقة تاريخية، بل وتنتفي ضرورته.

منذ الليلة الماضية، تبُثُّ الصور من الساحات العامة مباشرة، عبر قنوات ومواقع لا تُعدُّ ولا تحصى. ولقد أمضيتُ ساعات طويلة أتأملها، مدوِّناً ملاحظات في بعض الأحيان.

وكانت ملاحظتي الأولى أن الناس يتظاهرون سواء في البلدان التي لطالما نعمت بحرية التعبير أو في البلدان التي كان التحلي فيها بالجرأة للخروج إلى الشوارع في مسيرات ضرباً من التهوُّر بل ومن الانتحار، فلأن الرغبة في الشفاء اشتدَّت وألحت، وتعطل مفعول «الخوف من الدركي»، وكذلك لأن القادة أنفسهم أصبحوا فريسة مشاعر ملتبسة وكفوا عن فرض سلطتهم حقاً. ومع أن عظماء هذا العالم - من ملوك، ورؤساء دول، ورؤساء وزراء، ومشيرين، وحكام عسكريين - لديهم ما يدافعون عنه من امتيازات وصلاحيات، فإنهم لا يستطيعون أن ينسوا بأنهم، قبل كل شيء، مرضى مثل غيرهم، أو سيصبحون كذلك عاجلاً أم آجلاً، ولو حصلوا على حق تلقي العلاج وتوفيره لأقاربهم في المستشفيات العائمة، فسيكون ذلك أكثر حيوية بالنسبة إليهم من جميع الامتيازات التي يتيحها لهم مركزهم وتُوفِّرها سلطتهم. ولذلك، فالمتظاهرون، حتى أولئك الذين كانوا دوماً

خصومهم، يجدون أنفسهم في الوقت الراهن، وبطريقة أو بأخرى، قد أصبحوا حلفاءهم. ولا شك في أن هذا ما يبرِّر عدم التعرض بالقمع إطلاقاً للتجمعات الحاشدة التي نراها تجري أمام أنظارنا في أي مكان.

وتتـألف الحشود أيضاً من حضور لانمطي. ففيها شيبٌ وشباب على السواء؛ ونساء أكثر بكثير من الرجال؛ أطفال يمسك أهلهم بأيديهم، أو يحملونهم على أذرعتهم؛ ويُلمح كذلك حضور المرضى من ذوي الحالات المستعصية الذين يمضون مع جهاز التروية وسط الأصحاء المعافين. اجتاح أشخاص من جميع الأصول والطبقات الساحات العامة؛ ويشير الإحصاء الأخير إلى ثلاثة آلاف مدينة في مئة وأربعين بلداً، وثلاثين مليون متظاهر ومتظاهرة. إنهم يفترشون الأغطية، ويجلسون فوق صناديق خشبية، أو على مقاعد قابلة للطي ليلاً، نهاراً، تحت المطر، أو وسط الثلوج. يرفعون لافتات، ويمرّون فوق رؤوسهم هواتف تصوِّر، ويهتفون بين الحين والآخر شعاراً من قبيل: «دعوا المستشفيات تعدْ!»، «دعوا الأطباء يعودوا!» بل، بكل بساطة، «دعوهم يعودوا!».

الكوكب بأسره يشخص إلى هذه الحشود. لا أحداث تجري في أي مكان آخر. لا أحد يسافر، لا أحد يعمل، كل شيء معلَّق. لا أحد يتكلم عن أي موضوع آخر، لا في وسائط الإعلام، ولا في مواقع التواصل الاجتماعي، ولا في المنازل، ولا في دوائر الحكم. إنها ثورة

غريبة تسير قدماً، أوسع الثورات نطاقاً، وأكثرها هدوءاً، وأشدَّها مقاومةً للهزيمة.

إذا ما أصغيتُ إلى إيف، فإنَّ ما يجري أمام أنظارنا ليس سوى احتضار العالم القديم، أي العالم الذي عرفناه. ولشدة ما يبدو لها اندثاره محتوماً، إنها تتحدث عنه بالفعل مثل حقيقة واقعة.

«سيقول المؤرخون الذين سينكبون غداً على دراسة حضارتنا إنه كان يكفي أن تسدد خبطة إليها، لشدة ما أصابها العفن، لكي تنهار. وأتت الضربة القاضية من حيث لم تكن منتظرة، ولكنها كانت ستأتي، عاجلاً أم آجلاً، بطريقة أو بأخرى. لقد اخترعنا أسلحة فتاكة انقلبت ضدنا في نهاية المطاف. وفي هذا المساء بالذات، كان بإمكان آلة جهنمية - نووية أو بكتريولوجية أو كيميائية - أن تنفجر في حاضرة كبرى، وتودي بحياة عشرات الآلاف من الأشخاص، وتبث الهلع في كل أنحاء الكرة الأرضية. ومع قليل من الحظ، كان من المأمول تأخير حدوث الكارثة سنة بعد، أو سنتين، أو خمس سنوات...ولكن هل كان بمقدورنا تفادي حدوثها إلى الأبد؟ بالطبع لا. فالضغائن كانت تحتدم، والتكنولوجيا تهيئ لها - عن علم حيناً وببراءة تامة أحياناً -الأدوات التي ستسمح بإطلاق العنان لها، والتسبب بإبادة تامة. فما هو احتمال أن ننجو من كارثة؟ الاحتمال معدوم. ولذلك فقد تشبث أبناء عصرنا على هذا النحو بمخلِّصيهم غير المتوقعين».

وسألتها: «وهل تظنين حقاً أن كل هؤلاء الأشخاص الذي يتظاهرون يحلِّلون الأمور مثلك؟».

«ربما لا يفعلون بالمفردات نفسها، ولكنهم جميعاً يعيشون الحالة الذهنية نفسها، التي تسبب بها الواقع الكارثي نفسه، والمخاوف عينها».

واكتفيتُ، للرد عليها، بمطِّ شفتي إلى أعلى بحركة غامضة. وأحسستُ بأنني غير قادر على القول إذا كانت جارتي الكاتبة مصيبة في رأيها أو مخطئة. وفي الواقع، إنها تنزع أحياناً إلى الانقياد وراء حماستها، غير أنني تعلَّمت ألا أقابل «استناراتها» أبداً باستخفاف.

*

وثمة اختلاف مهم بين التظاهرات الاحتجاجية منذ عشرة أيام وتلك التي تجري اليوم؛ فالأولى كانت تهدف بالأخص إلى دعم معركة تخوضها امرأة ضد تعنُّت زوجها. ولا شك أن المتظاهرين آنذاك كانوا يفكرون أيضاً في أمراضهم، وبالفوائد التي سيجنونها إذا ما انتصرت سينثيا ميلتون وشكَّل انتصارها سابقة؛ ولكنهم احتشدوا أولاً لأجلها، لأنها عرفت أن تستثير تعاطفهم. أما هذه المرة فإن الناس خرجوا إلى الشوارع في المقام الأول لأجل أنفسهم ولأجل أقربائهم، يحدوهم، جميعاً، أينما كانوا، وأياً كانوا، مطلبٌ واحد: عودة المستشفيات العائمة.

ولقد أدركت السيدة الأولى ذلك تماماً. وهذا المساء، في مقابلة تلفزيونية أخرى، بثت هذه المرة عبر شاشات عملاقة لتتابعها الحشود في العالم بأسره، الحشود في ساحة تيانانمن وفي ساحة تايمز سكوير على السواء، وجهت نداءً يصبُّ بالضبط في المنحى الذي يرجوه المحتجون:

«أود توجيه رسالة شخصية إلى رجل التقيته منذ أسبوعين، وأكنُّ له كل التقدير: ديموستينس».

وردَّدت، رافعةً نبرة صوتها: «سيد ديموستينس!». وصمتت، وانتظرت، وكأنها قد اتصلت به حقاً وكانت ترجو أن تسمع جوابه. وأعجب بهذا الموقف المسرحي المتظاهرون الذين احترموا بخشوع هذه اللحظات من الصمت. ثم استأنفت كلامها، وخاطبت الشخص مباشرة:

«لا أدري ما هو الدور الذي تؤديه في بلدكم، ولكنك أنت الوحيد الذي أعرفه، وأنت تعاملت وحدك معه عندما أتيت، بصفتك مفوضاً كامل الصلاحية، لتتفاوض مع حكومة الولايات المتحدة. لقد أقمتَ في البيت الأبيض، ثم جئت تشكرني على الاستقبال الودود الذي حظيت به».

«في تلك المناسبة، قطعتَ لي وعداً بأنك لن تدخر وسعاً لشفاء هوارد الذي كان يعاني آنذاك سرطان الرئة في مراحله الأخيرة. ولقد وفيتَ بوعدك. واليوم، بفضلك، أبلَّ زوجي من مرضه. واستطاع طبيبه

المعالج، الدكتور أبيل، التصديق على هذا الشفاء. لم ألتقيكَ مجدداً منذ ذلك الحين، ولا أعرف لك عنواناً للمراسلة، فلم أستطع بعد الإعراب لك عن امتناني. إنني أنتهز هذه الفرصة لكي أتوجَّه إليك بالشكر علناً، وأتوجَّه كذلك بالشكر إلى كل أفراد طاقم السفينة الاستشفائية التي تلقى زوجي العلاج على متنها. لقد قمتم بإحياء هوارد، وأبعدتم عنه شبح الموت الذي كان على وشك أن يرديه. لقد ردَّ لنا أصدقاؤك الحياة، وفي المقابل وهبناكم الموت. فقد اختار أشخاص متعصبون، عديمو الضمير، مضلَّلون، أن يقتلوا أولئك الأشخاص أنفسهم الذين شفوا الرئيس. كنت أتمنى أن أشكر هؤلاء الذين عالجوا هوارد فرداً فرداً، وأجد نفسي أقدِّم التعازي لأقاربهم».

«إن اليد الآثمة التي قتلت مواطنيكم ومواطنينا، والتي قتلت في اللحظة نفسها أولئك الذين كانوا يتفانون في الشفاء وأولئك الذين كانوا يأملون بالشفاء، تلك اليد كانت تريد أن تفرِّقنا عنكم، كانت تريد أن تبعدنا عنكم، وبالرغم من ذلك، ومن دون قصد منها، مزجت دماءنا بدمائكم، ومزجت مصيرنا بمصيركم. وها هو مصيرنا واحد من الآن فصاعداً، وسنبقى كذلك، في السراء والضراء. وأرجو أن يكون ذلك في السراء، لأجل الحياة، ولأجل التقدم، سيظل مصيرنا واحداً، نحن جميعاً، إخوة وأخوات من جميع الأعمار والأصول كافة ».

«صديقي العزيز ديموستينس، اعلم أنك ستكون دائماً ضيفاً عزيزاً في بيتنا. وسنظلُّ أنا وهوارد ممتنين لك دائماً، ومن دواعي سرورنا أن

نستضيفك باستمرار. عُد إلينا! عُد مع أصدقائك ومع الأطباء المرموقين في أمتكم!».

«أعرفُ أنني أتكلم في هذه اللحظة باسم جميع الذين يستمعون إلي، وجميع الذين يحتشدون في الساحات العامة، يناشدونكم:

«تعالوا! عودوا! وسوف تكونون على الرحب والسعة عندنا!»».

مكتبة
t.me/t_pdf

الاثنين ٦ كانون الأول

انتهت المبارزة في واشنطن على حين غرة لمصلحة الرئيس ميلتون.

لا أدري إذا كان لكلام زوجته الفضل في ذلك، ولكن من المؤكد أن التظاهرات الحاشدة لعبت دوراً. واستسلم نائب الرئيس في الليل، وكاد يعتذر عن نيته إبقاء رئيسه «في عجز عن أداء مهامه».

ووفقاً للمحلِّلين الذين استمعت إليهم عندما استيقظت، لم يتراجع الرئيس بالوكالة إلا لتفادي هزيمة أشدَّ مذلة. فالكونغرس كان يتهيأ في الواقع للتصويت في اليوم نفسه، بشبه إجماع، على إعادة هوارد إلى تولي كامل مهامه. ولشدة ما انتقد غاري بولدر انتقاداً لاذعاً على تصرفه، كان سيتمكن بمشقة من الاحتفاظ بمنصب نائب الرئيس. فاستبق الأمور، حفاظاً على منصبه.

أصبح الرأي العام في الوقت الراهن مؤيداً للرئيس بشدة بحيث اضطر مناوئو سياسته إلى التزام الصمت، والانكفاء، متضرعين إلى السماء أن يختار قوم إمبيدوقليس بأنفسهم، إثر الصدمة التي تلقوها بسبب الهجوم القاتل، التواري عن الأنظار نهائياً.

ومن الممكن، من ناحية أخرى، أن نعلم على وجه السرعة حقيقة ما سيجري. فلقد أدلى الناطق باسم البيت الأبيض ببيان أعلن فيه أن حفلاً سيقام في مقبرة أرلينغتون العسكرية يوم الأربعاء ظهراً، لتكريم ذكرى الضحايا. وفي آخر إحصاء، بلغ عددهم مئة وثلاثة وعشرين قتيلاً، من بيهم اثنان وتسعون أميركياً وواحد وثلاثون من الرعايا الأجانب، وهذا الرقم الأخير يشمل الأشخاص التسعة الذين كانوا يعملون على متن المستشفى العائم.

ويوضح البيان أن قادة البلدان التي خسرت ضحايا سيكونون على الرحب والسعة إذا رغبوا المشاركة في التكريم. وخرج الناطق باسم البيت الأبيض عن النص الذي كان يتلوه ليقول إن الرئيس يتمنى من كل قلبه أن يلبي ممثلو «أمة إمبيدوقليس» الدعوة. «ستكرم سلطات الولايات المتحدة وشعبها وفادتهم، وسيُدعى رئيس وفدهم إلى إلقاء كلمة خلال الحفل».

وعلى هذا النحو، حُدِّد «لهم» موعد، في ساعة معينة، في مكان عام ستتركز عليه كل عدسات كاميرات العالم.

لم يستطع معاصرونا قطّ، باستثناء قلة قليلة أسعفني الحظ وكنت

في عدادها، أن يلمحوا أي واحد من «أولئك القوم». ولذلك، سيكون الفضول الذي يثيرونه أشدَّ لهفة.

هل سيأتون؟ وكم سيكون عددهم؟ وما هي هيئة قائدهم؟ وأي كلمة سيلقي على المنبر؟

هذه الأسئلة، وألف سؤال آخر، ستظلُّ تطرح، في جميع أنحاء العالم، حتى يحين الموعد المحدد.

*

اتصلت بعد الظهر برقم أغاممنون، على أمل أن يخفف ذلك من نفاد صبري. وكان ذلك، بالمعنى شبه الحرفي للكلمة، مثل ضربة سيف في الماء.

وبعد طقة بسيطة، سمعت رسالته المسجَّلة التي كنت أعرفها. لم تكن بأمر ذي أهمية، غير أنني كنت سأصاب بخيبة أمل لو أبلغني صوت آلي أن الرقم أصبح خارج الخدمة. وتركت رسالة تبدأ تقريباً كما يلي: « أتصل فقط لكي أعلم إذا كنا سنلتقي عما قريب...».

كنت أتساءل إذا كان يجدر بي أن أضيف شيئاً حين دخلت جارتي وربيبتي اللتان كانتا قد خرجتا للتنزه معاً إلى الحجرة من دون سابق إنذار. فقلت للشخص الغائب على الخط: «إيف وأدريان تهديانك تحياتهما»، قبل أن أنهي المكالمة.

سألتا بصوت واحد: «من هذا؟».

أجبتُ لكي أثير ذعرهما: «الملَّاح».

فحملقت عيونهما الأربع.

«أين هو؟».

استغرقت الوقت الكافي قبل أن أعترف بأنني كنت أتحدث إلى مجيبه الآلي فحسب.

«كنت أريد فقط أن أقول له إننا في انتظاره».

كان من حق المرأتين الشابتين أن تسخرا مني؛ ولكنهما لم تفعلا، لا بل اقتربتا منّي، وطبعتا على وجنتي قبلات امتنان.

الثلاثاء ٧ كانون الأول

ظننت أن هذا اليوم السابق لحفل التكريم في أرلينغتون سينقضي بالنسبة إليّ وسط الترقب والتأمل. ولكن شاء القدر أن يترك هذا اليوم بصمته في حياتي بطريقة مختلفة كل الاختلاف. ما زلت تحت وقع الصدمة، ويبدو لي أنني سأظلُّ كذلك، لفترة طويلة، بل وطويلة جداً.

لم تكفَّ وسائط الإعلام منذ البارحة عن تعداد أسماء قادة العالم الكثيرين الذين سيكونون إلى جانب الرئيس ميلتون. وسيحضر بعضهم لتكريم مواطنين لهم قتلوا في الهجوم، ولكنهم سيأتون بمعظمهم بدافع الفضول المحض، لرؤية مبعوثي إمبيدوقليس عن كثب ومصافحتهم.

لكن إيف وأنا لم نتحدث اليوم كثيراً في هذا الأمر. أمضيتُ النهار بطوله برفقتها. تنزَّهنا، وأريتها الحجر المسطَّح الذي أجلس عليه أحياناً

للكتابة. واصطحبتني لزيارة الخليج المتاخم لبيتها؛ حيث تسبح عاريةً في فصل الصيف. ومن الطريف أن تكون في هذه الجزيرة الصغيرة زوايا لا يعرفها أحدنا بعد انقضاء كل هذه السنوات.

ثم توجهنا، مثل حاجّين، إلى شاطئ لاروش-أو-فرا، وتبين لنا أنه استعاد طابعه المهجور كلياً كسابق عهده. ولكنها كانت ساعة المد في الحقيقة، وكان ممرُّ الـ«غواي» مغموراً بالمياه، ولا وجود لأي زائر بالتالي ما عدا «السكان المحليين» القلائل.

وفي لحظة من اللحظات، أثناء حديثنا، أعربتُ عن استغرابي لأننا قد أقمنا، أنا وهي، منذ فترة طويلة جداً، على مسافة بضع مئات الأمتار، وفي غياب أي من السكان، من دون أن نقيم بيننا أي صلة، ولا حتى صلة حسن الجوار... ومن ثم، تطلب الأمر أن تقع هذه الأحداث الغريبة...

ولكن هذه الأحداث، كما قالت لي إيف صراحة، لم تكن ظرفاً مواتياً أو عاملاً محفزاً فحسب. «الحقيقة أنني أصبحت، في هذه السنوات الأخيرة، كارهة للبشر بطريقة لا تطاق. ولقد تصالحت مع العالم بأسره بفضل ما جرى، وحتى مع الرجال الذين يسكنون على قاب قوسين أو أدنى مني».

اكتفيتُ باحتضان يدها في يدي واحتفظتُ بها للرد على دعابتها. ومضت تقول:

«لقد أصبح، في هذه السنوات الأخيرة، مجرد ساحة معركة

للمطامع والضغائن. وفسد كل شيء: الفن، والفكر، والكتابة، والمستقبل، والجنس، والجيرة... وفجأة، تمحى اللوحة، بضربة ممسحة قوية، ويعود التاريخ إلى خانة البداية، ويستعيد كوكبنا براءته. ما الاسم الذي سنطلقه عليه برأيك؟».

سألتها، شارد الذهن: «أتقصدين كوكبنا؟».

«كلا، أقصد: طفلنا».

ستظل تلك الكلمات، بالنبرة التي قيلت بها، تدوِّي في رأسي طويلاً.

هل قالت إيف «طفلنا؟».

وعلى الفور، جلست على حجر، على حافة الطريق. وجلستُ بقربها، وأنا أتأمل وجهها. هل كانت تضحك أم لا؟ وعلى سبيل اللهو، راحت تنظر بعيداً، إنما بابتسامة خفية. فلفظتُ بدوري الكلمة:

«طفلنا؟».

وكان جوابها أنها احتضنت يدي في يديها، وأراحت رأسها على صدري.

اغرورقت عيناي بالدموع.

الأربعاء ٨ كانون الأول

ساد الظن أنهم سيأتون، هذه المرة أيضاً، عبر البحر، وأن سفينتهم سترسو - رمزياً - على مقربة من المكان الذي وقع فيه الهجوم ضد المستشفى العائم؛ أو أنهم سيصلون جواً، ويترجَّلون من طائرة مروحية على العشب المكسو بالثلوج في مقبرة أرلينغتون. ولكنهم اختاروا الدخول من باب موارب، إذا جاز القول: بالانضمام خفية إلى سيارات الليموزين السوداء للموكب الرئاسي. وفي اللحظة الأخيرة، علم الجميع بحضورهم، لدى رؤيتهم يخرجون من إحدى السيارات ويتوجهون إلى المنصات الرسمية.

كان وفدهم لا يضم سوى عضوين: كان ديموستينس الذي تعرفت إليه أجهزة الأمن يمشي في المقدمة، مما جنب ممثلي إمبيدوقليس عناء التعريف عن هويتيهما؛ ووراء المفاوض، تقدَّمت امرأة من الواضح أنها رئيسته.

الملكة إلكترا.

البارحة فقط، كان لا أحد يعرف اسمها أو وجهها، ولا أحد يعلم حتى بوجودها؛ وإنها اليوم الشخص الأكثر شهرة، والأكثر استقطاباً لعدسات المصوِّرين، والأشد بأساً، من دون شك، على وجه الأرض.

الملكة إلكترا.

هكذا لُقِّبت منذ الوهلة الأولى، مع أنه ليس من المعروف، في الحقيقة، ما هو اللقب الذي تحمله حقاً، ولا حتى إذا كان على رأس النظام السياسي الذي يحكم «الأمة المتدخلة» ملكٌ أو رئيسٌ أو رئيس وزراء أو مَرْزبَان أو أركون. وسيعرف ذلك في نهاية المطاف، ولكن الأمر ليس بذي أهمية. فاليوم، كنا بحاجة إلى رؤية وجه، ولقد رأيناه.

الملكة إلكترا.

كان يصعب على عدسات المصوِّرين أن تصرف انتباهها عنها. كانت لا تفارق الشاشات إما في وسط الصورة، وإما جانباً، في إطار منفرد، وكأنه لا يجب إضاعة لحظة واحدة من حضورها معنا، ولا نظرة من نظراتها، ومن إيماءات رأسها، ومن ابتساماتها، ومن فغرات فمها، ومن رفيف رموشها.

لن أجازف وأحدِّد عمرها أو أصلها. فقد تكون في الأربعين أو ضعف ذلك، وملامحها تربطها بجميع القارات وجميع الأعراق: فشعرها أشقر، وبشرتها نحاسية، وعظام جبهتها ناتئة، وعيناها مائلتان. ألم أقل إن أغاممنون يلوح مثل ثمرة الزواج بين الثور الجالس وحورية

الولكيري الشقراء؟ وتصح الملاحظة نفسها على إلكترا، التي قد تكون ابنته، كما في الأسطورة القديمة، أو في جميع الأحوال فرداً من أسرته. ولقد قلت أيضاً إنه يصعب عليَّ أحياناً أن أحيد بنظري عنه. ويصحُّ ذلك بقدر أكبر على «مليكته».

كانت ضيفة مثلها فقط تستطيع خطف الأضواء من هوارد ميلتون. كان حضور إلكترا أعجوبة، ولكن حضور الرئيس لم يكن أقلَّ من ذلك. ففي المناسبات التي ظهر فيها علناً في الآونة الأخيرة، كانت سحنته أشبه بقناع جنائزي، يواكبها صوته الآتي من اللحد. ولقد اختفى كل ذلك. فلقد استردَّ صديق مورو شبابه، ولاح شاباً على نحو فاضح. بشرته، نظرته، مشيته. طريقته في النهوض أو الجلوس، والهمس في أذن إلكترا إلى يمينه، أو في أذن سينثيا إلى يساره. كان سعيداً بوجوده وسط هذا الثالوث. يلوح مشرقاً، هادئاً، ساحراً، منتصراً.

يجب الاعتياد على أن العلاج بواسطة طب إمبيدوقليس، لا يشفي العليل من الداء، بل من العلل كافة، الظاهرة للعيان والخفية، بما في ذلك علل الشيخوخة. وفي وسع المرء «المرمَّم» مواصلة العيش وكأن السنوات التي انقضت من عمره لم تعد تحتسب. ولقد أحسست بذلك منذ دخولي إلى «نفقهم» الشهير؛ وعاينتُ ذلك بانبهار لدى إيف؛ والآن، ترى البشرية جمعاء أمام أنظارها مثالاً بليغاً. فكيف سنعود إلى الزمن الماضي؟ وكيف بحق الله سنعود إلى حقبة، الغلبةُ فيها للمرض والموت؟

عندما ارتقى ميلتون المنبر، بذلت جهداً للتركيز على ما يقول لشدة انبهاري ببشرته، ومشيته، ونبرة صوته. ومع ذلك، فالكلمة التي ألقاها لم تكن عادية.

«هذا اليوم هو يوم يغلب عليه الأسى وتكتنفه المعجزة على السواء. الأسى لأن الأشخاص المئة والثلاثة والعشرين الذين تصطف نعوشهم هنا ما كان يجب أن يقضوا نحبهم على هذا النحو، وما كان يجب أبداً أن يستهدفوا؛ كانوا يرغبون في العيش، وكان يحق لهم أن يعيشوا، ولا شيء يسمح بتبرير العمل الشائن الذي حرمهم من هذا الحق».

«ولكن هذا اليوم هو يوم تتحقق فيه معجزة، لأنه يسمح لنا بأن نشهد لقاء لم نتوقعه مع فرع ثمين من بشريتنا. لقد خسرنا هؤلاء الإخوة وهؤلاء الأخوات، ولقد خسرنا أنفسنا. وكان يفترض بهذا اليوم أن يحملنا على التفكير، وعلى أن نطرح على أنفسنا، علينا جميعاً، مهما كنا، ومن أي أمة أتينا، عدداً من الأسئلة الجوهرية: من نحن؟ إلى أين نحن سائرون؟ ماذا نريد أن نكون؟ ما هو العالم الذي نريد بناءه؟ وبالاستناد إلى أي قيم؟».

«قلما اعتدنا طرح هذه الأسئلة. فنحن غارقون، عادة، في همومنا اليومية، أو بالنسبة إلى المسؤولين مثلي، في الإدارة اليومية للشؤون العامة. ولكن هذا اللقاء مع إخوتنا غير المنتظرين سيكون بالنسبة إلينا فرصة لإجراء تقييم، وتبين كيف ضللنا السبيل، وكيف نستطيع أن نصوِّب اتجاه الدفة».

ثم تطرَّق الرئيس إلى بعض ضحايا الهجوم، لا سيما أحد معاونيه الشباب، الذي قتل ووالدته التي كان قد اصطحبها إلى المستشفى العائم لكي تتلقى العلاج، قبل أن يتوجه إلى قوم إمبيدوقليس:

«حتى الآن، كانت دروبنا منفصلة؛ ومن الآن فصاعداً، يجدر بنا أن نسير جنباً على جنب، وأن نتبادل الاحترام، والتعليم، وأن نشعر، إلى الأبد، بأننا متقاربون ومتضامنون».

«واعلموا أنكم ستكونون دائماً على الرحب والسعة، وأننا سنحقق إنجازات كثيرة معاً».

ثم جاء دور إلكترا. فارتقت المنبر، ووضعت راحتيها الواحدة فوق الأخرى، أعلى صدرها، عند منشأ العنق تقريباً. كانت وضعية غير معهودة تراءت لي علامة على احترام الضحايا أو الحضور؛ ولكن ذلك مجرد افتراض... وكانت الهيئة التي تجلَّت على هذا النحو، في جميع الأحوال، منحوتة وبهية؛ فليس من المستبعد بالتالي أن يكون الأثر المتوخى، جمالياً بالدرجة الأولى.

ثم راحت تتكلم، بالإنكليزية. بلكنة خفيفة، لست قادراً على تحديد منشئها الجغرافي. ربما السويد أو هولندا... لم تكن تقرأ نصاً، ولكن لا يبدو عليها في الوقت نفسه أنها ترتجل؛ كانت توحي بالأحرى أنها حفظت كلمتها أو أنها تقرأها عبر شاشة ملقِّن غير مرئي.

وخلافاً للأعراف، لم تذكر، في مستهلِّ كلمتها، لا رئيس الولايات المتحدة ولا أي شخص آخر من الحضور، ودخلت مباشرة في صلب الموضوع.

«عندما وجد إمبيدوقليس القديم نفسه على جبل إتنا، وشعر بتصاعد أبخرة الكبريت والحمم الحارقة من أحشاء الأرض، كان في وسعه الاحتماء كما تملي عليه الحكمة، ولكنه تابع تقدُّمه، واقترب من فوهة البركان على مسافة خطرة».

«كان يعلم بأنه يعرِّض نفسه باقترابه للموت. ونحن كذلك، تلامذته البعيدون، كنا نعلم أننا باقترابنا من أتون النار، وبتحدينا ألسنة اللهب بأيدينا العارية، قد نواجه الموت. الموت عدونا اللدود. إننا نحاربه كما لم يحاربه أحد من قبلنا. في بعض الأحيان، نتغلَّب عليه، وفي أحيان أخرى يتغلَّب علينا».

«هل قلت إنه عدونا؟ يجدر بي أن أتوخى الدقة: إنه عدونا الوحيد. فحين نكتسب الحكمة والمعرفة اللتين تتيحان لنا إبعاد شبح الموت، لا يبقى لدينا من عدو سواه. وحتى أبد الدهر، ما من عدو آخر سواه، وما من معركة أخرى تستحق أن تخاض».

«إن المسألة محسومة بالنسبة إلينا، نحن أصدقاء إمبيدوقليس. وماذا عنكم، أيها الإخوة الذين لقيناكم؟ هل أنتم على استعداد لاعتبار الموت عدوكم الوحيد؟ أجل، الموت، الموت وحده. لا القوى العظمى الغريمة، لا الشعوب الأخرى، لا الأعراق الأخرى. لا نحن. الموت فحسب. إنه العدو الوحيد الذي يستحق أن يقُاتل، ويُدحر، ويهُزم. هل أنتم على استعداد لإعادة النظر في أولوياتكم، وفتح صفحة جديدة، معنا، وفيما بينكم؟

وبعد أن تفوَّهت بهذه الكلمات، لزمت الصمت، وكأنها تنتظر

جواباً. وطال صمتها، حتى بات من الواضح أن الرئيس ميلتون تساءل إذا كان لا يجدر به أن ينهض للإجابة. وشوهد وهو ينظر من حوله، في حيرة، وقد اعتراه الارتباك بعض الشيء. ولكن إلكترا استأنفت كلامها، بابتسامة مرحة بعض الشيء:

«إننا لا ننتظر جواباً اليوم. لقد استغلت الأسابيع المنصرمة لتعطيل أخطر أسلحة الإبادة. ولذلك، نستطيع جميعاً التفكير بهدوء وسكينة عوضاً عن التفكير بعجلة. فخذوا الوقت الذي تحتاجونه للتوصل إلى قرار، ولكن لا تنسوا أبداً أن أصدقاءكم هنا، يتأملونكم وينتظرونكم».

ونزلت عن المنبر، بعد أن قالت ذلك، وعادت إلى مكانها، على يمين الرئيس.

لا ريب أن عينيَّ كانتا مسمَّرتين على الحفل، على غرار البلايين من أبناء عصري. وبجانبي، إيف وأدريان تتابعان بالقدر نفسه من الانتباه والخشوع. تملكنا الإحساس بأننا نعيش حدثاً منقطع النظير، ولم نشأ أن يبدر منا أي كلام قد يخلُّ بمهابة اللحظة.

لم تجرؤ ربيبتي على الكلام إلا عندما صمتت «الملكة». أدلت بملاحظة سديدة: «ظننت أننا كنا بانتظارهم. وعلى ما يبدو، إنهم بانتظارنا»، قبل أن تضيف قائلة: «ولكن لم أفهم جيداً ما يجب علينا فعله».

أجابتها إيف: «أن نصبح راشدين وأخيراً»، وكأنها قد كُلِفت بأن تجيب بالنيابة «عنهم». «ذلك هو شرطهم للعودة».

وعلَّقتُ بدوري: «أو لعلَّه أسلوب للقول بتهذيب إنهم لن يعودوا أبداً».

كنت أتوقع ردود فعل جامحة من المرأتين الشابتين. ولكن لم يصدر عن أي منهما احتجاج. ومهما قالتا في هذه الأيام الأخيرة، من الواضح أنهما تقبَّلتا عدم «رؤيتهم» أبداً. وقالت جارتي في نهاية الأمر لمجرد التباهي:

«سيظلون قريبين منا، مثلما البحر قريب».

وظلت ساهمة، تجيل الطرف في اليم الشاسع.

وعندما نهضت أدريان للذهاب إلى غرفتها، قالت لي عشيقتي، وكأنها تستأنف حديث الأمس:

«إذا كانت طفلة، سنسمِّيها إلكترا».

سألتها، إذ لم أستطع بعد أن أعتاد فكرة إنجاب طفل، وأنا أرمقها بنظرة جانبية، وكأنني أريد التحقق من مدى جديتها أو اختلاقها لما تقوله:

«هل أنت على يقين من الأمر؟».

هزَّت كتفيها.

«لن أشرح لك تفاصيل تقويم الحمل، ولكن الجواب نعم، أنا على يقين من الأمر تماماً. سيولد طفلنا الصيف المقبل، وسيكون أصدقاء إمبيدوقليس قد عادوا إلينا».

الخميس ٩ كانون الأول

انقضى اليوم شهر كامل بالضبط منذ أن بدأت هذه القصة، وهذه اليومية كذلك. خطر ببالي غير مرة أن أتخلى عنها، ثم وقع حدثٌ حثَّني على مواصلة كتابتها.

واليوم، أتوقف عن كتابة هذه اليومية نهائياً، فلقد انتفت الأسباب التي تدعوني إلى تدوينها. كان ملاذي قد أصبح، لبعض الوقت، مركز مراقبة، ولكنه لم يعد كذلك. فسواء استجدَّت أمور أم لم تستجد، وسواء عادوا أم لم يعودوا، لقد اختتم هذا الفصل، ودوري انتهى. سأسترجع اليوم بالذات ريشتي وحبري الصيني.

غير أنه لا بد لي من الإضافة، على سبيل الخاتمة الحميمة، أن أحداث الأيام الثلاثين الأخيرة لم تبدِّل وجه العالم الفسيح فحسب،

وتُصفِّر عدَّادات التاريخ، بل لقد قلبت أحوال هذه الجزيرة كذلك رأساً على عقب. كانت حتى الآن حصناً تلوذ به وحدتنا، وها هي تصبح شيئاً مختلفاً كل الاختلاف لإيف ولي على السواء.

هل سنحمل بين أذرعنا قريباً ملكتنا إلكترا؟ لم يخطر في بالي يوماً أنني قد أصبح أباً، في مثل سنِّي، وبالنظر إلى أسلوب حياتي. وكان الأمر أقل ترجيحاً بالنسبة إلى حبيبتي. ولكن ها قد بلغنا هذه المرحلة. لقد منحتنا «الأمة المتدخلة»، بهذا القدر أو ذاك، هدية على شكل طفل؛ ومنحتنا كذلك سنوات كثيرة نحتاج إليها لكي نراه يكبر ويترعرع.

ولهذا السبب فقط، لا بد لي من مباركة إخوتنا غير المنتظرين بعد أن لعنتهم كثيراً.

مكتبة
t.me/t_pdf

صدر للمؤلف

الحروب الصليبية كما رآها العرب.

ليون الإفريقي.

سمرقند.

حدائق النور.

رحلة بالداسار.

صخرة طانيوس.

القرن الأول بعد بياتريس.

موانىء المشرق.

الحب عن بعد.

الهويات القاتلة.

بدايات.

الأم أدريانا.

اختلال العالم.

التائهون.

مقعد على السين.

غرق الحضارات.

إخوتنا الغرباء

"ألك"، رسام كاريكاتير في منتصف العمر، و"إيف"، روائية حظيت بشهرة عابرة بفضل روايتها التي حققت نجاحاً باهراً، وهما يعيشان في جزيرة صغيرة على ساحل المحيط الأطلسي.

لم يكن أحدهما يخالط الآخر حتى ذلك اليوم الذي أصاب فيه عطلٌ غير مفهوم جميع وسائل الاتصالات، ما أرغمهما على الخروج من العزلة التي يحرص كل منهما عليها أشدَّ الحرص.

ما سبب هذا الانقطاع في الاتصالات؟ هل تعرَّض الكوكب إلى كارثة أم إلى نزاع نووي؟ هل هما النّاجيان الوحيدان؟

نجح "ألك" في فكِّ اللغز شيئاً فشيئاً بفضل صديقه القديم "مورو"، الذي أصبح أحد المستشارين المقرَّبين لرئيس الولايات المتحدة الأميركية.

ولشدة غرابة اللقاء المحيِّر لمعاصرينا المرتبكين مع إخوة "غير متوقَّعين"، لن يعود بإمكان التاريخ أبداً العودة إلى مجراه السابق.

لأمين معلوف مجموعة قيِّمة من المؤلفات تضم أعمالاً روائية وبحوثاً تاريخية ودراسات سياسية، ترجمت إلى حوالى خمسين لغة.
من خلال قصة خيالية مشوقة وحكاية فلسفية رمزية، يعالج الكاتب في هذه الرواية، وبطريقة مميزة، القضايا الكبرى التي تناولها في عدد من أعماله السابقة مثل الهويات القاتلة، التائهون، وغرق الحضارات.

telegram @t_pdf

ISBN 978-614-485-118-0
9 786144 851180